جامعة مولاى إسماعيل

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

14

2002

جامعة مولى إسماعيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

مكناسة

مجلة سنوية

المدير

الدكتور **مصطفى بن الشيخ**

نائب المدير

الدكتور **محمد انفي**

هيئة التحرير و القراءة

علي فلوس – محمد سدرة – عبد الحميد العبدوني – أحمد المحمودي – أحمد الزيتوني

أمينة حنفي – عبد العالي حبيب

الطبع والتصفيف

م. هاشم بكوي –حسناء الغيداني

تعبر المقالات المنشورة عن آراء أصحابها

لا ترد المقالات التي لم تنشر إلى أصحابها

رقم الإيداع القانوني : 1992/312

ت.د.م.د : 2086-0851

العنوان : كلية الآداب والعلوم الإنسانية – بني امحمد ص.ب **4009** مكناس (المغرب)

الهاتف : 055-53-69-68 / 055-53-70-12

الفاكس : 055-53-72-52

البريد الإلكتروني : flmek@yahoo.com

ميثاق المجلة

-الهدف من مجلة "مكناسة" تمكين الباحثين من وسائل العمل العلمية اللازمة في مجال المعرفة.

- "مكناسة" المتنوعة التخصصات واللغات، تسجل تساؤلاتها في إطار البحث العلمي والاستفادة من المحيط الاجتماعي والاقتصادي للإسهام في الإشعاع الثقافي.

-تطمح المجلة إلى الإحاطة بالرصيد الثقافي في مختلف أشكال التعبير للإسهام في الحوار بين الثقافات في أفق التبادل المعرفي وقبول الرأي والرأي الآخر.

قواعد النشر

1- "مكناسة" مجلة دورية تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس.

2- "مكناسة" تنشر المقالات، الوثائق والتقارير البيبلوغرافية التي لم يسبق نشرها من قبل .

3- تقدم المقالات مطبوعة في سطر مزدوج على قرص مرن من برنامج Word windows ولا يمكن أن تتجاوز 15 صفحة من حجم 29/21 ، وينبغي أن تكون كل مقالة مرفقة بملخص لا يتعدى خمسة أسطر.

4- تثبت الهوامش والمراجع في أخر المقالات.

5- ترتيب المقالات يخضع لعملية تقنية محضة.

6- تعبر المقالات عن أراء أصحابها

7-كل مشارك في عدد من مجلة "مكناسة" يتوصل بنسختين من العدد وعشر (10) نسخ من المقالة

8- توجه المراسلات إلى السيد قيدوم كلية الآداب مدير مجلة "مكناسة"

ص.ب 4009 ابني امحمد -

مكناس

فاكس : 05537252

البريد الإلكتروني : flmek@yahoo.com

فهرس الموضوعات

أدب 7

في معرفة العرب بالشعر اليوناني خلال العصر العباسي 9

ذ. عبد الله الحموجي

النظرة الاستشراقية لتاريخ المغرب العلمي والأدبي من خلال: ((مؤرخو الشرفاء)) للأستاذ ليفي بروفنسال. 19

ذ. علال معكول

أنْسَنَة الرقيق مظهر من مظاهر تكريم الإنسان في الإسلام 45

ذ. عبد اللطيف مومن

لسانيات 57

مدخل إلى دراسة التركيب الوظيفي 59

ذة. فنان أمينة

النحت: إشكالات نظرية واقتراحات تحليلية 71

ذ. عبد الإله الإسماعيلي

تاريخ 93

حيازة الأرض في مصر من الالتزام إلى الملكية الخاصة 95

ذ. عبد الفاضل الصائي

رسائل اخوان الصفا ونزعة التنوير في الفكر العربي الإسلامي 105

ذ. محمد تضغوت

الخلفية التاريخية للمعاهدات المبرمة بين قرطاجة وروما قبل الحروب البونيقية 125

ذ. عمر علوي الاسراني

من وحدة التيمار إلى نظام الالتزام: أضواء حول استغلال الأراضي في العهود العثمانية 137

ذ. قدور بوزياني

موقف فقهاء فاس من إنشاء المدارس المرينية (تابع 2) 149

ذ. السعيد لمليح

دراسات إسلامية 157

حول إشكال القراءة الجديدة للقرآن في كل عصر 159

ذ. محمد سدرة

مصطلح المرسل عند المحدثين 169

ذ. فؤاد بوتصيح

اللغويات العربية ومواقع الفقه والنحو داخل الثقافة العربية. 183

ذ. العربي الخامر

جغرافيا 191

تدريس الجغرافية بالجامعة المغربية : الواقع والآفاق 193

ذ. عمرو إدبل

الإذابة الكربناتية: ظروفها ونتائجها من خلال مثال من كوس الأطلس المتوسط 207

ذ. عبد العالي السبتي

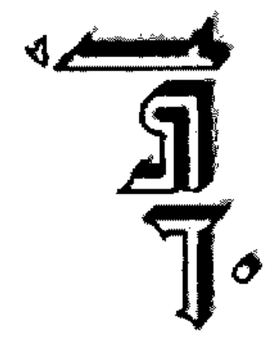

في معرفة العرب بالشعر اليوناني
خلال العصر العباسي

د. عبد الله الحجوجي

كلية الآداب – مكناس–

ملخص :

تهـــدف هذه الدراسة إلى البحث في مدى معرفة العرب بالشعر اليوناني إبان العصـــر العباســـي، كما تتناول بالدرس أسباب إحجام المترجمين عن نقل الشعر اليوناني إلى اللغة العربية.

كان لتبني الدولة العباسية رسميا لحركة النقل والترجمة الأثر الكبير في النهضة العلمية التي شهدها العالم الإسلامي في مختلف فروع المعرفة، فقد وقف العرب على مختلف الإنتاجات الفكرية لأمم كثيرة، متباينة في عاداتها وتقاليدها ولغاتها وأديانها... والملاحظ أنهم " نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد، ولم يتركوا لسانا من ألسن الأمم المعروفة إذ ذاك لم ينقلوا منه شيئا، وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية. فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس، وفي الطب الهندي والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود، وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الأنباط والكـــلدان، وفي الكيمـــياء والتشريح على المصريين... فكأنهم ورثوا أهم علوم الأشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان، وقد مزجوا ذلك كله واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامي الدخيلة" [1].

وما يلفت النظر في الكتب المنقولة عن اليونان أن النقل انصرف إلى فنون العلم والفلسفة ولم يتعداها إلى مجال الأدب والشعر. إذ إننا لا نعثر في آداب اللغة العربية خلال العصر العباسي على كتاب نقل أشعار شعراء اليونان أو اهتم بما خلفوه من آثار، مما جعلنا نطرح أكثر من سؤال حول مدى معرفة العرب بالشعر اليوناني، وسبب إحجام المترجمين عن الاهتمام به ونقله إلى اللغة العربية. فهل عرف العرب الشعر اليوناني ولو في بعض صوره، أم أنهم لم يعرفوا عنه شيئا يذكر؟

إن ما وصلنا من أخبار ونصوص حول معرفة العرب بالشعر اليوناني قليلة جدا؛ يدور بعضها حول رواية هذا الشعر، والبعض الآخر حول ترجمة شيء منه، والبعض الثالث حول التفرقة بين الشعر العربي والشعر اليوناني. وهذه الأخبار على قلتها تعطينا نظرة عن مدى معرفة العرب بشعر اليونان.

لعل أشهر هذه الأخبار ما روي عن حنين بن إسحاق. قال يوسف بن إبراهيم الطبيب: " واعتل إسحاق بن الخصي علة فأتيته عائدا، فإني لفي منزله إذ بصرت بإنسان له شعرة قد جللته، وقد ستر وجهه عني ببعضها، وهو يتردد وينشد شعرا بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم، فشبهت نغمته بنغمة حنين، وكان العهد بحنين قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين، فقلت لإسحاق بن الخصي هذا حنين! فأنكر ذلك إنكارا يشبه الإقرار، فهتفت بحنين، فاستجاب لي ... " [2].

هذا الخبر تناوله الكثير من الباحثين بالدراسة والتحليل، واختلفوا في تقدير مدى معرفة حنين بن إسحاق بالشعر اليوناني. فمصطفى هدارة يقلل من شأن معرفة حنين بن إسحاق بالشعر اليوناني كما يبدو في قوله: " أما ما رواه القفطي من أن حنين بن إسحاق كان يمشي في شوارع بغداد وينشد شعرا باليونانية لهوميروس فلا يعدو أن يكون نزعة فردية لا يقاس عليها ولا تترتب عليها نتيجة ما " [3]. بينما يذهب شكري محمد عياد إلى أن حنين بن إسحاق وبعض معاصريه قد عرفوا بعض الشعر اليوناني، يقول شكري محمد عياد : " فقد كان حنين إذن يحفظ شعر هوميروس وينشده، وكان بعض معاصريه يسمعون هذا الشعر ويعرفونه. ولكن هل يستنتج من ذلك أن حنينا أو أحدا من معاصريه قرأ إحدى ملحمتي

هوميروس؟ لا يمكن القطع بذلك، فإن عادة الاستشهاد بالشعر كانت شائعة عند كثير من الكتاب في العصر البيزنطي، ومن الجائز أن حنينا وأضرابه عرفوا شعر هوميروس في قطع متفرقة، ولم يعرفوه في ملحمة كاملة " [4]. في حين نجد أن نجيب محمد البهبيتي يرى أن اللغة والآداب اليونانية — ومنها الشعر — قد انتشرت خلال العصر العباسي بشكل واسع. يقول البهبيتي: "... فهذا حنين يتخذ سمت الشعراء اليونان، ويذهب في شوارع بغداد يتغنى بشعرهم الرومي غناء يعلنه للناس، وإنما يكون ذلك في قوم فيهم على الأقل من يفهم هذا الشعر ويستسيغه، ثم إن هذا يوسف الطبيب يسمع المغني، فيعرف لغة الغناء، ويعرف الشعر، ويعرف صاحب الشعر الإغريقي. فإذا عرفنا بعد هذا أن حنينا لم يكن رومي الأصل ولا هو يتصل بهذه اللغة إلا اتصال الثقافة والتحصيل، أفادنا هذا شيئا في معرفة مدى انتشار الثقافة اليونانية في تلك البيئة وأفادنا معرفة الناس هوميروس ... بل إني أستطيع أن أخلص من هذا إلى تصور أن هوميروس كان أصلا من أصول تعلم اللغة اليونانية في ذلك الزمن " [5]. فالاختلاف إذن واضح بين الباحثين في تقدير مدى معرفة حنين بن إسحاق ومعاصريه بالشعر اليوناني.

فإذا كان حنين بن إسحاق يتذوق الشعر اليوناني وينشده في شوارع بغداد، فهذا ثيوفيل بن توما الرهاوي المنجم يترجم نتفا منه. يقول ابن العبري: " وخربت مدينة إليون الخراب الذي هو من أعظم الرزايا عند قدماء اليونانيين، وقد رثاها أوميروس الشاعر في كتابين نقلهما من اليوناني إلى السرياني ثاوفيل المنجم الرهاوي " [6]. هذا الخبر يجعلنا نتساءل عن الكتابين المذكورين، هل المقصود بهما الإلیادة والأوديسة خصوصا إذا علمنا أن هاتين الملحمتين تدوران حول أحداث أليون نحو 1200 ق.م. نحن نشك في ذلك لسبب بسيط وهو أن الإلیادة وحدها تتضمن 16000 بيتا من الشعر، وترجمة عمل ضخم كهذا لا نظن أنه يبقى طي النسيان. وعلى ما يبدو فثيوفيل قد قام بترجمة بعض من أشعار هوميروس، قد يكون ترجم النشيدين الأوليين من الإلیادة كما يزعم ديفال [7]. وترجمته هاته لم تجد من يتممها أو يقوم بتوسيع نطاقها، لأن السريان كالعرب لم يهتموا كثيرا بالشعر اليوناني. يقول شكري محمد عياد متحدثا عن السريان:"فقد عنوا بالفلسفة اليونانية لامتزاجها بالدين، وعنوا بالطب

لنفعه في الدنيا، أما الأدب اليوناني الذي كان عند ورثته وسيلة لتقويم اللسان قبل كل شيء، فقد كانوا هم في غنى عن أن ينظروا إليه هذه النظرة، ولم يكن في بيئتهم الأدبيـــة ما يحفزهم إلى دراسته أو يعينهم على تذوقه...." (8)

وإذا كان ثيوفيل الرهاوي قد ترجم أشعارا يونانية إلى السريانية، فمن الأكيد أن بعض معاصريه قد وقفوا على هذه الترجمة، خصوصا إذا علمنا أن اللغة السريانية كانت كثيرة التداول في ذلك العصر عند نخبة المثقفين على غرار اللغة الفارسية واليونانية والهندية، ووقفوا على مدى التباين بين الشعر العربي والشعر اليوناني، يتجلى لنا هذا بوضوح في المقارنة التي أقامها الجاحظ بين الشعرين العربي واليوناني، حيث يقول : " والدليل على أن العرب أنطق، وأن لغتها أوسع، وأن لفظها أدل، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر، والأمثال التي فيها ضربت أجود وأسير، والدليل على أن البديهة مقصور عليها، وأن الارتجال والاقتضاب خاص فيها، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعرا، وكيف صار النسيب في أشعارهم وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم وفي ألحانهم، إنما يقال على ألسنة نسائهم، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، فتضع موزونا على موزون، والعجم تمطط الألفاظ، فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن، فتضع موزونا على غير موزون " (9).

فمن خلال هذه المقارنة الدقيقة التي أقامها الجاحظ بين الشعرين العربي واليوناني يتبين لنا أن الشعر اليوناني لم يكن غريبا على نخبة المثقفين في العصر العباسي ومنهم الجاحظ، إذ كانوا يعرفون لغة الشعر اليوناني ويميزون بين طبيعة هذه اللغة واللغة العربية من حيث الألفاظ والتراكيب، ويدركون اعتماد اللغة العربية الإيجاز واليونانية الإطناب والتفصيل، كما كانوا يفرقون بين طريقتي النظم في الشعرين العربي واليوناني خصوصا ما تعلق بالأوزان التي جعلت الجاحظ يعتبر الشعر اليوناني كلاما لخروجه على مألوف أوزان العربية.

مما سبق يتبين لنا أن العرب في العصر العباسي قد عرفوا الشعر اليوناني لدرجة تذوقه وإنشاده كما ذكرنا أثناء الحديث عن حنين بن إسحاق، وترجمة نتف منه كما رأينا عند ثيوفيل بن توما الرهاوي المنجم، وتمييز الفروق بينه وبين الشعر العربي كما عاينا عند

الجاحظ. ومع كل هذا فإن الشعر اليوناني ظل نطاق تداوله محدودا عند نخبة معينة من الناس، فانعدم تأثيره أو كاد، و لم يجد صدى كبيرا في البيئة العباسية لأسباب وعوامل مختلفة، منها:

1 – أن العرب كانوا يعتزون بشعرهم أيما اعتزاز، وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا بأن شعرهم هو في الذروة من الشعر، وهو نموذجهم الأعلى، قد فاقوا فيه جميع الأمم، وأنهم أصحاب مملكة الفصاحة والبيان، لا يجاريهم فيها أحد، ألا ترى الجاحظ يقول: " وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب " [10]. فالعرب عندما اتصلوا بالثقافة اليونانية طلبوا العون في فنون العلم والفلسفة لكنهم لم يطلبوا ذلك في الأدب، يقول توفيق الحكيم: "... إن العرب في الدولة الأموية وما بعدها ظلوا يعتبرون شعر البداوة والصحراء مثلهم الأعلى الذي يحتدى، وينظرون إلى الشعر الجاهلي نظرتهم إلى النموذج الأكمل الذي يتبع ... فهم قـــد أحسوا فقرهم في العمارة و لم يحسوا قـــط ففقرهم في الشعر ... وهم عندما أرادوا أن ينقلوا عن غيرهم وينهلوا ذهبوا كل مذهب، ونظروا في كل فن ... إلا فن الشعر الذي اعتقدوا أنهم بلغوا فيه الغاية منذ القدم ..." [11]، إذ إن الشعر العربي كان قد أرسيت قواعده وحددت موضوعاته وطرائقه منذ زمن. فهذا ابن قتيبة يقول: " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس لائـــط بالقلوب... فإذا علم أنه قد استوثق منه الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قـــد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكارم في السير بدأ بالمديح، فبعثه على المكافأة وهزه للسماح وفضله على الأشْباه وصغر في قدره الجزيل..." [12]. وقد كان لزاما على الشعراء أن يسلكوا هذا الشكل التقليدي الذي رست قواعده، وقرت أصوله عند الشعراء والقراء في نفس الآن، و لم يكن يتساهل في الخروج

عن هذه القواعد كما يقرر ابن قتيبة : " وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار" (13).

2 – أن العرب كانوا يعتبرون الشعر اليوناني في بعض أوجهه كالشعر العربي؛ ألا تراهم قد ترجموا " التراجيديا " بالمديح، و"الكوميديا" بالهجاء، حتى يستقيم مدلولاهما على ما ألفوه في ميراثهم الشعري من أغراض شعرية! ألا ترى أن الأخبار التي ينقلها مؤرخونا عن شعراء اليونان كهوميروس وأبرخس لا تهتم إلا بأمور مألوفة في تراثنا الأدبي، يتعلق بعضها بمقدرتهم على الخوض في موضوعات بعينها كالفخر والمديح والهجاء، والبعض الآخر حول الموازنة بين الشعراء من حيث كونهم مقلين أو مكثرين أصحاب طبع أو أصحاب صنعة! ألا تراهم كلما تعرضوا لشعر اليونان إلا وكانت المعايير النقدية العربية في تقويم الشعر حاضرة للمفاضلة بين الأشعار من حيث قوتها وضعفها، جودتها ورداءتها ! فكأنهم لم يجدوا في الشعر اليوناني إلا صدى باهتا لما ألفوه واعتادوه في ميراثهم الشعري، مما جعلهم يحجمون عن ترجمته ونقله إلى العربية، والأخبار التالية تؤكد ذلك:

– قال القفطي متحدثا عن هوميروس : " كان هذا الرجل من رجال يونان الذين عانوا الصناعة الشعرية من أنواع المنطق وأجادها، وجاءه أنابو الماجن، فقال له: اهجني لأفتخر بهجائك إن لم أكن أهلا لمديحك، فقال له : لست فاعلا ذلك أبدا. قال: فإنني أمضي إلى رؤساء اليونانيين فأشعرهم بنكولك. قال أوميروس مرتجلا: بلغنا أن كلبا حاول قتال أسد بجزيرة قبرس، فامتنع عليه أنفة منه، فقال له الكلب: إنني أمضي فأشعر السباع بضعفك، قال له الأسد: لأن تعيرني السباع بالنكول عن مبارزتك أحب إلي من أن ألوث شاربي بدمك" (14).

- وقال القفطي أيضا في ترجمة أبرخس الشاعر اليوناني: " أبرخس الشاعر اليوناني، هذا رجل من يونان كان قد أحكم النوع الشعري من الصناعة المنطقية، وتفاخر هو وأوميروس الشاعر اليوناني، ففخر على أوميروس بكثرة الشعر وسرعة عمله، وعيره ببطاء عمله وقلة شعره. فقال أوميروس: بلغنا أن ختريرة بأنطاكية عيرت لبؤة بطول زمان الحمل وقلة الولد، وافتخرت عليها بضد ذلك. فقالت اللبؤة: لقد صدقت، إنني ألد الولد بعد الولد، ولكن أسدا " [15].

3 – إن ترجمة الشعر ليست كترجمة النثر، فهي صعبة للغاية وفيها كثير من العناء والمشقة؛ ويرجع ذلك للحرية التي يجدها مترجم النثر في نقل الأفكار والآراء والأساليب، والقيود التي تحد من قدرة المترجم للشعر في التعبير، كالأوزان والقوافي، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ بقوله: "وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحـــولت آداب الفـــرس، فبعضها ازداد حسنا وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حولت حكمة العرب "[16] لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن [17].

4 – هناك منطق حضاري يعلل إقبال العرب على العلوم والفلسفة ويفسر في نفس الآن إحجامهم عن آداب اليونان، وإلى ذلك أشار أحمد أمين حين قال : " إن الفلسفة والعلوم عالمية والأدب قومي؛ ذلك أن الفلسفة والعلم نتاج العقل، والعقل قدر مشترك بين الأفراد والأمم – وإن اختلفوا في أنصبائهم منه – والمنطق الذي يضبط هذه العلوم يسيغه عقل الناس جميعا، وقواعد الهندسة والطب تطبق على الناس جميعا. أما الأدب فلغة العواطف وليس للعواطف منطق يضبطها، والأدب ظل الحياة الاجتماعية، ولكل أمة حياة اجتماعية خاصة بها تمتاز عن حياة الأمم الأخرى في أشكالها ومراميها. من أجل ذلك تذوق العرب منطق أرسطو وطب جالينوس، و لم يتذوقوا إليادة هوميروس. ألا ترنا اليوم حتى في عصرنا الذي اتصل فيه الناس والأمم اتصالا أوثق مما كان في القديم، لم يتذوق العربي منه الإليادة، إلا أن يكون قد وقف على الحـــياة الاجتماعية اليونانية وأدرك كنـــهها، ومرن ذوقه طويلا على أن يستسيغها" [18]. وهذا ما ذهب إليه أيضا كارل بيكر بقوله " إن العوامل التاريخية والجغرافية

والجنسية في الشرق هي التي جعلته لا يعنيه من الكتب اليونانية إلا ما كان معترفا به من الجميع وما كان في الآن نفسه يلائم عقليته، ونعني به أولا وقبل كل شيء النزعة العقلية المنطقية. فكل شيء كان نصيب الروح اليونانية في صدوره أكثر من نصيب العقل اليوناني مثل الشعر الغنائي اليوناني والأدب الروائي كله، وكل ما كان يونانيا بحثا كآلهة هوميروس وكبار المؤرخين اليونانيين، كل هذه الأشياء ظلت أبوابها موصدة أمام المشرق " [20].

5 – إن الذين قاموا بحركة النقل والترجمة في العصر العباسي كانوا في الغالب الأعم إما سريانا كماسرجويه الطبيب، وجبرئيل بن بختشيوع ويوحنا بن ماسويه ... أو فرسا كعبد الله بن المقفع والفضل بن أبي سهل بن نوبخت والحسن بن موسى النوبختي وإسحاق بن يزيد... أو هنودا كمنكه وابن دهن الهندي... لذلك عرفنا آداب هذه الأمم بواسطة هؤلاء المترجمين الذين اهتموا أشد الاهتمام بإظهار تراث شعوبهم. لكننا في المقابل لا نجد تراجمة يونانيين في العصر العباسي يترجمون أدب الملاحم والدراما ... الخ، ويذيعونه بين الناس، وقد أشار إلى هذا الأمر جرجي زيدان بقوله: " فالمترجمون الفرس نقلوا شيئا من تواريخ الفرس وآدابهم... وكذلك فعل التراجمة السريان بآداب أجدادهم، وكذلك التراجمة الهنود. فلو كان في أولئك المترجمين واحدا أو غير واحد من اليونان لنقلوا كثيرا من تواريخ أمتهم وأشعارها " [20].

6 – عامل أخير لاشك أنه كان من بين العوامل التي حالت دون نقل الأدب اليوناني إلى العربية يتعلق الأمر بما في هذا الأدب من أساطير لا يستسيغها الذوق العربي. يقول حازم القرطاجني: " ...وكان شعراء اليونانيين يختلقون أشياء يبنون عليها تخاييلهم الشعرية ويجعلون تلك الأشياء التي لم تقع في الوجود كالأمثلة لما وقع فيه، ويبنون على ذلك قصصا مخترعا نحو ما تحدث به العجائز الصبيان في أسمارهم من الأمور التي يمتنع وقوع مثلها " [21]. كما أن الموضوعات التي تتناولها الملاحم والدراما لها طقوسها الدينية الخاصة بها، وهي بعيدة كل البعد عن الأجواء الإسلامية. وإلى هذا أشار محمد عبد الرحمان مرحبا بقوله: " فالموضوعات الرئيسية للدراما الإغريقية كانت ذات صفة دينية وأسطورية لا تروق للعرب ذوي المفاهيم الدينية المختلفة، ولا تثير حساسيتهم بسبب الشعور الإسلامي الغامر الذي استحوذ عليهم

وملك جوانب نفوسهم، فهم لم يطلبوا من اليونان إلا ما أحسوا بالحاجة إليه لاستكمال أوجه النقص في ثقافتهم العقلية... " [22]. بالإضافة إلى وثنية هذا الأدب، وما فيه من تعدد للآلهة رجالا ونساء، مما يتنافى مع عقيدة التوحيد عند المسلمين.

لهذه الأسباب المختلفة أحجم العرب عن نقل الشعر اليوناني إلى العربية، ولم يولوه نفس العناية التي أولوها لفنون العلم والفلسفة.

هوامش:

1 — تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، دار الهلال، مصر، [د.ت] ج2 ص 35.

2 — تاريخ الحكماء لجمال الدين القفطي، تحقيق جوليوس ليبرت، ليبرك، 1903، ص 174. عيون الأبناء لابن أبي أصيبعة، دار الفكر، بيروت 1377هـ / 1957م، ج 2 ص 140-1413 — اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري لمصطفى هدارة، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية، بيروت، 1408 هـ/ 1988م، ص103.

4 — كتاب أرسطو طاليس في الشعر نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السريالي إلى العربي، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية الدكتور شكري محمد عياد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1386هـ/1967م، ص174.

5 — تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري لنجيب محمد البهبيتي، الطبعة الرابعة، دار الفكر، 1970م، ص248.

6 — مختصر تاريخ الدول لابن العبري، تحقيق الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، بيروت 1890م، ص41. وثاوفيل هذا أو ثيوفيل بن توما الرهاوي كانت له منزلة كبيرة في العصر العباسي الأول، إذا كان يشغل منصب كبير منجمي الخليفة المهدي.

7 - La littérature syriaque de R. Duval, 2ème éd ., Paris, 1970, p:325.–

8 — كتاب أرسطو طاليس في الشعر لشكري عياد، ص 174.

9 — البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، دار الفكر، بيروت، [د.ت]، ج1 ص 384 — 385.

10 — كتاب الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، منشورات المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت 1388هـ/1969م، ج1 ص 74 — 75.

11 — مقدمة الملك أوديب لتوفيق الحكيم، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978م، ص25.

12 – الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت، [د.ت]، ج1 ص 20 – 21.

13 – المصدر نفسه ج1 ص 22.

14 – تاريخ الحكماء للقفطي ج1 ص 67 – 68.

15 – المصدر نفسه ج1 ص 70.

16 – يقصد الجاحظ بحكمة العرب: الشعر العربي.

17 – الحيوان للجاحظ ج1 ص 75.

18 – ضحى الإسلام لأحمد أمين، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربي، بيروت، [د.ت]، ج1 ص 280 – 281.

19 – التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية لمجموعة من المؤلفين، ترجمة عبد الرحمان بدوي، الطبعة الثانية، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1946م، ص 27.

20 – تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، ج2 ص 36.

21 – منهاج البلغاء لحازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 77–78.

22 – من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية لمحمد عبد الرحمان مرحبا، الطبعة الثانية، منشورات بحر المتوسط ومنشورات عويدات، بيروت – باريس، 1981م، ص312.

النظرة الاستشراقية لتاريخ المغرب العلمي والأدبي من خلال: ((مؤرخو الشرفاء)) للأستاذ ليفي بروفنسال.

ذ. علال معكول

كلية الآداب- مكناس.

ملخص المداخلة :

لا يخفى على أحد عطاء المدرسة الاستشراقية في الحوار العلمي والأدبي والحضاري بين الأمم والشعوب، ومدى مساهمتها في إثراء النقاش حول حضارات هذه الأمم وكتابة تاريخها، وإظهار بعض مما اختفى منه أو كان في حكم المفقود، من ذلك مثلا كتاب (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة (ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال) وغيره من مساهمات المستشرقين التي أغنت المكتبة عموما، والمكتبة العربية خصوصا، والمكتبة المغربية بصفة أخص بالمصادر النفيسة...

غير أن نظرة التغلب والسيطرة أحيانا تدفع إلى المجازفة والغلو في الأحكام عند بعضهم، مثل ما نجده عند ليفي بروفنسال، الذي استصعب إطلاق (المغربة) على ((قسم مهما كانت أهميته من الآداب العربية الإسلامية)) التي نشأت في أقطار العالم الإسلامي وتطورت فيه، وأين يبدأ حظ المغرب من هذا العطاء الأدبي الغزير؟ وكيف جاز لهذا المؤرخ أن يعلن أن تاريخ المغرب بمفهومه العام لم يبدأ إلا في القرن التاسع عشر الميلادي مع أحمد بن خالد الناصري في كتابه (الاستقصا)؟ وأن المؤلفين المغاربة لا يبدون آراءهم فيما يكتبون وينقلون، شأنهم شأن المؤرخين المشارقة الذين يكررون أعمال بعضهم ((إن هذه الطريقة ليست خاصة بالمؤرخين المغاربة ... فتاريخ ابن الأثير مثلا ليس إلا نسخة مشذبة من تاريخ الطبري الكبير...)) ص 61.

وهل تكفي جولة ساعة واحدة في أزقة فاس وأسواقها لمعرفة مجتمع جيل واحد - كما ادعى المؤلف- دون حاجة إلى قضاء يوم كامل في تصفح المراجع في مكتبة من

المكتبات!! وأن ذلك يرجع إلى كون ((المغرب بلد جد محافظ))؟! وأن العالم المغربي مازال يسير متأبطا لبدته في أزقة فاس ((لم تتغير ملامحه منذ أربعمائة سنة))! و ((أن الصورة التي رسمها ليون الإفريقي لا زالت صورتها شاخصة)) عن المغرب وعن حضارته!!

وكيف لا يكون المغرب كذلك في نظر المؤلف وأن النبهاء من أعلامه ((من يجهل أن ادريس الثاني هو باني مدينة فاس، أو أن مدينة مكناس بناها المولى اسماعيل، ويحسب أنهما متعاصران ...))؟!. وأن لقب (عالم) كان ((وراثيا))! وان مؤلفي الكتب التي ظهرت في المغرب ((على مدى قرنين أو ثلاثة ينتمون في غالب الأحيان إلى شجرة اسروية واحدة))؟! وأن مالكي المخطوطات من علماء الحواضر ((كانوا يبخلون أشد البخل بإعارتها وربما حتى بإظهارها لمن لا ينتمي إليهم بوشائج عائلية...) ويؤكد أنه لا يكاد يعرف ((في هذا الوطن من يشمل الكتب المستعارة بالحفظ والرعاية حتى يرجعها إلى أصحابها دون بتر ولا مسخ...))؟!

هل هذا هو المغرب ؟ وهل هذا هو تاريخه وماضيه الحضاري والعلمي؟ والإجابة عن هذا وغيره هو ما تتضمنه هذه الدراسة...

أوضاع المغرب السياسية من منظور استشراقي :

إن النظرة الاستشراقية لهذه الأوضاع ومن كتاب (مؤرخو الشرفاء) [1] بالذات، لليفي بروفانسال، تؤكد أن تاريخ المغرب بمفهومه العام لم يبدأ إلا في القرن التاسع عشر، مع كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) [2]، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصـــري (ت: 1315 هـــ / 1897 م) ، وأما قبل ذلك فليس للمغرب تاريخ ، وإن وجد ، فلا يعدم أن يكون (ضحلا) لا يفيد في شيء، وقد اعتمد (بروفانسال) في إصدار هذا الحكم على ما استنتجه (هنري دوكاستري) من الوثائق الخاصة بتاريخ المغرب المودعة في الخزانات الأوربية، وبالرغم من تأكيده على أن عمله سيظل ناقصا «ما لم تجمع تلك الوثائق وتغربل..»، فإنه خلص إلى تأكيد (ضحالتها) التي تبناها الأستاذ (ليفي بروفانسال) فقال : «كلنا مقتنعون بصواب حكم ناشر تلك المصادر الأوربية، والوارد في مقدمة السلسلة الأولى من مجموعتة [3]

حيث قال: (لا يوجد من حيث ضحالة الضبط من الأحداث والأحكام، تاريخ يشبه التاريخ المغربي)، وكلنا متيقنون ان تلك المصادر ستساعد على سد ذلك النقص، ولكن هل ستكفي لذلك؟ لا شك أنها لن تزودنا بمعلومات طريفة ، إلا فيما يخص جزءاً ضئيلاً –كذا– من ذلك الموضوع... وعليه فتاريخ المغرب الحديث المستقاة عناصره من تلك الوثائق لن يكون ذا شأن إلا إذا استغلت أيضا لبنائه جميع المصادر العربية، ولا شك في وجود تلك المصادر» [4].

وإذا كان يؤكد في نهاية هذا النص ضرورة استغلال «المصادر العربية» في توثيق الأحكام والأخبار ، فلماذا يقتنع «بصواب حكم ناشر المصادر الأوربية» في بدايته ، وقد أكد صاحبها أنه لا يوجد تاريخ «يشبه التاريخ المغربي» في «ضحالة الضبط والأحكام» بذلك الإطلاق و التعميم، من حيث المشبه والمشبه به بلغة البلاغيين !!

وحين يؤكد أهمية المصادر العربية – ويقصد المغربية – في الضبط والتوثيق كما أكدها (هوداس) حين قال في مستهل ترجمة الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون): «كيفما كان الأمر فإن المسلمين عندما يتكلمون عن وطنهم يكونون أقرب إلى الصدق من المؤلفين الأوربيين » [5]، فلماذا تم إهمال المصادرالقديمة لتاريخ المغرب، والنظر إليه من خلالها ، لمعرفة تطور الأحداث فيه مدا و جزرا عبر تقلبات الأوضاع والظروف والأحوال؟!

اين المغرب في وحدته مع الأندلس، من خلال (قلائد العقيان) للفتح بن خاقان (ت: 535 هـ / 1140 م) الذي ألفه لأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، ضمنه وزراء وكتاب مغاربة وأندلسيين؟ ومن خلال (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) [6] لابن عذاري المراكشي؟ و (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) [7] – من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين – لعبد الواحد المراكشي؟ و (الأنيس المطرب بروض القرطاس ، في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس) [8]، لعلي بن عبد الله (أو ابن محمد) بن أبي زرع الفاسي (ت : 741 هـ/1340م)، الذي ألفه لأبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني؟

وبهذا الكتاب الأخير يبدأ المؤرخون يكتبون عن المغرب في حدوده التي كان عليها في العهد المريني، بعد تفكك الأمبراطورية الموحدية إثر هزيمة العقاب في الأندلس

سنة (609 هـــ 1212 م) وانقسامها إلى أربع دويلات: المرينيون في المغرب ، وبنو عبد الواد في الجزائر، والحفصيون في تونس ، وبنو الأحمر فيما تبقى من الأندلس في إقليم غرناطة...

والمتصفح لكتاب (مؤرخو الشرفاء) لا يجد أية إشارة لهذه الوحدة السياسية بين المغرب والأندلس، التي ظل الدفاع عنها مستمرا منذ معركة الزلاقة (سنة 479 هـــ/ 1086 هـــ) بقيادة يوسف بن تاشفين ، مرورا بمعركة الأرك سنة (591 هـــ / 1194م) بزعامة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن ، الذي ظل يوطد الأمن في بلاد الأندلس مدة اربع سنوات بعد هذه المعركة، « وتوغل بلاد الروم ، ووصل الى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط، ورجع إلى مدينة إشبيلية، فأرسل الإدفنش إليه - لعنه الله - يسأله المهادنة، فهادنه إلى عشرسنين، فعبر البحر بعد أن اصلح الجزيرة ، ورتب فيها من يقوم بحمايتها، وقصد مدينة مراكش، وذلك في سنة (594 هـــ / 1197 م... [9]).

ولم يشر الأستاذ (ليفي بروفانسال) كذلك إلى الصدى الدولي للمغرب بعد انتصاره في معركة وادي المخازن (سنة 986 هـــ / 1578م) بقيادة أحمد المنصور الذهبي على أمبراطوريتين عظيمتين في التاريخ آنذاك [10]، وهما إسبانيا والبرتغال، وكيف حاولت بريطانيا استغلال هذا الانتصار، وكسب ود المغرب لضرب عدوتها إسبانيا، والمغرب نفسه كان بحاجة إلى مثل هذا التأييد الدولي لاسترداد الأندلس، فالعـــدو واحد والأهداف متعددة...!!

ومما يعكس الإشعاع الدولي لهذه المعركة الوفود التي أتت بتهنئة ملوك دولهم وهداياهم، بمن فيهم وفدا الإسبان والبرتغال سعيا منهما لافتكاك أسرى هذه الحرب، ومما جاء في وصف اليفرني لهذه الوفود قوله:

«... لما وقعت غزوة وادي المخازن ... وتمت له البيعة بفاس، كتب المنصور لصاحب القسطنطينية العظمى [11]، ولسائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب، يعرفهم بما أنعم الله به عليه من إظهار الدين ، وإهلاك عبدة الصليب، واستئصال شوكة الروم، ورد كيدهم في نحورهم ، فوفدت عليه الأرسال من سائر الأقطار مهنئين له على ما فتح الله له وعلى يديه، وكان أول من وفد عليـــه رسول صاحـــب الجزائر، ثم تلته ارسال طاغية برتقال إريك [12] ، القائم بأمر الروم ، بعد هلاك ولد أخيه بستيان -كذا - بوادي المخازن ، فجاءوا

بهدية عظيمة... فعجب الناس منها عجبا بليغا، وكان مما فيها ثلاثمائة ألف دقات من ريال الفضة ، و أما الطرف والحوائج النفيسة فأمر لا يحصى، ثم ورد أرسال صاحب قشتالة [13] بهدية عظيمة... ثم قدمت أرسال طاغية الفرنجة [14]، ويقال لهم اليوم افرنصة... ولم تزل الوفود مترادفة ببابه، والأرسال تصبح وتمسي على أعتابه، إلى أن لم يبق أحد ممن تتشوف النفوس لمبعثه...) [15]..!!

ولماذا لم يذكر (بروفانسال) أجناس الجيوش الأوربية التي قدمت الى حرب المغرب في عقر داره بعدتها وعتادها؟ وقد قدرت بعشرين (20.000) ألفا من عسكر الإسبان ، وإثني عشر (12.000) الفا من البرتغال، وثلاثة آلاف من الطليان، ومثلها من الألمان، ومن المتطوعة الإسبان وغيرهم عدد كثير، وأرسل البابا أربعة آلاف وخمسمائة من الخيل وإثني عشر مدفعا، حملت كلها في نحو الف مركب...!! [16]

وبعد الفتن التي شهدها المغرب بعد موت أحمد المنصور الذهبي الذي عرفت البلاد في عهده أعظم نهضة حضارية وعمرانية واقتصادية.. استعاد المغرب عافيته بعد تطاحن مرير على السلطة بين الأمراء السعديين فيما بينهم، وبين الدلائيين والسملاليين بإيلغ وشرفاء سجلماسة، الذين استتب لهم الأمر فيما بعد، واسترجع المغرب شواطئه من يد الإسبان والبرتغال الذين استغلوا فرصة تمزق وحدته، ولم يبق منها إلا سبته ومليلية، وذلك في عهد السلطان المولى إسماعيل، الذي أصبح المغرب في عهده يفرض توجهاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الدول الأجنبية ، التي رغبت في التعامل معه، وذلك بخطاب سياسي متميز، يفرض ما يعزز به سيادته واستقلاله في القرار، ويرفض كل ما يهينه ويضعف شخصيته الداخلية والخارجية ... مما جعل قاعدة الدولة الجديدة مكناسة محط رحال السفراء الأجانب لفك أسراهم، أو لربط صلات الأمن والسلام بين دولهم وبين المغرب الذي كان فيه ما يزيد على مائة ألف أسير[17]!!!

اتهام المؤرخين بالتزلف لذوي السلطان :

وقبل بسط هذا التحامل على مؤرخي المغرب، واتهامهم بالقصور والاسترزاق، أذكر بالقولة المشهورة للإمام الحافظ عبد الله بن المبارك[18] : «لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» [19].

وهاهو مؤلف (مؤرخو الشرفاء) يقول ماشاء بعيدا عن السياق التاريخي، وعن النصوص المواكبة للأحداث، ويستعمل كل صيغ القطع والجزم فيما هو زعم وظن فيقول: «إن من الحقوق التي كان يخولها الملوك المسلمون لأنفسهم هوان تدون أعمالهم ومآثرهم في التواريخ الرسمية ... وكان من الطبيعي أن يتزاحم الكتاب على أبواب قصور الحكام ليقدموا لهم نتائج قرائحهم رغبة في الحصول على الصلات أو الوظائف المخزنية... ليس لدينا معلومات تثبت أنه كان بالبلاطات المغربية مؤرخون رسميون اختيروا لكفاءتهم ومزاياهم الفكرية، إن الملك السعدي أحمد المنصور الذهبي هو الوحيد، حسب ما نعرف الذي حرص على ان يكون من بين موظفي دواوينه مؤرخ رسمي ...» [20].

وبناء على هذا الرأي هل يعتبر عبد الواحد المراكشي مؤرخ الدولة الموحدية والنازح عن المغرب في بلاد المشرق حين الف كتابه (المعجب) مسترزقا وراغبا في عطاء (المرابطين) ونوالهم حين يقول عن يوسف بن تاشفين: «... واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب، وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ...» [21] ؟ وهل يدخل ابو الحسن على بن أبي زرع مؤرخ الدولة المرينية في هذا الاعتبار؟ حين تحدث عن المرابطين كذلك ووصف الحياة العامة في عهدهم على طول حدود امبراطوريتهم شرقا وغربا حيث قال :

«... ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلي البحر الغربي في المحيط، و من مدينة بجاية من بلاد العدوة إلي جبل الذهب من بلاد السودان، لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج، في بادية ولا في حاضرة، وخطب لهم على أزيد من الفي منبر... وكثرت الخيرات في دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة، و لم يكن في أيامهم نفاق ولاقطاع، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم مهدي الموحدين في سنة خمس عشرة وخمسمائة (515 هـ / 1121 م) ...» [22] هل يعتبر هذا وغيره من باب

التزلف والاسترزاق والكلام في زمان على زمان آخر بعيد عن هذا المؤلف أو ذاك؟ إنها شهادة على مجريات الأمور كما وقعت، وشهادة في الآن نفسه على : إبطال الزعم والادعاء!!.

وهل هذه الكتب ومثيلاتها من الكتب التي «لا تحظى إذن في كلا الحالين : لا برضى البلاط، ولا برضى أهل العلم ...»، ومن ثم فضياعها لايستوجب «التأسف والتحسر» [23]؟! وكيف تصدر مثل هذه الأحكام وقد اعتمد صاحبها على (الافتراض) و(الظن) وهو يتحدث عن كتب قد تكون وقد لا تكون كما جاء في قوله: «وهنا يجدر بنا أن ننبه إلى أن الكثير مما قلناه في شأن هذا النوع من التواريخ، لا يخرج عن نطاق الافتراضات لأنها مفقودة، ولأن الكتاب الذي سجلوا الأخطاء والعيوب والنقائص المنسوبة لأهل الحل والعقد قليلون جدا...» [24]؟!

عدم اكتراث المؤرخين المغاربة بالعلاقة الخارجية للمغرب مع الدول الأوربية :

وتعميم الأحكام على ما يمكن أن يكون مفقودا ينسحب كذلك على ما هو موجود، ويشمل كل مؤرخي المغرب ، بوصفهم بالتملق والرياء لأصحاب الجاه والسلطان، وبإعراضهم جميعا عن تسجيل ما قد يقع بين بلدهم وبين غيرهم من دول أوربا من علاقات سياسية ومن تبادل تجاري واقتصادي، وعقد اتفاقيات تلزم الأطراف المعنية ...

وقد حاول المؤلف إيجاد شيء من هذا فلم يعثر على ما يقنعه بذلك ، فخلص إلى هذا الحكم الذي يقول فيه : « المؤرخون المغاربة لا يكترثون عادة بما ليس له صلة بتاريخ بلادهم الداخلي: فإننا لا نكاد نجد في كتبهم شيئا عن علاقات المغرب السياسية بأوربا، وحتى بباقي البلاد الإسلامية ، اللهم إلا إن استثنينا ما ورد في بعضها من إشارات طفيفة تمت بين المغرب والبلاد الشرقية المجاورة له » [25] ، وضرب لهذه الإشارات الطفيفة مثلا في هامش سياقها بما يوجد منها في «مصنفات اليفرني والزياني » .. أما قبل ذلك فلا وجود لمثل هذه العلاقات !

وها هو المنفي ينطق بنفسه شاهدا على وجودها في كتب المؤرخين وفي المعاهدات الدولية التي عقدها المغرب مع غيره من البلدان ، ومن ذلك بعثات أحمد المنصور[26] الذهبي إلى حكام الشرق والغرب، وإلى حكام القسطنطينية بالذات، لإطلاعهم على ما حققه المغرب من انتصارات في وادي المخازن كما تقدم ، وكان أبو العباس أحمد بن محمد الشهير بابن القاضي من المبعوثين لهذه الديار ، وفي هذا السياق بالذات ، غير ان (ليفي بروفانسال) يأبى إلا ان يجعلها «لطلب العلم الشريف»[27] وأنها كانت (سنة 994هـ/1585 م) بعد رحلته الأولى ...

ومن الوثائق التي تؤكد هذه العلاقات الخارجية، رسالة زيدان بن احمد المنصور الذهبي (ت : 1037 هـ/1627م) إلى ملك إسبانيا (فيلب الثاني)، يطلب منه فيها ان يضع الأموال التي خلفها أخوه محمد الشيخ في طنجة تحت الحجز بعد ان قتل[28] في جهة نفوذه بالفحص، لتوزع بين أبنائه ونسائه ، دون ان يتسلط عليها واحد منهم، وهو عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وذكره في هذه الرسالة كذلك بالعلاقة المحترمة التي كانت بين المغرب وإسبانيا في عهد والده احمد المنصور، ومما جاء فيها قوله بعد التقديم :

« ...ثم مما نقرره لديكم، ونقدم به التعريف إليكم، إعلامكم بحقيقة ما كانت عليه أحوال المقتول مع ولده الذي هو الآن بجهة القصر، وهو أن أخانا المذكور لما كتب الله عليه ما كتب من بعض العقوق ، الذي كان عليه لوالدنا المرحوم ، ابتلاه الله هو عقوبة على ذلك، بعقوق ولده له، فعظم بسبب ذلك الجفاء التام بينهما... وقد ترك أولادا آخرين غير هذا المذكور، صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا ونساء أزواجا له... ولا يحل في شريعتنا لأحد من الورثة أن يأخذ إلا حقه الخاص به من بين الورثة لا غير ...»[29] .

وتعبر رسالة زيدانية أخرى إلى ملك أنجلترا عما كان يساور هذا الأخير من شكوك في علاقات بلده بالمغرب ، بعد تزايد نفوذه الإسبان في المنطقة ، واحتلالهم لكثير من مدنه الشاطئية، خصوصا في الشمال، وتخوف الأنجليز من ضياع مصالحهم وتهديدها، فطمأنه على ذلك ، وقد حمل هذه الرسالة والجواب معا السفير الأنجليزي (جوان هرشون)، الذي كلفه بالإضافة إلى ذلك بتبليغ خطاب شفهي لسلطانه تجنب تدوينه حفاظا على السرية،

وخوفا من المحذور بسبب القرصنة، فطلب منه إفساح المجال إليه للحديث عن ذلك فقال: «وقد ألقينا إليه ما يبثه من الكلام إليكم، وينهيه مشافهة إليكم ، والمراد ان تعطوا له منكم مجلسا وفسحة حتى يقرر عليكم ذلك مستوفى، ويبثه عندكم مستقصى...» [30].

وتمضي في هذا السياق عدة رسائل تؤكد كلها اعتماد الأمراء السعديين على بعض الأجانب في تنظيم العلاقات بين المغرب وبين بلدانهم ، وتبادل الأسرى والمنافع التجارية، وما إليها من المصالح التي لا يستغني عنها كل جانب، ثلاث رسائل [31] للوليد بن زيدان (ت: 1045 هـ / 1635م)، وخمس [32] لأخيه محمد الشيخ بن زيدان (ت: 1064هـ/1653م)، وهي موجهة كلها إلى ملوك إسبانيا وفرنسا وأنجلترا ، تخبرهم بالاستجابة لمطالبهم تارة، وتؤكد لمن يعنيه الأمر تارة أخرى، بأن معاهدات الصلح المبرمة معه لم تتأثر بالتغييرات السياسية التي تعرفها البلاد بين حين وآخر ، ومن هذه العهود التي وقعها الوليد بن زيدان :

1 — ان من يفسد العلاقة بين المغرب وفرنسا من « خدام الجانبين» يعاقب معاقبة شديدة «يشيع في أقطار الأرض خبرها».

2 — أن يحرر خدام سلطان المغرب (الوليد بن زيدان) ووكلاؤه بسواحل البحر ما بأيديهم من أسرى الفرنسيين، ويرسلوهم إلى أهلهم وذويهم، اقتداء به في هذا الموضوع.

3 — أن يتسظهر (قبطانات) الجانبين ما بأيديهم من الكتب السلطانية، او من ينوب عنهم من الوزراء والوكلاء في الأمور التجارية عند اللقاء «لكي يرتفع اللبس بينهم».

4 — وأن القنصل الفرنسي المقيم بحمراء مراكش لا يوذى في نفسه ، وفي ماله وفي خدامه...

وإذا كنا قد استخلصنا من تلك المكاتبات واقع المغرب الممزق سياسيا واجتماعيا، بالإضافة إلى تلاعب الدول الأجنبية بمصالحه، والتحكم في شواطئه وبعض مدنه !!. فإن رسائل أخرى تبرز عكس هذا الوضع، بعد نشأة الدولة العلوية، وتغلب أبنائها على خصومهم السياسيين، وعلى أعداء المغرب الخارجيين كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكما هو واضح في مكاتبات السلطان المولى إسماعيل إلى ملك فرنسا (لويس الرابع عشر) في موضوع تبادل أسرى الفرنسيين ، بعد أن اشترط عليه أن يكون التبادل أسيرا بمثله، ممن لم

يتجاوز مدة أسره عشر سنوات ، وألا مدخل للحديث في غيرهم ، ممن مضى على أسرهم أكثر من الزمن المشار إليه ، وذلك تلبية لرغبة أهلهم وذويهم، الذين عبروا عن انزعاجهم عنهم للتجار الوافدين على المغرب، طالبين منهم إبلاغ تلك المشاعر إلى سلطان هذا البلد...

ومما جاء في رسالة السلطان المولى إسماعيل إلى (لويس الرابع عشر)، التي برر فيها رفضه لاستقبال تاجر فرنسي أتى ليتفاوض مع المغرب في شأن الأسرى الفرنسيين:«بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إلى عظيم الفرنج ، وكبير المملكة الفرنسية ... المعظم في قومه ، الملك لويس الرابع عشر، السلام على من اتبع الهدي.

أما بعد، فاعلم أنه ورد على مقامنا العلي بالله, النصراني التاجر ولد أصطيل القونصو، وزعم أن بيده من عندكم تفويضا... غير أنا لم نعتمد على قوله، و لم نر الكلام معه في شيء من ذلك لكونه تاجرا، وليس هو من خواص أصحابكم، ولا من كبار خدامكم، وأعوانهم لديكم، إذ ليس من شأن التجار الدخول في الكلام مع الملوك، وأن يكونوا وسائط فيما يعرض بينهم" [33].

كما أرسل ملك بريطانيا (جورج الأول شارل ستيورت) سفيرا له إلى المغرب (سنة 1133 هـ / 1720م) لإنقاذ أسرى الأنجليز[34]، وعقد اتفاقيات السلم والصداقة بين الدولتين، نظرا لما أصبح يتمتع به المغرب من نفوذ على المستوى الدولي..

هذا المستوى من العلاقات الدولية للمغرب، والأوضاع الداخلية له لا يعكسها لنا كتاب (مؤرخو الشرفاء)، ومن يقرأه دون غيره يأخذ صورة سيئة عن المغرب، خصوصا وأنه حكم على تاريخ المغرب كله ب(الضحالة) كما تقدم في بداية العرض، وإذا كان تاريخ المغرب كذلك، ومؤرخوه خدام أعتاب وتجار أقلام، فكيف هي حالة المغاربة ومستواهم العلمي والثقافي والحضاري بوجه عام؟

الحركة العلمية بالمغرب :

وللإجابة عن الأسئلة المطروحة حول هذه القضايا، نستمع أولا إلى ما يقرره الأستاذ (ليفي بروفانسال) عنها، حيث يقول عن الوضع الثقافي والمثقفين في المغرب في (الفصل الأول) الذي يحمل العنوان الآتي: (**المغاربة والتاريخ**): «والحقيقة أنه يكفينا أن نسأل جماعة من رجال الفكر المشهورين بالإطلاع في العلم والمعرفة، لنقف على جهلهم المطبق للكثير من أحوال أسلافهم ...فلا تلبث ان تدرك أنه لا يعرف من تاريخ بلاده إلا ان (العلويين خلفوا السعديين) ؛ لأن ذاكرته التي تركزت فيها معلومات جمة، لا تساعده على ضبط الترتيب الزمني للدول التي توالت على المغرب».

«فإنه قد لا يكون يجهل أن ادريس الثاني هو الذي بنى مدينة فاس، وأن المولى إسماعيل هو الذي شيد قصور مدينة مكناس ، إلا انه قد يكون من باب الإعجاز ألا يعتبر ذينيك الأميرين متعاصرين!!».

«العالم المغربي ... يعتبر التاريخ من المسائل الدنيوية، وأن الاشتغال به من باب اللهو والعبث ...» [35].

ولمعرفة جيل في اوربا لابد للدارس «أن يستقرئ ويحلل جميع الوثائق والآثار والظروف المتعلقة بذلك الجيل، وأما في المغرب فإن المستطلع لا يلبث ان يتأكد... أن جولة ساعة في أزقة فاس وأسواقها، كثيرا ما تكون أوفر فائدة مما قد يكتسبه من معلومات في هذا الصدد»!!

«إن الصورة التي رسمها ليون الإفريقي (الوزان الفاسي) [36]، في كتابه (وصف افريقيا)، لا زالت أصولها شاخصة إلى الآن لم يغير الدهر منها شيئا كثيرا ...» ! ! [37] والعالم المغربي «لم تتغير ملامحه العامة منذ أربعمائة سنة...»![38] وعلماء الحواضر المغربية من مالكي المخطوطات كانوا «يبخلون اشد البخل بإعادتها، وربما حتى بإظهارها لمن لا ينتمي إليهم بوشائج عائلية... لأننا لا نكاد نعرف في هذا الوطن من يشمل الكتب المستعارة بالحفظ والرعاية ، حتى يرجعها الى أصحابها بدون بتر ولا مسخ...» [39]!!.

فهذه الأحكام وغيرها تظهر المغرب غارقا في ظلام الجهل والتخلف والغباء !! والغريب في ذلك أن هذه صفات العلماء النابهين و «رجال الفكر المشهورين بالاطلاع» ، فكيف يكون حال بقية الناس في هذا البلد؟! لا شك انهم سيكونون -إذا كان الأمر كذلك -ممن لا يميزون يمينهم من شمالهم، والخيط الأبيض من الخيط الأسود!!

والأغرب من هذا أن أحكام المؤلف على أوضاع المغرب عموما، وعلى الحركة العلمية والثقافية خصوصا لا ترتكز على سند علمي!! اذ لو كان مراده الحقيقة العلمية لأدرك ان المراكز العلمية في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني[40] اللذين يغطيهما (مؤرخو الشرفاء) لم تعد محصورة في الحواضر الكبرى مثل فاس ومراكش ومكناسة وسلا وتطوان ... بل انتشرت في البوادي كذلك ، وقصد زواياها شيوخ العلم وطلبته، كما تدل على ذلك (فهارس) العلماء و (إجازاتهم) التي تؤكد مبلغهم من العلم، ومستواهم في حركة التأليف والتدوين... فهل تم الرجوع الى (القليل) من هذه الفهارس لمعرفة (الكثير) مما أعطته (الزاوية الناصرية) بتمكروت بالجنوب المغربي؟ و (الزاوية العياشية) بالأطلس الكبير؟ و(الزاوية الدلائية) على ضفاف نهر أم الربيع؟ (والزاوية الشرقاوية) بأبي الجعد؟

وهذه بعض المصادر والمراجع التي تتحدث عن النشاط العلمي لهذه الزوايا فضلا عن غيرها من المراكز العلمية بالمغرب :

- فتح الملك الناصر في إجازات مرويات بني ناصر[41]، لمحمد المكي بن موسى الناصري (ت:بعد 1180 هـ / بعد 1766 م).
- الدرر المرصعة بأخبار صلحاء درعة ، له كذلك(مخط.خ.ع،رقم 2637 د).
- الروض الزاهر في التعريف بالشيخ ابن حسين[42] وأتباعه السادات الأكابر، له كذلك ، (مخط . خ.ع بالرباط رقم 2261 ك.
- اقتفاء الأثر بعد ذهاب آهل الأثر ، لأبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بأبي سالم العياشي (ت: 1090هـ / 1679م) ، (مخط.خ.ع. بالرباط رقم 70ج ضمن مجموع.

- إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، له كذلك (مخط .خ.ح. رقم 173 ضمن مجموع.
- طبقات علماء سوس : المعروفة بطبقات الحضيكي[43]، للشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله السوسي الجزولي (ت: 1189 هـ / 1775 م).
- يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ ابي عبد الله محمد المعطي لمحمد ابن عبد الكريم العبدوني (ت:1189هـ / 1775م). (مخط.خ.ع بالراط رقم 2306 ك). .
- نشر ازاهر البستان فيمن اجازني بالجزائر وتطوان ،[44] لمحمد بن قاسم بن زاكور (ت: 1120 هـ/1708م) ... الخ.

ولما كان المقام لا يقتضي التوسع في هذا المجال ، فإن ما ذكر من هذه الأعمال، يؤكد بما لا مجال للشك فيه ان ما ادعاه مؤلف (مؤرخو الشرفاء) في أن «لقب العالم كان وراثيا... وان مؤلفي الكتب التي ظهرت بالمغرب على مدى قرنين أو ثلاثة ينتمون في غالب الأحيان إلى شجرة أسروية واحدة ... وان بيوتات احتكرت العلم فتوارثه أفرادها خلفا عن سلف على مر عصور وأجيال...»[45]!!

أما «احتكار» العلم في «بيوتات» خاصة فلا ورب الناس! وأما وراثة العلم عن اجداد «شجرة أسروية واحدة» فهذا فخر وعز وزهو ، كون الأسرة تورث أبناءها العلم لا المال، لأنه إرث يبقى، في الوقت الذي ينتهي فيه إرث المال، فشتان بين الإرثين والزادين!! أيهما يفضي الى رضا الله والناس إرث العلم أم إرث الدنيا؟! وكم ملك المالكون من إرث الدنيا، فاين هم وأين ماورثوه منها؟!

وهل المكتبات المغربية العامة والخاصة التي تجاوزت المائة والثمانية والعشرين (128)، في دراسة العلامة المغربي الفقيه محمد المنوني رحمه الله عنها تحت عنوان (دورالكتب في ماضي المغرب)[46]، أنشأتها (أسر) بعينها ورثت العلم عن (أسلافها) أم هي مجهود علماء هذه الأمة، على اختلاف الأزمنة والعصور؟!.

وهل أدرك الأستاذ (ليفي بروفانسال) «أن بعض المكاتب المغربية[47] كانت قريبة (في ضخامتها) من مكتبة الحكم الأموي بالأندلس ، تلك المكتبة العظيمة الشأن التي كانت

تشمل نحو 400.000 مجلد ... وأن منها ما كانت تشتمل على خمسين ألف (50.000) مجلد[48]، ومنها ماكانت قليلة النظير في العالم الإسلامي كله...»[49]، ويقصد بهذه الأخيرة التي «قل نظيرها» مكتبة القرويين والأندلس بفاس في العهد الوطاسي[50]، الذي حكم عليه صاحب (مؤرخو الشرفاء) بالعقم والتأخر، وأن المغرب كله لم تتغير ملامحه عن الصورة التي رسمها له ابن الوزان في هذا العهد!!

ومن المكتبات الخاصة على سبيل المثال لا الحصر :

مكتبة ابن عبد الجبار بفكيك :

- وقد أسسها عالم المغرب في زمانه الإمام الفقيه المحدث الشيخ بلقاسم[51] بن محمد ابن عبد الجبار الفكيكي (ت : 1021 هـ / 1612م)، «... وكانت من أعظم المكاتب المغربية في وقتها...»[52] ويحكى ان الشيخ الأديب العالم أبا العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي (ت: 1175هـ / 1761م) زارها، وأقام بها يومين لم يستطع ان يتصفح «أوائل نصف كتبها... وكان مصيرها أنها في أواخر القرن الثاني عشر تلاعبت بها أيدي الحدثان[53]...» !!

- مكتبة الصومعي بتادلا :

أسسها الشيخ الصوفي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي الزمراني المعروف بالصومعي (ت: 1013هـ/1604م). وقد ذكر المؤرخون أنها وصلت الى الف وثمانين (1080) مجلدا [54].

- مكتبة التمكرتي بدرعة (دور الكتب في ماضي المغرب ورقة 91).
- مكتبة العشاب بدرعة (دور الكتب في ماضي المغرب ورقة 90).
- مكتبة سدي يوسف بسجلماسة (دور الكتب في ماضي المغرب ورقة 89).
- مكتبة ابن الغرديس الصغير بفاس (دور الكتب في ماضي المغرب ورقة 93).
- مكتبة العبدري بمراكش (دور الكتب في ماضي المغرب ورقة 87) ... الخ

ومما ساعد على رواج الحركة العلمية وازدهار المكتبات بالمغرب بالإضافة الى ماذكر، انتشار دكاكين الكتبيين والوراقين في المراكز العلمية التي تستقطب الاهتمام لكثرة أحباسها وأوقافها وشيوخ العلم بها ، وما إلى ذلك من وسائل المعرفة المختلفة ...

وشاءت الصدف أن تدل بناية شامخة على هذا الازدهار المعرفي ، إنها منارة الكتبيين بأعظم مسجد في مراكش، فلماذا هذه الإضافة؟ وما علاقتها بالكتب والكتبيين لتشتهر بها ليس في المغرب فحسب ، بل في العالم كله، كما دلت مراكش على هذا البلد بكامله في حقبة من التاريخ؟ وإذا كان شموخها في عنان السماء واضحا من طريقة بنائها، فماذا عن شموخها المعنوي الذي تنوسي مع الأيام ، حتى أصبحت كلمة (الكتبية) لاتدل إلا على منارة بالذات في مدينة مراكش؟!

نترك الإجابة عن هذه الأسئلة ، وعن النشاط العلمي المرتبط بها للمرحوم الفقيه محمد المنوني، الذي استنطق بدوره كتب المؤرخين ، فأفادته بما تحدث عنه قائلا : «إن نهضة الكتب والمكاتب بالمغرب في القرون الوسطى بلغت إلى حد أن كان بمراكش من دكاكين الكتبيين في غابر الأزمان مائتا (200) دكان لبائعي الكتب المخطوطة، كانت بجوار جامع الكتبيين ، متصلة بأسفل منارته العالية...»[55].

وعن اغتناء مكتبات أوربا بذخائر المسلمين عموما، وذخائر المغرب خصوصا أثناء هيمنة الاستعمار الغربي الحديث على البلدان الإسلامية والعربية يقول: «... شنت المكتبة الغربية على المكتبة المغربية حمله شعواء، كان من نتائجها ان امتلأت الأولى بالشيء العظيم من نفيس الدفاتر المغربية ... ومن الدليل على هذا ما جاء في تاريخ (الوافي في المسألة الشرقية): ان من مكتبة فاس والعراق اغتنت مكاتب أوربا ...»[56].

ويؤكد الفقيه المنوني: على أهمية هذا العطاء العلمي الغزير في كتاب آخر له مطبوع تحت عنوان: (المصادر العربية لتاريخ المغرب)[57]، تناول فيه ما يزيد على ألف وخمسمائة وأربعة وستين (1564) مصدرا ومرجعا، أشار فيه إلى كونه مخطوطا أو مطبوعا، واسم الناسخ أو الطابع ، وتاريخ النسخ ومكان وجوده وما إلى ذلك من المعلومات الضرورية عن الكتاب، وذيله بملاحق مختلفة تناول فيها :

- خزائن المغرب في وضعها الحالي بما تشتمل عليه من مخطوط ومطبوع.
- فهارس المكتبات العلمية بالجزائر وتونس وليبيا ومصر والسعودية و اليمن والعراق وسوريا، وكل ما تشتمل عليه هذه الأقطار وغيرها من مؤسسات دينية وعلمية قديمها وحديثها.

- وبواسطة الكتاب تم الاطلاع على حركات المد والجزر في الثقافة المغربية، كما هو وارد في دراسة الفقيه محمد المنوني رحمه الله، الذي كان هو نفسه خزانة بشرية متنقلة يخفيها (طربوشه) الذي طلب منه أن يترعه في بعض المطارات الإسلامية خوفا مما يوجد تحته[58] !! وماذا يوجد تحت هذا (الطربوش) غير رأس استقر فيه تاريخ المغرب والأندلس ، يتنقل معه أنى حل وارتحل!!

فلماذا يقدم لنا الأستاذ (ليفي بروفانسال) بواسطة الكتاب أيضا صورة مغايرة لهذا الوضع ، مؤكدا ان العالم المغربي «لم تتغير ملامحه العامة منذ أربعمائة سنة» !! وأنه يرى «اليوم متأبطا لبدته يسير سيرا وئيدا في الأزقة الضيقة القريبة من جامع القرويين ، على نفس السمت الذي كان عليه نظراؤه في القديم ، فإنه لم يتعلم، ولانراه يعلم غيرما كان يتعلم ويعلم أسلافه...»[59] ؟! والفقيه المنوني رحمه الله ظل بهذا السمت المغربي ب(جلابيبه وطربوشه) الى ان عوضت له بآخر ما يلبسه الإنسان في هذه الدنيا وهو (الكفن) ، أكان لا يعلم غير ما يعلمه أسلافه منذ أربعمائة سنة؟!

وهل مثل هذا الكلام يقال في البحث العلمي التريه؟! وهل الادعاء بأن «علماء الحواضر المغربية الذين تملكوا مخطوطات أدبية فقهية أو تاريخية ... يبخلون أشد البخل بإعادتها...»؟! وهل من البحث العلمي في شيء التأكيد على انه «لا يكاد يعرف في هذا الوطن من يشمل الكتب المستعارة بالحفظ والرعاية حتى يرجعها إلى أصحابها بدون بتر ولا مسخ»[60]!! وهل بلغ الجهل بالمغاربة إلى الدرجة التي يعجز علماؤهم ورجال الفكر فيهم عن رسم خريطة وردت في النسخة الأصلية من كتاب (الترجمانة) لأبي القاسم الزياني؟! وهل صحيح «أنهم لم يألفوا رؤية أمثال تلك الرسوم المنظم تخطيطها» ؟! و«أن علم الخرائط الذي اضطلع بوضعه الرحالة المسلمون الأقدمون ... كان في عهد الزياني علما مهجورا، بل مدفونا في ثنايا الإهمال ...»[61]؟!

وكيف عجز علماء المغرب عن «رسم خريطة» ، وتفننوا في رسم (الأزياج)[62] و(الاسطرلاب) لقياس الكواكب والنجوم والجهات وتحديد مواقعها، ودرجة الارتفاع والاعتدال في المناخ...؟!

ولندع المصادر تتحدث عن هذا العطاء العلمي الغزير [63] ، وفي عهد الزياني بالذات حيث حكم على رجاله بجهل «رسم الخرائط وتخطيطها» وانهم «لم يألفوا رؤيتها» بالمرة!! ومن هذه الأعمال على سبيل الإجمال لا الحصر :

- تحفة الطلاب في كشف ما خفي من الاسطرلاب :
- أرجوزة من نظم صالح بن محمد المعطي الشرقي (ت : 1139 هـ / 1726م) مخط.خ.ح رقم 1433 ضمن مجموع (فهرس خ.ح. المجلد 3 ص 152).
- التحف المستظرفة في تخطيط فضل الدائر بطريق الهندسة ، تأليف احمد بن العربي الرشي الأندلسي، شهر بعاشور الرباطي من رجال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، ضمن مجموع رقم 11023 (الفهرس السابق 3/154 – 155).
- رسالة في العمل بالاسطرلاب، لمحمد العربي بن عبد الرحمن مفرج الشفشاوني، كان حيا عام 1143هـ/1730م. ضمن مجموع (رقم 1818 (نفسه ص 236).
- رياض الأزهار في معرفة أوقات الليل والنهار، للطيب بن عبد الله بن عبد السلام ابن ساسي السملالي ، الذي كان حيا عام (1175هـ /1761)، ضمن مجموع رقم 2359.

والكتاب المشار إليه ألف برغبة من السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان ابن ساسي موقتا لديه، (فهرس الخزانة الحسنية، المجلد الثالث ص 279–283) : وبناء على الرغبة ذاتها وضع كتاب آخر سماه :

- مختصر في علم التوقيت وجداول حصص أوقات الصلاة . (ضمن مجموع رقم 6441) سطرفية المؤلف اثنين وسبعين جدولا ، رتبها على الشكل الآتي :
- 24 جدولا لعرض مكناسة الزيتون وما قرب منها مثل زرهون وفاس وسلا.
- 14 جدولا لعرض مراكش والقيروان والإسكندرية ، وما قرب منها كالصويرة وبيت المقدس ووهران.
- 30 جدولا لعرض سجلماسة ومصر وتارودانت (بزيادة 14 دقيقة) وما قرب منها ...الخ. (م. الثالث 340– 341).

ومن هذه المؤلفات كذلك :

منحة الوهاب في رسم مايدعى بالاسطرلاب : أرجوزة في كيفية تخطيط رسوم الاسطرلاب ورموزه، لمحمد ابن محمد بن إبراهيم العلمي (ت: 1373 هـ / 1953 م)، (المجلد الثالث ص 197 ، 353).

- نزهة الزمان وهَدِيَّةٌ لمولانا الخليفة سيدي الحسن، تأليف عبد السلام بن إدريس بن احمد الأوديي السبيطي ، كان بقيد الحياة عام (1288 هـ / 1871م)، وهي رسالة في العمل بالاسطرلاب، اهداها مؤلفها للسلطان مولاي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن (ت : 1290 هـ/1873م). وهي تتكون من مقدمة وعشرة أبواب :
- المقدمة : في ذكر أجزاء الاسطرلاب .
- الباب الأول : في معرفة أخذ ارتفاع الشمس والكواكب.
- الباب الثاني : في معرفة درجة الشمس والغاية والميل وعرض البلد ...الخ . (المجلد الثالث ص 384 — 385).

ويظهر من هذه المؤلفات أن العمل بالاسطرلاب والأزياج ظل مفهوما ومعمولا به عند أهله إلى ما بعد زمان أبي القاسم بن أحمد الزياني (ت : 1249 هـ / 1833م) عكس ما أشار إليه الأستاذ (ليفي بروفانسال) !!

ريب وشك في الأخبار واضطراب في تراجم بعض الأعلام :

والمتتبع لأبواب (مؤرخو الشرفاء) وفصوله ، يلاحظ أن المؤلف يعتمد على مصادر مغربية ولكن يقرأها بطريقته الخاصة، ولا يكاد ينهي الحديث عنها إلا بالشك في نوايا أصحابها، وينفي عنهم صحة الاطلاع على مصادرهم أحيانا، ويصدر أحيانا أخرى أحكاما على كتاب لم يطلع عليه هو نفسه!!

وإذا كان المؤلف قد شك في كلام اليفرني الذي أكد فيه أن (نزهة الحادي) ذيل به (الأنيس المطرب بروض القرطاس) لابن ابي زرع، و (روضة النسرين في دولة بني مرين) ، واعتبر أن «الحافز الحقيقي له على تدوين تاريخ الدولة السعدية، هو ميله العاطفي إلى أولئك

الأشراف الذين كانوا بسوس موطنه، وتربعوا على العرش بمسقط رأسه مراكش..»[64]، فانه اعترف في نهاية الحديث عنه قائلا بأن «كتاب النزهة يتسم بالجدية ، وجدير بأن يعتبر وصلا لروض القرطاس ولكتاب العبر» [65].

والمؤرخ اكنسوس صاحب (الجيش العرمرم) «ذكر من تلقاء نفسه مجموعة من المصنفات التاريخية اعتبرها جديرة بالتقدير[66] ، وإن كان حسب ما نرجح لم يطالعهـــا كلها ...» [67]!!

أما (تاريخ الدولة العلوية إلى عهد المولى سليمان)، لمحمد بن عبد السلام المعروف بالضعيف (بالتصغير) الرباطي (ت : 1240 هـــ/1824م)، فقد تحدث عنه قائلا : «وقد استهله بأخبار تتعلق بتقلص ظل الدولة السعدية والزاوية الدلائية، ثم ذكر الأحداث التي واكبت ظهور الدولة العلوية ، واصفافي شكل حوليات وصفا جد موجز ما وقع في عهد كل سلطان، وخاتما الكلام عنه بذكر الصفات التي امتاز بها أيام حكمه...» [68] .

ويتضح من هذا الكلام أن المؤلف قد اطلع على الكتاب واستوعبه بابا بابا وفصلا فصلا، وتتبع الأخبار والأحداث الواردة فيه... غير انه في مكان آخر، ينقل العبارة التالية «أرخى العنان لقلمه» وأضاف قائلا:«فسجل فيه كل ما بدا له قبيحا»، وأكد أيضا أنه «من المحتمل أن يكون تاريخ الضعيف من المراجع النافعة، إلا أنه من الضروري أن ينظر بكثير من الحيطة الى بعض الأخبار التي بين دفتيه ، وهي إما موضوعة ، وإما يتعذر الآن التثبت من صحتها...»ص147!!

وفوق كل هذا وذاك من الأحكام والأوصاف يقول : «ومن المؤسف أننا لم نعثر على كتابه رغم استقصائه في البحث عنه» !!

وقد كان آنذاك ومايزال ضمن مخطوطات الخزانة العامة ، وقد طبع وحقق مؤخرا[69]

ولم يعتبر (البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلالية)[70]، لأبي الربيع سليمان ابن محمد الحوات (ت: 1231 هـ/ 1815م) من مصادر تاريخ المغرب السياسي، بالرغم من تتبع مؤلفها لهذه الزاوية في فترات ازدهارها وانهيار مجدها، بما تضمنته تراجم أعلامها من نصوص شعرية ونثرية، ومراسلات بين المناهضين لهم أيام نفوذهم من أمراء سعديين ، ومن الشرفاء السملاليين والسجلماسيين، ومواكبة السيف والقلم معا لصراعهم على السلطلة والنفوذ ...ومع ذلك يعتبر الأستاذ (ليفي بروفانسال) قيمتها لا تتجاوز الجانب الأدبي كما جاء في قوله: «...وعليه فإن المعلومات السياسية الطريفة التي قد نعثر عليها في البدور، لا تسمح لنا بأن نعد هذا الكتاب من المصادر الأصيلة لتاريخ المغرب السياسي ، بيد أننا نعتبره مرجعا لا يستهان به فيما يخص التاريخ الأدبي...»[71]. ومن الكتب التي اعتبرها مفقودة : وهي ليست كذلك :

- مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار ، لأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بابن يعقوب الولالي (ت : 1128 هـ/1715م) ، التي قال عنها : «والظاهر انها مفقودة»[72] ، والأمر ليس كذلك بل توجد مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، ضمن مجموع تحت رقم 2305 ك.
- تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين ، لعبد الكبير بن أبى البركات عبد الرحمان الفاسي (ت: 1295هـ/1878م)، وأشار إلى أن محمد بن جعفر الكتان[73]ي ذكره ضمن مراجعه في (سلوة الانفاس) ، ومما قاله عنه: «لم يتأت من سوء الحظ العثور على هذا الكتاب ، وأنه لمن المحتمل أن الكتاني نفسه لم تتح له مطالعته»[74]!! يقبل منه أسفه لعدم الاطلاع عليه ، لكن لماذا يشكك في اطلاع الآخرين عليه؟ ومن أين استقى الكتاني المعلومات التي يتحدث عنها الكتاب المذكور؟ ولماذا يلجأ الكتاني إلى الادعاء بالاطلاع عليه وجعله ضمن مصادره في (السلوة) ؟! مع العلم أن (التذكرة...) توجد نسخة خطية منها بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 12235 ز. وهي تغطي المرحلة ما بين 1171هـ/1757م إلى 1276هـ/ 1859م.

ومن الأعلام الذين وقع الخلط فيهم :

- المعداني مؤرخ زاوية أبي الجعد.

وقد عرفه بقوله : «أبو الحسن علي بن رحال المعداني ... تخرج عن اليوسي وعن عبد السلام القادري ... ولي القضاء بفاس القديمة ثم عينه المولى إسماعيل للقضاء بمكناس ، وهو الذي أم بالناس صلاة الجنازة التي أقيمت يوم وفاة هذا السلطان سنة 1139 هـ / 1727م ، ولبى داعي الله بنفس المدينة في السنة التالية 1140 هـ/1728م، ألف كتابا وسمه (الروض اليانع الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد الصالح...»[75].

كل المعلومات السابقة تنطبق على صاحب الترجمة المذكور ، إلا تأليف (الروض اليانع...) فإنه لمعداني آخر !! عاش في زمان آخر!! وهو أبو علي الحسن بن محمد الهداجي المعداني[76] المتوفي سنة 1180 هـ / 1766م.

- محمد بن قاسم بن زاكور :

- مؤلف فهرسة (زهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان) وشروح أخرى، منها (تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان)، ونسب إليه الأستاذ (ليفي بروفنسال) تأليفا آخر ، أكد مرجعيته فيه بها مش يحمل رقم 23 ص 205 جاء فيه :

«ذكر الأستاذ (نيجل NEGEL) في مجلة العالم الإسلامي (ج 24 ص 296 «رأى بخزانة زاوية أبي الجعد مخطوطا عنوانه (المطرب في أخبار سلاطين المغرب) ألفه حوالي 1200 محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي، ومن المرجح أن يكون ذلك المخطوط نسخة من (المعرب المبين) – المؤلف...» في حين أن ابن زاكور المذكور توفي سنة (1120 هـ) !!![77]

الخاتمة :

وفيها يخلص إلى الهدف من الكتاب وهو التأكيد على ضعف شعور الأدباء المغاربة المعاصرين له بتاريخ بلادهم ، ويدركون من يوم لآخر أن المغرب ليس وحده في الدنيا ... «وأن أمما أخرى عملت أكثر منه على تقدم الحضارة والعلم، وإلى هذا الأجنبي، مسلما أو غير مسلم, تتجه أنظارهم ... وحتى اللغة العربية الاصطلاحية ... لم تعد في نظر هذا الجيل

المغربي الجديد اللغة الوحيدة التي تستحق أن يكتب بها ، وكثير منهم غير بعيد عن أن يعترفوا بأن لغات أخرى تتلاءم أكثر مع الوضوح والعرض في فنون عديدة ...»[78]!!

وتساءل في آخر هذه الخاتمة : عما تحدثه الانعكاسات الأفكار الجديدة على الأدب المغربي، وكيف ستكون كتب المؤرخين إن وجدت بعد عقود من السنين؟!

ولا يسعنا في نهاية هذا العرض إلا أن نؤكد القولة المشهورة المشار إليها سابقا: «لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»، والتاريخ إسناد وشهادة، إن كتب بحق وصدق، وقصد به مواكبة مسيرته وتطوره عبر الأزمان والأجيال...

الهوامش:

---

[1] – مطبوعات دار المغرب للتأليف والمترجمة والنشر سلسلة التاريخ رقم 5) الرباط 1977 تعريب الأستاذ عبد القادر الخلادي.

[2] – طبع في تسعة أجزاء بمطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء (1954–1956) ، وعن ظروف تأليف الكتاب وحياة المؤلف تنظر مقدمة التحقيق لولدي المؤلف بالجزء الأول.

[3] – نشر منها حوالي ثلاثين مجلدا (مؤرخو الشرفاء) ها : 3 ص 21.

[4] – نفسه ص 22.

[5] – مؤرخو الشرفاء ص 22 ها : 4.

[6] – الأجزاء الثلاثة منه طبعتها دار الثقافة بيروت بتحقيق الأستاذين (ج.س. كولان، وليفي بروفانسال)، والرابع منه عبارة عن قطعة من المرابطين عثر عليها (بروفانسال) ونشر منها ما يتعلق باستيلاء (الكنبطور) على بلنسية ، ونشرها كاملة (هويسي ميراندا) في مجلة (هسبرس) سنة 1960، ونشره محققا الدكتور إحسان عباس مذيلا بملاحق تسد الخلل الواقع فيها ، وفي أخبار يوسف بن تاشفين الحاصلة بين سنتي: (479 – 495 هـ / 1086 – 1101 م)، أما قسم الموحدين من هذا الكتاب فقد حققه الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني و عبد القادر زمامه ، ومحمد زنبير ، ومحمد بن تاويت ، وطبع بدار الثقافة البيضاء 1985.

[7] – رحل مؤلفه إلى المشرق في ظروف سياسية مضطربة سنة (620 هـ / 1223 م)، وهنالك ألف الكتاب ، الذي ظهر مبتورا في مكتبة ليدين ، فطبعه العلامة دوزي عن هذه النسخة الوحيدة سنة (1264

هـــ / 1847م) ، ثم طبعه ثانية ، واخيرا نشر بتحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب الدار البيضاء ط. 1978/7.

[8] – ط. دار المنصور الرباط 1973.

[9] – المعجب ص 406 – 407.

[10] – انظر نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي : لمحمد اليفرني : 142 – 143 ، 151 تحقيق الدكتور عبد اللطيف الشادلي ، مطبعة النجاح الجديدة ؛ الدار البيضاء 1998.

[11] – يقصد السلطان خاقان العثماني :مراد بن سليم وقد ورد ذكر اسمه كاملا بعد ذلك.

[12] –(الكاردنال إنريك) – المحقق.

[13] – يقصد (فليب الثاني) – المحقق.

[14] – يقصد (هنري الرابع) – المحقق.

[15] – نزهة الحادي ص 151 – 152.

[16] – الاستقصاء5 / 83.

[17] – انظر : (تاريخ تطوان 2/ 81 – 95) لمحمد داود ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، تطوان 1965.

[18] – عالم زاهد تفقه على سفيان الثوري ومالك بن أنس (ت: 182 هـــ / 798 م)انظر : (وفيات الأعيان 32/3 – 54 تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت).

[19] – انظر : (فتح الملك الناصر في اجازات مرويات بني ناصر) لمحمد المكي بن موسى الناصري ، مخط. الخزانة الحسنية بالرباط رقم 10939، ورقة 6 /أ.

[20] – مؤرخو الشرفاء ص 48.

[21] – المعجب ص 243.

[22] – القرطاس ص 167.

([23] ،[24]) مؤرخو الشرفاء ص 51.

[25] – نفسه ص 66–67.

[26] – نزهة الحادي من 151.

[27] – مؤرخو الشرفاء ص 84.

[28] – قتله أشياخ الفحص ، بعد مللهم من انحرافة وخيانته (سنة : 1022 هـــ / 1613 م) أنظر : (الاستقصا 22/6).

[29] – داء العطب قديم ، للسلطان المولى عبد الحفيظ، مخط . خ . ح بالرباط رقم 11400 ز.

[30] – نفسه ورقة 66–68.

[31] [32] – نفسه ورقة 71–76 ، 77 – 83.

[33] – المترع اللطيف لابن زيدان ص 273، نشر الدكتور عبد الهادي التازي ، مطبعة إديال البضياء 1993 ، وتاريخ تطوان 62/2 وما بعدها.

[34] – تاريخ تطوان 2 / 81–85.

[35] – مؤرخو الشرفاء ص 38.

[36] – هو الحسن بن محمد الشهير بابن الوزان، ينسب الى قبيلة بني زيات بجبال غمارة عاشت اسرته في الأندلس ، ولد بمدينة غرناطة قبيل سقوطها ، رحل الى المغرب والسودان والحجاز والأستانة وفي طريق عودته إلى المغرب أسر من شاطئ.

تونس وسيق الى (نابولي) فقدم هدية الى البابا (ليون العاشر) وتظاهر باعتناق المسيحية باعتباره موريسكيا، فحمل اسم مالكه وحاميه تسترا ... (ت : بعد عام 957 عـــ / بعد 1350 م). انظر : (مقدمة تحقيق وصف افريقيا).

[37] – مؤرخو الشرفاء ص 27.

[38] – نفسه ص 28.

[39] – نفسه ص 59.

[40] – لصاحب البحث اطروحة نال بها دكتوراه الدولة في (النثر الأدبي في المغرب) في هذين القرنين، تهيأ للطبع حاليا، وأعمال اخرى عن الحركة الثقافية والعلمية في المغرب منشورة في بعض الأعداد من (مجلة مكناسة) الصادرة عن كلية الأداب بمكناس وبعض الندوات العلمية التي أقامتها ...

[41] – مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 10939.

[42] – أحد أجداد المؤلف.

[43] – طبعت في جزءين بالمطبعة العربية بالدار البيضاء 1938.

[44] – نشر عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية الرباط 1967.

[45] – مؤرخو الشرفاء ص 28.

[46] – وهو باكورة عمله العملي ، ما يزال مخطوطا بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 258.

[47] – يقصد المكتبة الموحدية، (دور الكتب في ماضي المغرب، ورقة 18، 67).

[48] – يقصد مكتبة عبد العزيز المزوار، احد وزراء أحمد المنصور الذهبي (نفسه ورقة 35).

[49] – نفسه ورقة 3.

[50] – نفسه ورقة 35.

[51] – من مؤلفاته شرح القصيدة لعمه إبراهيم بن عبد الجبار(ت : حوالي 954 هـ / 1547م) المسماة ب (الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد) انظر: (نشر المثاني) لمحمد بن الطيب القادري حوادث 1021 هـ.

[52] –53 – دور الكتب في ماضي المغرب ورقة 94،96.

[54] – نفسه ورقة 93.

[55] – نفسه ورقة 35، وقد اعتمد في ذلك (كتاب المغرب) للعلامة (ريكار).

[56] – نفسه ورقة 16.

[57] – طبع في جزءين ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط 1983 و 1989.

[58] – مؤرخو الشرفاء ص 28.

[59] – نفسه ص 28.

[60] – نفسه ص 59.

[61] – نفسه 128.

[62] – مفرد الأزياج زيج، معرب (زه) رسم تقوم به الكواكب والنجوم، انظر : (كشف الظنون 964/2).

[63] – انظر : (فهرس الخزانة الحسنية) بالرباط، مخطوطات الرياضيات والفلك واحكام النجوم والجغرافيا، (المجلد الثالث) تصنيف الأستاذ محمد العربي الخطابي – الرباط 1983.

[64] – مؤرخو الشرفاء ص 94.

[65] – نفسه ص 96.

[66] – مثل مؤلفات البخاري ، وابن الكليبي ، والمسعودي وغيرهم .. هذا فضلا عن (القرطاس) و (بغية الرواد في دولة بني عبد الواد) لابن خلدون ، و(نظم الدرر والعقيات في بني زيان) للتنسي ، و (صفوة الأدب) للجراوي في دولة الموحدين...

[67] – مؤرخو الشرفاء ص 44.

[68] – نفسه ص 147.

[69] – حققه العماري ونشرته دار المأثورات بالرباء 1986.

[70] – حققها الدكتور عبد الرحمن كظمي في أربعة أجزاء (ماتزال مرقونة).

[71] – مؤرخو الشرفاء ص 243.

[72] – نفسه ص 206.

[74] – نفسه ص 249.

[75] – نفسه ص 212.

[76] – انظر ترجمته في (الزاوية الشرقاوية) لأحمد بوكاري ص 293– 224 مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1985، والأعلام للزركلي 219/2 ط 6.

[77] – وعنوانه الكامل (المعرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين).

[78] – مؤرخو الشرفاء ص 277.

أَنْسَنَة الرقيق مظهر من مظاهر تكريم الإنسان في الإسلام

ذ. عبد اللطيف مومن

كلية الآداب – مكناس

الملخص :

لقد أتت الملة الحنيفية بتشريعات متكاملة توخت ترسيخ قيم المساواة بين جميع أفراد البشر، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وأشكالهم.

ولعل المسلك الذي سلكه الرسول عليه السلام، والصحابة رضوان الله عليهم، مظهر عظيم يعكس بجلاء كون ديانتنا السمحاء قصدت أن تجعلهم متساوين مع نظرائهم الأحرار في الحقوق والواجبات.

ولا بدع في ذلك فقد كان الزمن كفيلا بتكريس تلك المساواة، وأنسنة الرقيق تكريما لبني الإنسان.

ليس ثمة ريب أن الحنيفية السمحاء هي الشريعة المثلى التي كرمت الإنسان وفضلته على سائر الخلائق والموجودات، لما أوتيه من عقل واع هو نور من الله تعالى أنشأه فيه ليتحمل المسؤولية العظمى مسؤولية خلافته على الأرض، وحفظ التوازن بين متطلبات الروح والمادة بها. ولعمري إن في هذه الهبة الإلاهية منتهى التكريم والإنعام، يقول الله عز وجل: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا" (1). وتأسيسا على هذا المبدأ السماوي الخالد فإن الناس سواسية كأسنان المشط، وأن التفاضل –كما هو معهود– قائم على مقياس التقوى ودرجة العلم وليس على مقياس السحنة والخلقة، فالله تعالى ينظر إلى أعمالنا وليس إلى صورنا. إن تقرير هذا المبدأ الخالد يفضي بنا إلى القول بأن الإسلام رغم تشريعه لنظام الاسترقاق إلا أنه انسجاما مع ما سبق اعتبر الأرقاء أناسا كاملي الإنسية إسوة بباقي البشر، وأن نور العقل الذي بثه الله فيهم يوجب على غير المسترقين أن يعاملوهم معاملة إنسانية رحيمة.

ولتبيان موقف شريعتنا الكريمة من هذه الظاهرة نعتقد أننا ملزمون بأن نقوم بإطلالة تاريخية على نظام الاسترقاق لدى الشعوب القديمة حتى يتضح موقف ديننا الإنساني منها عملا برأي المناطقة "وبضدها تتميز الأشياء". يقصد بالرق لغة* : الليونة التي هي في مقابل الغلظة و الخشونة وذلك لأن الأرقاء يلينون لأسيادهم، وأما من جهة الاصطلاح فهو عجز حكمي يصيب بعض الناس يجعلهم يفقدون حريتهم لفائدة أشخاص آخرين (2). بينما تعتبره القوانين البشرية وضعا قانونيا "يجرد الفرد تجريدا كاملا من حريته المدنية، فلا يجوز له إجراء أي عقد، ولا تحمل أي التزام، وتنـــزع عنه أهلية التملك، ويجعله هو نفسه مملوكا لغيره، ويترله من بعض النواحي مترلة السلعة يتصرف فيها السيد كما يشاء" (3).

وقد عرف قدماء المصريين والصينيين والهنود واليونان والرومان نظام الاسترقاق، وذكرته الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، فمن ذلك قول بولس الرسول في رسالته إلى أهل افسس "أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح..." (4) كما زكاه القديس توما الإكويني لوم و لم يعترض عليه، واعتبره أرسطو حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية" ومذهب أرسطو في الرق أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التي يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة" (5) أما أفلاطون فيقضي " في جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة ليقتص منه كما يريد" (6).

وقد كان طبيعيا أن يعرف الاسترقاق رواجا كبيرا لدى المجتمعات المتبدية بينما شهد تقلصا لدى المجتمعات المتحضرة التي عاشت على ضفاف الأنهار الكبرى، وكانت هذه المجتمعات تحمل الرقيق ما لا طاقة لهم به حيث كانوا يعذبون شتى صنوف العذاب ويكوون بالنار حتى كانوا يسمون" الآلة ذات الروح، والمتاع القائم به في الحياة" (7) بينما كان الرومان يحتقرونهم ويعاملونهم معاملة وحشية حيوانية، وفي هذا يقول أحمد أمين : "وقد منح

القانون الروماني الحق في إماتة عبده أو استحيائه، وجعله مستبدا غير مسؤول عن تصرفه في عبده..." (8)

وإذا رحنا ننقب في صحيفة التاريخ القديم وجدنا أن العوامل التي أدت إلى استرقاق بني البشر عديدة أهمها:

1 – الحروب : حيث كان المتغلب يسترق نساء المتغلب عليهم وأطفالهم.

2 – الفقر : حيث كان بعض الناس يقدمون على بيع أبنائهم كسبا لقوتهم من ورائهم.

3 – الوفاء بالديون حيث إن بعض الناس الذين استغرقتهم الديون كانوا مضطرين لأن يتخلوا عن حريتهم ويجعلوا أنفسهم عبيدا لدائنيهم.

4 – وقوع كثير من الناس الأحرار ضحايا القرصنة والاختطاف مما كان يجعلهم مسترقين من قبل قراصنتهم ومختطفيهم (9) .

وفي مفتتح حديثنا عن موقف الإسلام من الرق نجد أنفسنا أمام عدة اتهامات ملفقة ضده ينعى من خلالها عليه أنه لم يحرم الرق تحريما قاطعا، والواقع أن شريعتنا السمحاء قد رأت من الحكمة ألا يتم تحريم هذا النظام بطريقة قسرية فورية ذلك لأن كثرة الغزوات والفتوحات خلفت نساء وأطفالا كثيرين ليس لهم من يعولهم فكانت الحكمة تقتضي أن يسترقوا بيد أنها حرمت قتلهم أو التشفي فيهم. ومن الواضح أن هذا الموقف نابع من مبدأ حسن التدرج في إصدار الأحكام والتشريعات، وهكذا كان مقدرا لهذه الظاهرة أن تمحي ويقضي عليها مع مرور الزمن بدليل ما هو كائن في عصرنا هذا. "ولو أن الإسلام حاول إلغاء الرقيق دفعة واحدة لخالف نواميس الحياة الاجتماعية المتدرجة في مراحل التطور، ولعرض الأوضاع الاقتصادية في بيئته التي ظهر فيها وفي بيئات كثيرة في العالم لأزمات واضطرابات، أهمها انتشار الفقر المقرون بالجرائم من قبل العبيد قبل التحرير... (10)

والإسلام وإن أقر هذا النظام فإنه قيده بقيود تقوم على عدم تجريد الرقيق من جميع حقوقهم كلها كما كان دأب الأمم القديمة، ومعنى ذلك أنه "لم يبح منه إلا ما هو مباح منه

الآن، وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع، وأن الأمم الأخرى لم تأت بجديد في هذه المسألة بعد الذي تقدم به الإسلام قبل ألف ونيف وثلاثمائة عام..." (11)

ومن الطعون التي يوجهها خصوم الإسلام نحوه أن المسلمين يسترقون أسراهم في الحروب، والحق أنهم ما كانوا يقدمون على هذا الاسترقاق إلا بعد أن ترفض الدولة صاحبة الأسرى افتداءهم أو مبادلتهم بأسرى مسلمين وكأنها تصير راغبة في استعادتهم، مما يجعل استرقاقهم أمرا طبيعيا على أساس أن يعتقوا لاحقا ويندمجوا في المجتمع الإسلامي (12).

ومهما يكن فإن المسلمين لم يكونوا يقومون بالغزوات والحروب إلا للدفاع عن النفس أو انتقاما من مشركين وأهل كتاب عقدت معهم مواثيق وعهود إلا أنهم خانوها أو أنهم – يعني المسلمين- كانوا يباغتون هؤلاء الأعداء بغارات اتقاء حدوث فتنة عظيمة مما كان يخلف معه أسرى كثيرين اقتضت المصلحة الإسلامية استرقاقهم، بيد أنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يسترق الأسرى المسلمون في حرب بين طائفتين مؤمنتين.

ولنتبين صدق هذه المقولة –أقصد أنسنة الرقيق في الإسلام- علينا أن نتحدث عنها وفق النقط الآتية :

1 – فمن مظاهر هذه الأنسنة أن الله تعالى جعل عتق عبد أو أمة كفارة – من ضمن الكفارات في هذه الحالة- عن إحدى الذنوب التالية:

أ – إفطار يوم في رمضان عمدا يوجب –من ضمن ما يوجب- تحرير رقبة.

ب – الحنث في اليمين المعقودة يوجب – من ضمن ما يوجب- تحرير رقبة كما نصت عليه الآية الحادية والتسعون من سورة المائدة.

ج- الظهار من النساء ومن كفاراته لمن أراد أن يعود إلىزوجه تحرير رقبة مصداقا لقوله تعالى: "والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا... الأية" (13)

د- ومن ضمن ما يكفر به عن قتل مؤمن خطأ تحرير رقبة مصداقا لقوله تعالى: "وما كان لمومن أن يقتل مومنا ومن قتل مومنا خطأ فتحرير رقبة.. الآية " (14).

هـ – وجوب عتق الرقيق الذي يضربه سيده أو يلطمه كما هو واضح في قوله صلى الله عليه وسلم "من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه" (15)

2 – ومن هذه المظاهر كذلك أن الرقيق –ذكرا كان أم أنثى– إذا كاتب سيده بقصد تحريره فإنه يصير مستحبا من هذا الأخير أن يجيبه إلى طلبه (16) وهذا واضح في قوله تعالى: "والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم" (17) وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم "من أعان غارما أو غازيا، أو مكاتبا في كتابته أظله الله يوم لا ظل إلا ظله" (18) .

3 – إذا تسرى المسلم بأمته وحملت منه فإن مولودها ينشأ على الحرية أما هي فتصير حرة بعد موت سيدها، وهنا نرى أن الرسول الكريم يشجع مثل هؤلاء الأسياد أن يعتقوا جواريهم أولا ثم يتم العقد عليهم بصداق إسوة بالحرائر وهذا واضح في قول الرسول عليه السلام: "من كانت له جارية فعالها فأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران" (19)، ويؤنب سيدنا عمر بن الخطاب الذين يسلكون غير هذا السبيل فيقول : "أفبعد أن اختلطت دماؤكم بدمائهن بلحومهن ولحومهم تريدون بيعهن؟؟ (20). ويعلق أبو الأعلى المولودي على هذا العمل قائلا" إن الأمة التي يتمتع بها بدون نكاح أي على مجرد ملك اليمين لا تبقى إلا أمة ليس لها مثل ما للمحصنات من درجة ولا لذريتها مثل ما لذريتهن. ولذا فإن الطريق الذي فضله الرسول عليه السلام أن يعتقها سيدها أولا لتنال مرتبة المحصنات ثم يتزوجها على طريق معروف حتى ينشأ فيها الشعور بعزة النفس مثل شعور المحصنات وتدخل في مجتمعه على قدر المساواة (21)

4 – وجوب عتق المؤمن قريبه الذي ملك ناصية أمره مصداقا لقوله صلى الله عليه وسم: "من ملك ذا رحم محرم فهو حر" (22).

5 – ومن هذه المظاهر أن السيد إذا قال لعبده "أنت حر "أو ما يدل على هذا المعنى فإنه يعتق ولو كان السيد مازحا، وهو ما يصطلح على تسميته ب "التدبير"

6 – حث الرسول الكريم المسلمين المالكين للأرقاء على أن يعتقوهم لما في ذلك من عظيم الأجر والمتوبة، مصداق ذلك أن أباذر رضي الله عنه سأل النبي عليه السلام عن أفضل

العمل فقال: "إيمان بالله، وجهاد في سبيله : قلت فأي الرقاب أفضل؟ قال : أغلاها (أو أعلاها) ثمنا وأنفسها عند أهلها.. الحديث" (23) ومصداقه كذلك قوله عليه السلام "أيما رجل أعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا منه من النار... الحديث" (24) وفي رواية " من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إربا منه في النار... الحديث" (25) ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إسوة حسنة للمسلمين فقد أعتق ثلاثا وستين رقبة، وأعتقت سيدتنا عائشة رضي الله عنها سبعا وستين رقبة، وأعتق عمه العباس رضي الله عنه سبعين رقبة، وأعتق حكيم بن حزام رضي الله عنه مائة رقبة، وأعتق عبد الله بن عمر رضي الله عنه ألف رقبة، وأعتق عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ثلاثين ألف رقبة (26) . بل إن الدولة الإسلامية كانت تنفق من بيت مال المسلمين على عتق الأرقاء إذ يذكر، المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز طلب بإفريقيا فقهاء يعطيهم الزكاة فلم يجدهم فاشترى بأموالها رقابا أعتقها (27).

7 – حقوق الأرقاء قبل عتقهم:

أ – التزوج من الأحرار أو من الرقيق أمثالهم، وحق إيقاع الطلاق دون إذن السادة المالكين، ومن ذلك أن القرآن الكريم حث المسلمين على تفضيل الأرقاء المؤمنين- أزواجا لبناتهم- على الأحرار المشركين وهذا واضح في قوله تعالى: "ولعبد مومن خير من مشرك ولو أعجبكم... الآية" (28) كما حث على التزوج بالإماء الصالحات لأنهن أفضل من الحرائر المشركات اللاي هن دون ذلك مصداقا لقوله تعالى: "وانكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم... الآية " (29) .

ب — حق البيع والشراء والهبة والرهن والتملك وإجراء مختلف العقود والقيام بالتجارة الشخصية أو تجارة السيد المالك.

ج- تزكية الأمان الذي يعطيه العبد نيابة عن سيده ومباركته بحيث يصير ملزما لهذا الأخير بل إن الدولة نفسها تلتزم بما يعقده أرقاؤها من عهود ومواثيق، فقد حدث في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه أن أعطى أحد العبيد أمانا لأهل حصن بفارس كان محاصرا

من قبل المسلمين فأخبر المحاصرون عمر بهذه الواقعة فكتب إليهم يقول : "إن العبد المسلم من المسلمين، ذمته كذمتهم فلتتفذوا أمانة" (30)

د- الإحسان إليهم ومساعدتهم بالزكوات والصدقات، وفي هذا يقول الله تعالى: "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا" (31). ويقول أيضا: إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب.. الآية" (32) ، بل ويجعل تعالى نيل أعظم الأجر مقرونا بتحرير أحد الأرقاء، وهذا واضح في قوله عز وجل من قائل : "فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقـــبة؟ فك رقبة... الآية (33) . يقول الدكتور أحمد سويلم العمري في مثل هذا التكريم الإنساني: "وكان الرقيق يعتبر ضمن أسرة سيده، وقد يحرره ويزوجه ابنته إذا ظهرت مواهبه، وقد يرتفع إلى أسمى مراتب الدولة، ولم تقم حياة الأرقاء بحال على الأصفاد والسياط كما شوهد ذلك في العصور الحديثة بالقارة الأمريكية وغيرها..." (34), أما كارل بروكلمان، فيرى مثل هذا الرأي في قوله: "... والحق أن لمالك الرقيق حرية التصرف بشخص رقيقه وعمله، ولكن يتعين عليه أن يحسن معاملته" (35).

8 - نماذج من مواقف الرسول عليه السلام والصحابة رضوان الله عليهم في هذا الشأن:

أ - من ذلك أن الرسول صلى‌الله عليه وسلم أمر بلال بن رباح بالأذان -كما هو معهود- على ظهر الكعبة فاستنكر سادة قريش وقالوا : "أعبد حبشي يعلو ظهر الكعبة بحصوننا؟ فنزلت الآية الثامنة عشرة من سورة الحجرات تنعي على المسلمين تمسكهم بجهالة الجاهلية وفيها يقول الله عز وجل : "إن أكرمكم عند الله أتقاكم... (36). ومما يؤثر أن شنآنا حدث بين أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وبين أحد الأرقاء السود فعيره الصحابي الجليل بسواد أمه وإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب ويقول : طف الصاع " أي طفح الكيل" يا أبا ذر ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا

بالتقوى أو بعمل صالح، فوضع أبو ذر خدّه على الأرض وقال للعبد الأسود: قم فطأ برجلك على خدي" (37). وقد آخى الرسول الكريم بين عمه حمزة وبين زيد بن حارثة مولاه وآخى بين خالد بن رويحة وبلا بن رباح، وكان أبو الصديق وخارجة بن زيد أخوين (38). وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن زيد بن حارثة "ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولوبقي بعده لاستخلفه" (39). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع تأكيدا منه على هذا الموقف الإنساني" أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم..." (40). ومن أقواله عليه السلام في هذا الشأن مخاطبا مالكي رقاب الأرقاء: "إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم" (41)، وعنه عليه السلام أنه قال : "والذي نفسي بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك "ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا : "لا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي" (42)، ويقول صلى الله عليه وسلم كذلك في هذا المجال :"استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود فبدأ به وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل... الحديث" (43) .

ب – أما مواقف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الشأن فأكثر من أن تحصى، من ذلك أنه كان يقول "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا" (44) وحينما طلب منه رضي الله عنه أن يستخلف أيام احتضاره قال: "لو كان سالم حيا –يعني مولى أبي حذيفة– ما جعلتها شورى" (45) وحينما أراد رضي الله عنه السفر إلى بيت المقدس للتفاوض مع بطريركها على استلام مفاتيحها كان يتناوب على امتطاء ناقته هو وغلامه حتى إذا اقتربا من المدينة صار الدور للغلام فعرض على سيدنا عمر أن يبقى ممتطيا ناقته لما في ذلك من إظهار لعظمة خليفة المسلمين وهيبته إلا أنه رضي الله عنه رفض ذلك، وهكذا دخل سيدنا عمر راجلا وغلامه راكبا بيت المقدس (46)

ج- وحدث في عهد عمر بن عبد العزيز أن جارية سوداء مصرية اشتكت إليه أن حائط مترلها قصير بحيث كان اللصوص يتسورون عليه لسرقة متاعها فكتب رضي الله عنه إلى والي مصر آنذاك- أيوب ابن شر حبيل يأمره أن يركب بنفسه إلى مترلها كي يحصنه لها وهذا ما وقع فعلا، (47) يقول الدكتور محمد البهي تعليقا على هذه المواقف الإنسانية الخالدة : "إن وجد الإنسان يعيش دون طبيعته الإنسانية أيقظ فيه –يعني الإسلام- المعنى الإنساني، ودعاه إلى أن يرتفع إلى مستواه... وناشد غيره ممن معه في جماعـــته أن يعينوه على أن يصل إلى هذا المستوى الإنســـاني" (48). ويقارن العقاد بين معاملة المسلمين للأرقاء وبين معاملة البيض للعبيد الأمريكيين فيقول: "فلا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال وبين تحريم المساكنة والمصاهرة واستباحة الدم انتقاما من الأسود الذي يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته البيض" (49) . أما السيد سابق فينتهي من دراسة هذه المواقف الإنسانية إلى قوله: "وبهذا يتبين أن الإسلام ضيق مصادر الرق وعامل الأرقاء معاملة كريمة، وفتح أبواب التحرير، تمهيدا لخلاصهم نهائيا من نير الذل والاستـــعباد فأسدى بذلك لهم، يدا لا تنسى على مدى الأيام" (50)

نخلص من عرض هذه المواقف إلى أن الإسلام أتى بتشريعات متكاملة في هذا المجال بحيث لم يترك ثلمة إلا سدها ولذلك كان طبيعيا مع كل هذا أن تتلاشى هذه الظاهرة عبر الزمن ويعسر وجود بعض مظاهرها إلا في حدود ضيقه وما ذاك إلا أنها –أي هذه التشريعات- صادرة عن الله المدبر الحكيم، أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، أو عن الصحابة الراشدين الذين كانوا يتأسون بصنيعه عليه السلام، أو عن السلف الصالح السائرين على نهجهم القويم. أما القوانين الوضعية فإنها وإن عملت على تحرير الأرقاء من الوجهة القانونية الرسمية إلا أن الممارسات العنصرية ما زالت حية بين ظهرانينا بشكل أو بآخر خاصة في أمريكا وأوروبا الغربية. ولئن اختفى الرقيق من أسواق النخاسة ومخلفات الحروب فإن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان ما زال ماثلا في عدة مظاهر ومواقف وخاصة ما يصطلح على تسميته بالرقيق الأبيض الذي أضحى تجارة رائجة في هذه الأقطار

المسماة "دولا متقدمة" أو "متحضرة". وصدق الله العظيم حين يقول : "ما فرطنا في الكتاب من شيء" (51)...

الهوامش والإحالات :

---

1) سورة الإسراء الآية : 70

* ينظر لسان العرب ، مادة : رقق

2) ينظر منهاج المسلم للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ، ص : 548 نشر : دار الفكر ودار الفتح – بيروت– الطبعة الثانية والطبعة الرابعة سنة 1972

3) الحرية في الإسلام ص : 20 للدكتور علي عبد الواحد وافي، سلسلة إقرأ العدد 304، أبريل 1968– نشر وطبع دار المعارف بالقاهرة

4) نقلا عن "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" لعباس محمود العقاد ص : 285 – نشر دار الكتاب العربي –بيروت الطبعة الثالثة سنة 1966

5) المرجع نفسه ص : 286

6) المرجع نفسه، ص : 286

7) ينظر "منهاج المسلم" المشار إليه في الإحالة رقم 2، ص : 549

8) فجر الإسلام ص : 87 نشر دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة العاشرة، سنة 1969

9) ينظر "منهاج المسلم" ص : 548–549

10) النظم الإسلامية نشأتها وتطورها للدكتور صبحي الصالح ص : 446 ، نشر دار العلم للملايين – بيروت– الطبعة الثانية 1968 ثم انظر "منهاج المسلم" ص : 551

11) حقائق الإسلام "المشار إليه في الإحالة رقم 4 ص : 288

12) ينظر كتاب "الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة لأبي الأعلى المودودي، ص : 93 –نشر دار القلم بالكويت– الطبعة الأولى 1971

13) سورة المجادلة : الآية : 3

14) سورة النساء : الآية : 9

15) صحيح مسلم : كتاب الحديث رقم 29 –طبع دار الفكر بيرةت

16) المكاتبة في الاصطلاح الفقهي هي أن يطلب العبد من سيده عتقه على أساس أن يسلم له مقدارا من المال أو ينجز له عملا في مدة معينة أو غير محددة وبمجرد استيفاء هذين الشرطين يتعين على السيد تحريره وسمي ذلك مكاتبة لأن العقد المتضمن يكتب كتابة.

17) سورة النور : الآية 33

18) مسند ابن حنبل ص 20/1 باب الجهاد والغزوات، شرح أحمد محمر شاكر، دار المعارف بمصر، سنة 1950 .

19) صحيح البخاري : كتاب العتق ، باب فضل من أدب جاريته وعلمها : 3/296- عالم الكتب — بيروت.

20) نقلا عن "الحرية في الإسلام" ص : 34 المشار إليه في الإحالة رقم : 3

21) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، ص : 88 المشار إليه في الإحالة رقم 12

22) صحيح مسلم : كتاب الذكر، رقم 93

23) صحيح البخاري —كتاب العتق "باب أي الرقاب أفضل" 3/287

24) المصدر نفسه والصفحة نفسها

25) متفق عليه ص : 551

26) ينظر "الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة " ص : 108

27) ينظر "الحرية في الإسلام" ص : 41 المشار إليه في الإحالة رقم 3

28) البقرة : الآية 221 ثم ينظر تفسير ابن كثير 1/386-387 ضبط حسين بن ابراهيم زهران —دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع سنة 1988

29)سورة النور : الآية 32

30) فتوح البلدان : للبلاذري ص 229-230

31) سورة النساء : الآية 36

32) سورة التوبة : الآية : 60

33) سورة البلد : الآية 12-13

34) التفرقة العنصرية ص : 4 سلسلة المكتبة الثقافية، العدد 115 غشت 1964 نشر دار القلم —القاهرة

35) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص : 81 نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي —نشر دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الرابعة 1965

36- ينظر تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا 29/1 مطبعة المنار بالقاهرة،—الطبعة الأولى سنة 1346 هـ,

37) ينظر "النظم الإسلامية ص : 469 المشار إليه في الإحالة رقم 10

38) ينظر المرجع نفسه والصفحة نفسها

39) ينظر "شهداء الإسلام في عصر النبوة" ص 151 للدكتور سامي النشار، نشر المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، — مطبعة المعارف الجديدة، —الرباط 1984

40) ينظر "البيان والتبيين" للجاحظ 33/2 تحقيق وضبط حسن السندوبي، توزيع دار الفكر —بيروت

41) صحيح البخاري —كتاب العتق" باب قول النبي ص العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون .. الحديث 296/3–297

42) صحيح البخاري —كتاب العتق باب كراهية التطاول على الرقبة 299/3

43) صحيح البخاري : باب مناقب سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه : 103/5

44) صحيح البخاري : كتاب المناقب "باب مناقب بلال بن رباح 102/5

45) نقلا عن "شهداء الإسلام في عصر النبوة، ص : 217 المشار إليه في الإحالة رقم 39

46) ينظر "الحرية في الإسلام " ص : 51 المشار إليه في الإحالة 20

47) ينظر " من روائع حضارتنا "للدكتور مصطفى السباعي، —نشر دار السلام بدمشق، ط 1 سنة 1959 —المطبعة الهاشمية.

48) الدين والحضارة الإنسانية — سلسلة كتاب الهلال المصرية ص : 184

49) ما يقال عن الإسلام ص : 148 لعباس محمود العقاد، سلسلة كتاب الهلال المصرية .

50) فقه السنة المجلد 2 ص 691 ، نشر دار الكتاب العربي–بيروت، الطبعة 3 سنة 1977

51) سورة الأنعام : الآية : 38.

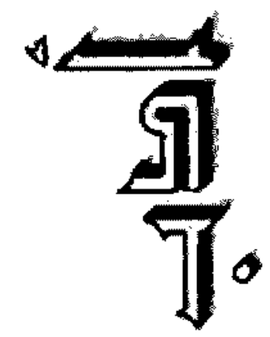

مدخل إلى دراسة التركيب الوظيفي

ذة. فنان أمينة

كلية الآداب - مكناس

ملخص:

يعـــد مارتيني من اللسانيين الذين اهتموا كثيرا بالوظيفة التواصلية للغة. وإذا عدنـــا إلى كتابيه «عناصر اللسانيات العامة» و«نظرة وظيفية إلى اللغة» لاحظنا أنه يميز تمييزا واضحا بين مختلف فئات المونيمات والملفوظات، مؤكدا على أن المشكلة الرئيســـية هـــي قـــبل كل شيء مشكلة الوظيفة من حيث كونها شيئا مختلفا عن الشـــكل. ولا ينقاد اللساني في مهمته إلى الاهتمام بالعلاقات التي تقوم بين العناصر الـــلغوية وحسب، بل إلى إبراز، وذلك بشكل خاص، وظيفتها في عملية التواصل. ذلك أن وظيفة العناصر هي منطلق وأساس التفكير الوظيفي. ونحاول في هذه الورقة أن نعرض لأبرز تمفصلات تفكير مارتيني المتصل بالنحو اتصالا قويا.

لتحديد التركيب syntaxe قدم مارتيني في كتابه *التركيب العام*[1] تعريفين: الأول لمارزو ومفـــاده أن الـــتركيب هو دراسة الإجراءات النحوية التي ترتبط بواسطتها كلماتُ جملة من الجمل في ما بينها بكيفية تعبر عن العلاقات القائمة بينها[2]، والثاني لدونيس فرانسوا ومضمونه أن «موضـــوع التركيب هو التعبير عن الوسائل التي بها يمكن للعلاقات الموجودة بين عناصر الـــتجربة (التي تشكل موضوع التواصل) أن تسجل في متوالية من الوحدات اللسانية بكيفية تتيح لمتلقي الرسالة إعادة بناء هذه التجربة»[3].

ويبدو من النص الأخير أن ما يتميز به التركيب الوظيفي هو تركيزه على قدرة المتلقي عـــلى إعـــادة بناء التجربة التي تشكل موضوع التواصل. فلا يعرف التركيب باعتباره تأليفا combinatoire، ولكن باعتباره دراسة الوسيلة التي يمكن أن يعبر بها عن العلاقات الموجودة في التجربة المشكلة لموضوع التواصل، والتي قد يميل إلى محوها كل من التحليل إلى وحدات لغوية

والضـــغوط التي تفرضها خطية الخطاب. وهكذا يتضمن النص المعني تصورا وظيفيا للبحث اللساني.

فموضـــوع عـــلم التركيب في النظرية الوظيفية هو التعبير عن الوسائل التي بها تستقيم العلاقـــات الموجـــودة بين عناصر التجربة، من خلال تتابع الوحدات اللسانية على نحو يتيح للمخاطب إدراك تجربة المتكلم.

يهـــتم الـــتركيب الوظيفي بوحدات التقطيع الأول، أي المونيمات فيعمد إلى جردها وتصـــنيفها مـــن خلال السياقات التي تظهر فيها، ويبين، فضلا عن ذلك، ما يطرأ عليها من تغـــيرات دلالية في سياقات مختلفة مع تحديد وظيفة كل منها في الجملة[4]. بعبارة أخرى، يعنى التركيب بالعلاقات المتغيرة التي تربط قسما بآخر، «وهذه العلاقات هي التي يطلق عليها اسم الوظائف النحوية»[5].

ولا تقتصـــر مهمـــة الباحث اللساني الوظيفي على الاهتمام بالعلاقات التي تربط بين العناصـــر الـــلغوية فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى إظهار الوظيفة التي تؤديها تلك العناصر في عمـــلية التواصـــل. فوظيفة العناصر هي منطلق التفكير الوظيفي. وتتميز عند مارتيني بكونها واقعية من الدرجة الأولى، فهو ينطلق دائما من الوقائع وعنها يصدر، محاولا بناء نموذج تجريبي اســـتنتاجي يتفق ومعاينة الوقائع. ومهمة التركيب هي دراسة علاقات أقسام المونيمات التي ترتبط فيما بينها بصلات متغيرة، مثل قسم الأسماء وقسم الأفعال. وتعرف الروابط المتغيرة بين هذين القسمين بالوظائف النحوية، وهي التي سنتناولها بالتحليل لاحقا.

تقتضي الضرورةُ المنطقية لتعريف الوظائف تعريفا جيِّدا المبادئَ التالية:

- لكل عنصر داخل بنية من البنيات وظيفته،
- ليس للعنصر سوى وظيفة واحدة،
- لا يمكن لعنصرين أن يعرفا الوظيفة نفسها[6].

ويختلف التعبير عن هذه المبادئ باختلاف النظريات اللسانية.

1- الوظيفة في اللسانيات الوظيفية

يرتبط مفهوم الوظيفة عند مارتيني بمبدأ الاختيار، أي اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية اختيارا واعيا، ذلك أنه (المتكلم) ينتقي من بين معطيات اللغة تلك التي تساهم بشكل مباشر في تحقيق الإخبار أو عدم تحقيقه. ويتم الاختيار على مستوى التقطيع المزدوج، فعلى مستوى التقطيع الأول، يختار المتكلم بين كلمة وأخرى. أما على مستوى التقطيع الثاني، فإنه يختار بين فونيم وآخر. وتعتبر العناصر التي تحمل شيئا من الإخبار هي وحدها تمييزية. وهكذا يميز الباحث في جملة: «خذ الكتاب» ثلاث وحدات من وحدات التقطيع الأول، لأنه يجد فيه ثلاثة اختيارات: «خذ»، و «ال»، و«كتاب». وهكذا تقوم هذه العناصر بوظيفتها الإخبارية[7].

ويستند مارتيني في تحديده الدقيق لمفهوم الوظيفة إلى مبدأ تقطيع الكلام وتوزيع أجزائه. ولا يمكن لأي جزء من أجزاء الكلام أن يعرف وظيفة ما لم يقتضِ السياقُ ظهورَه، ذلك أن القيمة الإخبارية لجزء من الأجزاء تتوافق توافقا عكسيا مع مدى توقع السامع له. فمتى كان توقع السامع له كبيرا كانت شحنته الإخبارية ضعيفة. وهكذا يتحدد مفهوم الوظيفة في النظرية الوظيفية بالشحنة الإخبارية وبمدى التوقع[8].

ولا تختلف الوظائف التركيبية عما تنعته الدراسات النحوية القديمة بالوظائف النحوية. إلا أن مصطلح الوظيفة يقابل مصطلح الطبيعة: فالاسم مثلا له طبيعة في المعجم، وهذه الطبيعة تضاف إليها الوظيفة عندما يرتبط الاسم بسياق تركيبي؛ فإذا أخذنا، مثلا «ندم الولد» كان «الولد» اسما بطبيعته وفاعلا بوظيفته، لكنه عندما يخرج عن السياق يفقد هذه الوظيفة ويحتفظ بطبيعته الاسمية. فالوظيفة هي ما يربطه بالسياق الذي يظهر فيه، وهي التي تميز الكلمة داخل السياق عن الكلمة معزولة عن السياق. وهكذا نرى كيف أن استعمال مصطلح وظيفة مشتق من قيمة عادية جدا، حيث نجد أن «الولد» في المثال السابق يقوم بوظيفة توسيع أو امتداد مباشر؛ فهو عنصر ذو هوية دلالية بالتأكيد، ولكنه يحمل كذلك هوية نحوية مشتقة من السياقات التي يبرز فيها، وهذه السياقات هي التي تمنحه صفة «الاسمية» وليس طبيعة ما يدل

عـــليه. ومن ثم، إنْ نحدِّدْ طبيعة المونيم بأنها ما يتبقى منه عندما نضعه خارج السياق (أي أنها ترتبط بسياقٍ ظهوره)، فإنها تصبح مقابلة للوظيفة[9].

ولـــذا نتجنب الإحالة على «طبيعة» المونيم، ونعوِّضها بالإحالة على انتمائه إلى قسم يـــتميز ببعض الانسجامات compatibilités. ويفضل مارتيني «انسجامات» على «توافقات» combinabilités، لأنـــه بإمكان هذا المصطلح أن يحملنا على الاعتقاد بأن المقصودَ هو إمكان الـــبقاء عـــلى الاتصال. وحين نكون بصدد تحديد العلاقات في الفرنسية -مثلا- بين مونيم التعريف وبين الاسم، فليس هناك فائدة كبرى في أن ننطلق من مثل le livre «الكتاب» حيث يتصـــل المونـــيمان، أو مثل le joli petit livre «الكتاب الجميل الصغير» حيث يفصل بينهما نعتان. وهنا أيضا، ينبغي غض النظر عن الظروف الشكلية، حيث لا تتمتع بالملاءمة[10].

الوظيفـــة إذن في النموذج الوظيفي هي العلاقة القائمة في الجملة بين مونيمين منتميين إلى أقســـام منسجمة متآلفة. وهذه الصياغة تجنبنا الوقوع في التعريف الذي ينظر إلى الوظيفة باعتبارها مميزة لمونيم أو قسم من المونيمات بطريقة دائمة وخارجة عن كل سياق. فليس من المنطقي، كما يقول مارتيني، تحديد المونيم الفعلي، مثلا، باعتباره مونيما يقوم بوظيفة واحدة فقـــط هـــي الوظيفة الإسنادية fonction prédicative[11]، بل ما يجب الإلحاح عليه، متى أردنا تحديـــد المونيم الفعلي، هو القول: إنه لا يقوم سوى بالوظيفة الإسنادية[12]، لأن هذه الوظيفة مُتضمَّنة فيه ولا تنكشف إلا في سياق تركيبي.

والوظيفـــة الـــنحوية علاقة ذات معنى واحد يقوم بين مُحدِّد ومُحدَّد، بين عنصر تابع وعنصـــر مركزي، أو بين امتداد ونواة[13]. ويعتبر كل عنصر من شبكة العلاقات القائمة بين العناصـــر مُمثلا لقسم من أقسام الجرد؛ فالعلاقةُ التي تقوم، مثلا، بين قسم مونيم «التعريف» وقســـم «الأسماء» علاقةُ أو وظيفة تحديدية. والوظائفُ النحوية أشكالٌ متنوعة، فقد ترد على شكل:

- وحدات لغوية لها شكل ومعنى وهويتها قابلة للتحديد مثلها مثل المونيمات،
- موقع خاص لمونيمات توجد بينها علاقة داخل الجملة.

ويمكن توضيح علاقة الترابط بين الأقسام والوظائف من خلال الموجهات الفعلية؛ فهي تتميز بكونها:

أ- نحوية؛ لأنها تنتمي مسبقا إلى جرد محدود من الوحدات،

ب- أحاديـــة الـــنواة؛ إذ لا يمكن أن تكون تابعة إلا لقسم واحد من المونيمات، وفي هذه الحالة، فالمونيمات المنتمية لقسم الأفعال هي التي يمكن أن تكون نواة لهذه الموجهات،

ج - أحاديـــة العلاقـــة؛ إذ لا يمكن لعناصر قائمة الموجهات أن ترتبط إلا بعلاقة واحدة مع النواة التابعة لها،

د - محصـــلة للمسند الفعلي؛ ذلك أن وجود الموجه ليس كافيا فقط، بل ضروريا لتحصيل المسند الفعلي،

هـــ - غـــير قابـــلة للاســـتبدال؛ إذ لا يمكن لمونيمات أخرى أن تدخل معها في علاقات استبدالية،

و - غير قابلة للامتداد؛ فلا يمكن للموجه أن يعرف أي امتداد سواءُ كان الامتداد بالعطف أم بالتبعية[14].

ونشـــير هنا إلى أن وظائف الوحدات ليست ثابتة؛ فقد تؤدي التغيرات الصرفية أحيانا إلى تغـــير الوظائف. فإذا أخذنا جملة كهذه: «هذا رجل جدي» لاحظنا أنَّ العنصرَ «رجل» يقومُ بوظيفة مسند، أي نواة الجملة، ولكنه بمجرد ما يقترن بمونيم التعريف «الـــ» يَفقدُ هذه الوظيفـــة ويقوم بوظيفة مسند إليه (المحدد الضروري للمسند). ويتضح ذلك من المثال السابق الذي يصبح بعد تعريف الوحدة «رجل» هكذا: «هذا الرجل جدي».

نلاحـــظ أنَّ تغيُّـــرَ وظيفة العنصر «رجل»، لتغيُّر شكله، أدَّى في الوقت ذاته إلى تغيير وظيفـــة عنصر مجاور له يلازمه في تكوين الجملة هو «جدي» الذي كان يشغل في المثال (أ) وظيفة امتداد أولي مباشر وأصبح يقوم بوظيفة مسند في المثال (ب).

2- الوظيفة والاختيار

يرتكـــز التقطيع المزدوج على مفهوم الاختيار، حيث يرى مارتيني أن لاختيار المتكلم أهمية أساسية، بمعنى أن المتكلم يختار بشكل خاص ومتميز كل تمفصل من التقطيعين السابقين؛ فهو يختار المونيمات من مجمل مونيمات لغته، ويختار الفونيمات من مجمل أصوات لغته. ويعد الاســـتبدال المبدأ الأساس للتعرف على عملية الاختيار، أي استبدال فئة من المونيمات بفئات أخرى يمكن أن تشغل الموقع ذاته في الجملة على مستوى التقطيع الأول.

سندرسُ الوحدات اللسانية إذن من جانب الوظيفة التي تقوم بها لتحقيق التواصل، أي أنـــنا نأخذ بعين الاعتبار الاختيار الذي يقوم به المتكلم عند كل نقطة من السلسلة الكلامية الحاضرة حقيقة. ويترتب على هذا مايلي:

- يتحدَّدُ وجود كل عنصر من العناصر تلقائيا بالسياق؛ فهو مجرد من الوظيفة، ومع ذلك لا يكوِّن وحده وحدة لغوية،
- ثمة وحدات لغوية في السلسلة الكلامية بمقدار الاختيارات المتميزة،
- يختـــلف عـــدد الوحدات وكذا طبيعة العلاقات في السلسلات الكلامية، مما يثبتُ وجودَ أنظمة مختلفة من موقع لآخر[15]،
- ويمكن للوحدات اللسانية أن تخضع لتغيُّرات بتأثير السياق أو بسبب متطلبات أسلوبية.

3- الوحدات المتميزة والوحدات الدلالية

يلائمُ ما ذكرناه مستوى الفونيمات، أي الوحدات المتميزة، ومستوى المونيمات، أي الوحدات الدلالية، على حد سواء. ويمكن للمونيمات في هذا المستوى الأخير، أن تعرف تعقيدات شكلية[16] مثل الإدماج amalgame[17]، والدال المشترك syncrétisme والدال الصفر signifiant zéro والدال المتقطع signifiant discontinue[18].

الإدماج: قد تكون الدوال اللغوية مختلطة، بمعنى أن الدَّال يكون منطويا على مدلولين (أو أكثر) لا يمكن فصلهما من الناحية الشكلية. ويمكن اعتبار «ـــوا» في «تشاجروا» دالا

مندمجا اختلط فيه مدلولا الجمع والتذكير، ولكن يتعذر علينا تخصيص علامة لكل مدلول، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الموجهات الفعلية modalités اللاصقة بالمركب الفعلي.

الدال المتقطع: قد يتحدد المدلول الواحد في النسق بجزأين (أو أكثر) موجودين في موقعين متباعدين. بمعنى أن يتجزأ الدالُّ إلى جزأين أو عدة أجزاء لتحديد مدلول واحد غير قابل للتجزيء. وبهذا يكون الدال المتقطع على عكس الدال المدمج.

ملاحظة: يختلف مفهوم المونيم المتقطع عن مفهوم المورفيم المتقطع؛ فالأوَّلُ يعني الكلمة التي تتجزأ عندما يتصل بها أو يدمج فيها مُوَجِّهُ حشوي infixe: «نسي» - «ناس». ويَعني الثاني في منظور اللسانيات الوظيفية المونيمَ الذي جُزِّئَ إلى قطعتين أو أكثر ليدل على مدلول واحد غير قابل للتجزيء.

الدال المشترك[19]: ويعني في اللسانيات الوظيفية الدال الذي يتقاسمه مدلولان أو أكثر ويمكنه أن يستقل بمدلول واحد من هذه المدلولات يتحدد من السياق الذي يرد فيه. ومثاله في النسق الفعل في الجهة غير التامة التي يشترك فيها المذكر المفرد والغائب المؤنث المفرد.

الدال الصفر[20]: ويعني به مارتيني غياب علامة شكلية متوقعة حيث تتحدد الوحدات بعضها بالنسبة للبعض الآخر.

والملاحظ ألا توازي بين مستوى الفونيمات ومستوى المونيمات. ولا يعود تعقيد وحدات التقطيع الأول بالنسبة لوحدات التقطيع الثاني إلى كون بعضها له دال مركب من دوال وحدات أخرى، وإنما يعود التعقيد إلى الوظيفة الدلالية للمونيم، التي تختلف بعمق عن الوظيفة المتميزة للفونيم. ويترتب عن هذا الاختلاف أنَّ الفونيمَ يَعرفُ ثباتا في حين يتمتع المونيم بحرية موقعية[21].

4- وظائف المونيمات

يقتضي تعريف اللغة أنَّه يَجبُ على كل تواصل، لكي يكون لسانيا، أنْ يستجيبَ لقيود التقطيع المزدوج والخاصية الصوتية، ومن ثمة يتعين عليه أن يكون خطيا. وتُحلَّل التجربة المتواصَلُ بها لسانيا، على مستوى التقطيع الأول، إلى مونيمات. وتكشف لنا دراسة الصلات

التي تربط هذه المونيمات في أحضان الجملة عن الإمكانات التي تتوفر عليها اللغة البشرية لكي تسم وظيفة المونيمات. وتعرف الوظيفة في النظرية اللسانية المعنية بـــأنها «الواقعة اللغوية التي توازي العلاقة بين أحد عناصر التجربة ومجمل التجربة»[22]. وعددُ هذه الإمكانات ثلاثة:

1- يمكن للوحدة التي تعين عنصر تجربة أن تتضمنَ في معناها علاقة هذا العنصر بمجمل التجربة. و هذه الوحدةُ، التي لا تتعلق الوظيفة بموقعها، تتمتَعُ باستقلال تركيبي، وتدعى المونيمات المستقلة autonomes. كما يمكن لمعنى مجموع العناصر الحاضرة أن يعين وظيفتها،

والمونيماتُ المستقلة وَحدَاتٌ بسيطة قليلة العدد وكثيرة التداول في الخطاب، مثل «اليوم» و «البارحة». ونظرا لما تتمتع به هذه الوحدات من استقلال، فإن احتلالها لأي موقع في الجملة لا يؤثر على معناها، خلافا للوحدات الإسنادية في الفرنسية، مثلا، التي إذا تقدم الاسم على الفعل فيها كانَ فاعلا، وإذا تأخر عنه كان مفعولا:

Pièrre bat Paul

[23] Paul bat Pièrre

2- يُمَكن تعاقب الوحدات في السلسلة من تعيين وظيفتها بواسطة موقعها. لكن تصرفاتها، أي تقدم موقعها أو تأخره، محصورة جدا للتعبير الكامل عن العلاقات المعقدة التي تعرفها عناصر التجربة،

3- ثمة إمكانات أخرى لتعيين الوظيفة. ويتعلق الأمر باستعمال وحدة نوعية لا تشغل بذاتها أي وظيفة، ولكن دورها يكمن في تأمين وظيفة مونيم آخر. وتمنحُ هذه الوحدات، التي تدعى مونيمات وظيفية fonctionnels أو مؤشرات للوظيفة، الاستقلالَ التركيبيَّ للمركبات syntagmes التي تدخل فيها. ومعنى هذا أنه توجد وحدات ترتبط بغيرها. وفي ضوء ذلك الارتباط تتحدد مواقعها وعلاقتها بغيرها، وذلك كارتباط الكلمات في الجملة بالمونيمات الوظيفية (بحروف الإضافة) التي تدخل عليها، نحو: «ذهب مع وفده».

5- تراتبية المونيمات

نُميِّزُ في وظائف الوحدات الدلالية بين الوظائف الأولية والوظائف غير الأولية[24]. فالوظائف الأولية هي وظائف العناصر التي ترتبط مباشرة بالجملة ككل، ولا ترتبط فقط بقطعة واحدة. ويسمح هذا التمييز بتقسيم المونيمات التابعة إلى مجموعتيـــــن: المونيماتُ المعمولة régis وهي التي يمكنها أن تعرف وظيفة أولية، ثمّ المحددات déterminents وهي المونيمات التي لا تقوم سوى بوظائف غير أولية.

بمجرَّد ما نحصُلُ على تراتبية المونيمات القائمة على درجة استقلالها التركيبي نعمَلُ على إعداد أقسام المونيمات، فنبحث أوَّلا عما إذا كانت كل الوحدات المعجمية قابلة للقيام بالإسناد أو ثمة وحدات معجمية متخصصة في الاستعمال الإسنادي، ثمّ نصنف هذه الوحدات في قسم نسميه قسم الأفعال. وإذا كانت هناك عناصر معجمية أخرى يمكنها أن تقوم بالإسناد أيضا، فإننا نميزها عن الأفعال بسبب تعدد وظائفها. وبالنظر إلى تصرفاتها التآلفية مع الموجهات، فإننا نلاحظ أنّ الأفعالَ تتآلف مع موجهات «الجهة» aspect و«الزمن» temps، الخ. بينما تتآلف الأسماء مع موجهات «العدد» و«الملكية»، الخ.

المصادر والمراجع:

MARTINET André, (1968), *La linguistique synchronique*, P. U. F., Paris.

MARTINET André, (1968), «Neutralisation et syncrétisme, *La linguistique*, 4, I, p. 1-20.

MARTINET André, (1969) « Analyse linguistique et présentation des langues», *Annali de la facolta di Magistero de l' Universita di Palermo*, p. 143-158.

MARTINET André, (1969), *Le français sans fard*, P.U.F, Paris.

MARTINET André, (1969), (sous la direction de), *La linguistique, guide alphabétique*, Gonthier-Denoel, Paris.

MARTINET André, (1970), *Eléments de linguistique générale,* Armond Colin, Paris.

MARTINET André, (1971), *Langue et fonction*, Gonthier, Paris.

MARTINET André, (1972), (sous la direction de), *De la théorie linguistique à l'enseignement des langues*, P. U. F, Paris.

MARTINET André, (1973), Convention pour une visialisation des rapports syntaxiques, La linguistique, 9/1.

MARTINET André, (1975), *Evolution des langues et reconstruction*, P. U. F., Paris.

MARTINET André, (1977), «Les fonctions grammaticales», *La linguistique*, Volume 13, Fascicule 2, , p. 3-14.

MARTINET André, (sous la direction), (1979), *Grammaire fonctionnelle du francais*, Didier, Paris.

MAHMOUDIAN Mortéza, «Du rôle de la position dans l'indication des rapports syntaxiques», *la linguistique*, Volume 9, Fasc. 1, 1973, p. 17-40.

الهوامش:

---

[1] - André MARTINEt, *Syntaxe générale*, p. 16.

[2] – انظر:

Jules MAROUZEAU, *Lexique de la terminologie linguistique*, 3è éd., Geuthner, Paris 1969, p. 122.

[3] - André MARTINET, et E. WALTER, *La linguistique, Guide alphabétique*, Paris, 1969, p. 18.

[4] – معنى هذا أن التركيب هو دراسة الوظائف. راجع:

André MARTINET, *Eléments de linguistique générale*, p. 209.

Colette FEUILLARD, «La syntaxe fonctionnelle», *La linguistique*, Vol. 21, 1985, p. 185-206.

[5] - André MARTINET, *Grammaire fonctionnelle du français*, 153.

[6] – للمزيد من التوضيح انظر:

J. C. MILNER, *Ordre et raison du langage*, Editions du Seuil, Paris 1982, p. 146.

[7] - André MARTINET, *Eléments de linguistique générale*, p. 32-33.

[8] – وسع مارتيني مفهوم الوظيفة في هذا المجال فأصبح مثالا لاعتبارات تتصل بوظيفة اللغة ذاتها كأداة من أدوات التواصل والتخاطب.

[9] – انظر:

André MARTINET, *Syntaxe générale*, p. 171.

[10] - André MARTINET, *Fonction et dynamique des langues*, Armon Colin, Paris 1989, p. 59.

[11] - André MARTINET, «Les fonctions grammaticales», *La linguistique*, Volume 13, Fascicule 2, 1977, p. 3-14.

[12] – لقد قاد مفهوم الوظيفة، باعتباره حدثا لسانيا يطابق العلاقة بين عنصر التجربة والتجربة إجمالا، بعض الباحثين إلى الحديث عن «الوظيفة الاسنادية». إلا أن مارتيني في كتاباته المتقدمة، يؤكد الخاصية المستقلة للمسند. فلا يرتبط هذا الأخير بأي علاقة بالجملة، بل إن المكونات الأخرى للجملة هي التي تقيم كل أنواع العلاقات مع المسند، مباشرة كانت أو غير مباشرة. وفي هذه الحالة من الأجدر الحديث عن دور المسند عوض وظيفة المسند.

[13] - Mortéza MAHMOUDIAN, «Du rôle de la position dans l'indication des rapports syntaxiques», *la linguistique*, Volume 9, Fasc. 1, 1973, p. 17-40.

[14] - André MARTINET, «Les fonctions grammaticales», *La linguistique*, Volume 13, Fasc. 2, 1977, p. 3-15.

[15] - André MARTINET, *La linguistique synchronique*, p. 31.

[16] – في النموذج الوظيفي الذي نعمل في إطاره يحدد الصرف بأنه مجال دراسة التغيرات الشكلية. انظر: فنان أمينة، ««مفهوم الصرف في النظرية الوظيفية»، وهو قيد النشر).

[17] - André MARTINET, *Elément de linguistique*, § 4-2, Mortéza MAHMOUDIAN, *Les modalités nominales en français*, Presses Universitaires de France, SUP, Paris 1970, p. 12.

[18] – قد يحصل أحيانا اختلاط بين دالين لمدلولين وردا في جملة واحدة لدرجة يستعصى معها التقطيع، نتيجة هذا الاختلاط، إلى قطع متعاقبة مثل à في اللغة الفرنسية.

[19] - André MARTINET, *Eléments de linguistique générale*, p. c 6.

[20] – *المرجع السابق*، ص. 104.

[21] – *المرجع السابق*، ص. 8-4.

[22] – المرجع السابق، ص. 12-4.

[23] – *المرجع السابق*، ص. 11-10-4.

[24] - André MARTINET, *Eléments de linguistique générale*, § 4-18.

النحت:([1])

إشكالات نظرية واقتراحات تحليلية

ذ. عبد الإله الإسماعيلي

كلية الآداب ـــ مكناس

ملخص:

من بين المشاكل التي تتخبط فيها اللغة العربية كونها لم تحظ بمعالجة البناءات الممكنة، بخصوص التعالقات المفترض وجودها بين مختلف مفرداتها أو بناها، بمعنى أنه لم يتحمس اللغويون الاقرار بوجود بنية منحوتة ضمن مباحث الصرف العربي وهو في حاجة إلى دارسة من مستويات عدة: صرافية ـــ تركيبية ـــ دلالية ـــ صواتية.

والمقالة الحالية تحاول إلقاء الضوء على مفهوم النحت كما تصوره القدماء والمحدثون مع طرح الاشكالات النظرية التي قد نلجأ إليها عند صياغة قاعدة في النحت مع اقتراح تحليل لبنية المنحوت المعقدة.

*****

1- تعرف كتب اللغة النحت: بأن تعمد إلى كلمتين أو أكثر فتقتطع من اثنتين منهما حرفا أو حرفين أو ثلاثة وتبني من هذه الحروف التي اقتطعتها كلمة جديدة تقوم مقام العبارة التي أخذت منها الحروف، فتسمى هذه الكلمة "منحوتة". ([2])

يضرب الخليل بن أحمد الفراهيدي ([3]) في معجمه "العين" مثلا على ذلك هو "عبشمي" وردت هذه الكلمة في قصيدة مشهورة لعبد يغوث، وهو من شعراء المفضليات، قالها بعدما أسرته تيم الرباب يوم الكلاب الثاني، وذلك قبل أن يقتل والبيت هو:

وتضحك مني شيخة عـــبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

فالعبشمي والعبشمية نسبة إلى عبد شمس، نحتت هذه الكلمة بأخذ العين والباء من عبد والشين والميم من شمس، فبني من هاتين الكلمتين كلمة واحدة، والياء في آخر الكلمة هي ياء النسب. فهذا من النحت. وقد وردت في الشعر الجاهلي وفي صدر الاسلام كلمات منحوتة

كهذه في أنساب القبائل مثل عبدري (من عبد الدار) وعبقسي (من عبد القيس) وتيملي (من تيم الله) وغيرها.

وولدت في صدر الاسلام مصطلحات نحتية مثل: هيلل هيللة وهلل تهليلا (قال لا إله إلا الله) وحمدل (قال الحمد لله) وحوقل (قال لا حول ولا قوة إلا بالله) وبسمل (من بسم الله)، ... إلخ.

فقد ورد لعمر بن أبي ربيعة هذا البيت:

لقد بسملت ليلى غـــداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

وقال آخر:

ألا رب طيف منك بات معانقي إلى أن دعا داعي الصباح فحيعلا

وأنشد الخليل:

أقول لها ودمع العين جار ألم تحزنك حيعلة المنادي

وقال ابن حجاج:

لكنني كنت في محل مدمعزا عندها مطلبق

أي قال لي أدام الله عزك وأطال بقاءك.

ويورد السيوطي في المزهر أمثلة متعددة للنحت، منها ما ينقله عن بعض الاعراب: "معي عشرة فأحّدهن لي، أي صيّرهن أحد عشر ([4])"وقال نقلا عن ياقوت في معجم الأدباء: سأل الشيخ أبو الفتح عثمان بن عيسى الملطي النحوي الظهير الفارسي عما وقع في ألفاظ العرب على مثال "شقحطب"، فقال هذا يسمى في كلام العرب المنحوت ومعناه أن الكلمة منحوتة من كلمتين كما ينحت النجار خشبتين ويجعلهما واحدة، فشقحطب منحوت من "شق حطب" فسأله الملطي أن يثبت له ما وقع من هذا المثال إليه ليعول في معرفتها عليه فأملاها عليه في نحو عشرين ورقة من حفظه وسماها "كتاب تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب" وهو كتاب مفقود.

ونحت علماء الفقه الاسلامي كلمات تهم علومهم مثل شفعنتي وحنفلتي، وهناك اختلاف في ضبطهما. فقد قيل إن المصطلح الأول يعني النسبة إلى أبي حنيفة والمعتزلة معا،

وقيل أيضا أن الأول يعني النسبة إلى الشافعي وحده والثاني النسبة إلى أبي حنيفة وحده. واقترح مصطفى صادق الرافعي أن يقال شفحني أو حنشفي على وزن عبشمي. (انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق الجزء الأول والثاني: المجلد:(57).

فليس ثمة إحصاء لجميع الكلمات المنحوتة، إلا أنه يمكن ضبط جانب منها من خلال معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس الذي تعامل مع مفردات اللغة تعاملا خاصا حيث انتقل في صوغ مفردات المنحوت، من الثلاثي إلى الرباعي والخماسي، حتى أن علماء اللغة اعتقدوا أن "النحت" عمل عملا مهما في تكوين اللغة، فأوجد معظم الأفعال الرباعية والخماسية إن لم نقل كلها.

وسيكون من المنطقي إذن استغلال هذه الظاهرة في لغتنا العربية، التي تعد أعرق اللغات العالمية، وأقدرها على الإطلاق، والتي لولا توقف عجلة "فن المعجمة" وانغلاق اللغة العربية وعدم مسايرتها على مستوى صوغ ألفاظ جديدة، للأبحاث التاريخية والوقائع الحضارية والمستجدات اليومية. ولولا ذلك، لما لاحظنا هذا التدفق الهائل للمصطلحات العلمية الجديدة كل يوم من الدول الصناعية، والعسر البين الذي تجابهه اللغة العربية في استيعابها.

وعلى هذا الأساس ينبغي استخدام النحت لمسايرة هذا التدفق، إلا أن هذا الأمر لا يخلو من مشاكل على مستوى وضع المصطلح وصياغته وتعريبه والابتعاد عن بعض المشكلات اللغوية مثل المشترك اللفظي وغيره.

وعليه ينبغي استعمال المصطلح العلمي بدقة والحرص على دلالة مفهومه، حتى لا يؤدي ذلك إلى اختلاف الاستعمال وتعدده.

2- ولقد رأيت من المفيد أن أعرض لجهود القدماء في النحت قبل الانتقال إلى اقتراح تحليل يتلاءم وبنيته المعقدة.

فلقد ورد في كتاب "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهم" تصنيف ابن فارس ما يأتي: "العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار، وذلك كقولهم "رجل عبشمي" منسوب إلى اسمين. وأنشد "الخليل":

أقول لها ودمع العين جار ألم تحزنك حيعلة المنادي

من قوله "حي على". وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد "ضبطر" من "ضبط" و"ضبر" وفي قولهم "صهصلق" أنه من "صهل" و"صلق"، وفي "الصلدم" أنه من "الصلد" و"الصدم"... وقد ذكرنا ذلك في كتاب "مقاييس اللغة" (الصاحبي؛ ص: 227).

تكلم في النحت عدد كبير من علماء اللغة الأقدمين أولهم الخليل في معجمه العين فقال إن العرب تلجأ للنحت إذا كثر استعمالهم للكلمتين ضموا بعض حروف إحداهما إلى بعض حروف الأخرى.

وتكلم كذلك سيبويه في كتابه،

وابن فارس في المجمل، والصاحبي كما سبق، ومقاييس اللغة،

وذكره ابن السكيت في إصلاح المنطق،

والتبريزي في تهذيبه،

والثعالبي في فقه اللغة،

والجوهري في الصحاح،

وابن مالك في التسهيل، وهو الذي وضع أول قاعدة في النحت، مبينا الطريقة التي نسلكها لبناء "فعلل" من جزئي مركب، ([5])

وابن دحية في التنوير،

وأبو حيان في شرحه،

والسيوطي في المزهر. وقد لخص كعادته أقوال أكثر من تقدم من العلماء، وقال إن "معرفة النحت من اللوازم" ([6]).

3- وإذا كان عمل القدماء قد ارتكز في مجمله، على نسخ صور من المنحوتات، حتى عد النحت مفهوما هامشيا في نظر من جاء بعدهم، فإن عمل من حاول إحياء هذا المفهوم من المحدثين قد اقتصر تقسيمه على الخصوص، إلى أربعة أقسام، اتفق عليها كل من كتب عن هذه الظاهرة أو أشار إليها؛ وهذه الأقسام هي: النحت النسبي، والنحت الفعلي، والنحت الإسمي، والنحت الوصفي.

أ- **النحت الإسمي**: ويتم انطلاقا من كلمتين، وهو قليل مثل: "جلمود" من "جلد" و"جمد". وأكثر الدارسين، حين تناولهم لهذا القسم، غالبا ما يوردون أسماء مثلّ: "حبقر" من "حب" و"قر"، و"شقحطب" من "شق" و"حطب". إلا أن المثالين، كما نلاحظ، أقرب إلى المركب المزجي منه إلى النحت.

ب- **النحت الفعلي**: فمن المميزات التي امتازت بها المنحوتات القديمة، كونها وضعت أو اتخذت للأفعال وليس للأسماء، كما أن هذه المنحوتات الفعلية، مصدرها "جملي"، وهذه الجمل معلومة الشهرة والتداول، وترددت كثيرا في النصوص الأدبية والفقهية والشعرية، منها: البسملة، والحسبلة، والحوقلة، والدمغرة، ... إلخ.

طبعا مجرد "عادة الوضع"؛ كما أسميها؛ هي التي جعلت القدماء يقولون مثلا: بسمل زيد "فعلا"، وليس: "اعتاد زيد البسملة" أو "مارس زيد البسملة"، ... إلخ، مصدرا. وهذا الصنف من النحت يسمى عند البعض بـــ "النحت الأصولي".

ج- **النحت الوصفي**: نسبة إلى الصفة، وهو مرتبط بالدلالة، بمعنى: دلالة المنحوت انطلاقا من المنحوت منه، والتي تحدد كون المنحوت صفة وليس إسما أو فعلا. وهذا الوضع لابد له أن يتقيد بالمعنى في صياغة المنحوت، والسبب في ذلك واضح: هو أن الصفة لا يمكن أن تتضح معالمها، أو تكتمل صورتها، أو تكون صفة من أصل الوضع، إذا كان المنحوت منه لا يؤدي أو يسير في رسم صورة موحدة يتصف بها الأصلان.

وعلى هذا الأساس يكون النحت الوصفي، من أصعب أنواع النحت وأقسامه، لأنه يسمو إلى مستوى رفيع في اللجوء إلى النحت. وهذا الارتباط بالمعنى هو الذي أدى بأصحاب المجامع اللغوية، في نظري، إلى الحكم عليه ب "نلجأ إلى النحت عندما تدعو الضرورة العلمية".

وهذا قول ينفي المعنى، لكون المصطلحات العلمية المركبة على هيئة نحت، لا يشترط في نحتها الاتحاد أو الارتباط بالمعنى، لكونها مصطلحات المراد من نحتها الإفراط في الطول فقط، مع الاحتفاظ بملامح الكلمتين المنحوت منهما. والإفراط في الطول قد يحث حتى

المتكلم، على التساؤل عن المعنى بقدر ما يعـــوزه أن يتساءل عن الأجزاء المكونة لتلك الكلمة([7]).

د- **النحت النسبي**: فمن المعلوم أن النسبة إلى المركب الإضافي، تنسحب على جزئه الأول لا الثاني، وهو القياس "إذا كان المضاف ، والمضاف إليه معروف بنفسه، كابن الزبير وابن عباس" "انظر شرح شافية ابن الحاجب، ج: 2، ص: 75".

فتقول في النسبة إلى أبي بكر وابن عباس:

- بكري.
- عباسي.

إلا أن هناك نوعا ثالثا ينسحب الحذف فيه على جزئه الثاني لا الأول، وهو عكس ما تقدم "إذا كان المضاف إليه غير معروف" ومن أمثلة هذا النوع عبد القيس امرؤ القيس وغيرهما، فإن النسب إليهما يكون على هذا الشكل:

- امرئي.
- عبدي.

نلاحظ أن ثمة لبسا في "عبدي"، على الخصوص، لأن التقدير مفقود المعالم، فهل هو "عبد القيس"، "عبد الأشهل"، "عبد منان"، "عبد العزى"، أو "عبد شمس"، ... إلخ، لذا فجميع الأمثلة التي تتضمن "عبد" لا يمكن تحقيق النسبة عليها وحدها. هذا اللبس، خلق نوعا من الحيرة لذا اللغويين لأنهم إذا نسبوا إلى جزئي المركب حدث ما يسعون إلى تجنبه وهو الاستثقال فلجؤوا إلى النحت: "وقد جاء شاذا مسموعا في "عبد" مضافا إلى اسم آخر أن يركب من حروف المضاف والمضاف إليه اسم على "فعلل" بأن يؤخذ من كل واحد منهما الفاء والعين، نحو "عبشي" في "عبد شمس"، وإن كان عين الثاني معتلا كمل البناء بلامه نحو: "عبقسي" و"عبدري" في "عبد القيس" و"عبد الدار"، وجاء "مرقسي" في امرئ القيس" (...) والعذر في هذا التركيب مع شذوذه أنهم إن نسبوا إلى المضاف بدون المضاف إليه التبس، وإن نسبوا إلى المضاف إليه ونسبوا إلى ما لا يقوم مقام المضاف لا يطلق اسمه عليه مجازا" (انظر شرح الشافية، ج: 2، ص: 76).

ومن الذين كتبوا في موضوع النحت من المحدثين والمعاصرين: بروكلمان والأب انستاس الكرملي وجرجي زيدان ومحمد الخضر حسين ومصطفى صادق الرافعي وعبد القادر المغربي وساطع الحصري ومصطفى جواد ومصطفى الشهابي وصلاح الكواكبي ورمسيس جرجس وعبد الله أمين ووجيه السمان وعبد الله العلايلي وإبراهيم أنيس وإسماعيل مظهر وصبحي الصالح ومحمد المبارك وعلي عبد الواحد وافي ورمضان عبد الثواب ومحمود أحمد عمر النشوي وكيفورك مينا جيان وسليم النعيمي ومحمد ضاري حمادي، وغيرهم.

4- أنتقل بعد هذا التقديم إلى مناقشة بعض القضايا وإشكالات التعدد النظري التي يطرحها موضوع النحت بالأساس وعلاقته بطرق النماء اللغوي، إلى جانب ما يطرحه المصطلح اللساني على الخصوص من إيجابيات وسلبيات، في طريقه نحو الاكتمال.

أ- يعتبر النحت، كما أشرنا، من وسائل التوسع والتوسيع في اللغة، وقد نسوغه للإستفادة منه لتكوين المصطلحات العلمية([8]) عند الضرورة: إذا كانت التراكيب قصيرة وسهلة، نتركها على حالها، أما إذا كانت طويلة صعبة، فمن مصلحة العلم واللغة أن ننحتها، لأجل تسهيل استعمالها وانتشارها. فما هي القواعد التي يمكن صياغتها أو تكوينها للتعامل مع تراكيب العلم، وصوغ مصطلحات علمية منحوتة ذات مقبولية وذوق سليم؟ هل نوع أو نمط القواعد المستعملة ذات طابع صواتي "Phonologique"، أصواتي "Phonétique"، أو صرافي "Morphologique"؟ أو أن مجموع هذه الحقول تتلاقح جميعها وتتضافر لصوغ قاعدة في النحت؟.

ب- ما هي الإمكانات ـــ إمكانات اللغة ـــ للتعبير عن العلوم والفنون بألفظ عربية موجزة؟ هل هذه الإمكانات ينسحب جزء منها على صياغة منحوت بين كلمتين دون إحداث أي تغيير كان؟ بمعنى آخر هل يمكن صوغ منحوتات على هيئة تراكيب؟ إذا كان الأمر كذلك، فما هي جملة القيود والسمات المميزة التي يمكن اعتبارها عند هذا التمييز؟.

ج- اعتبر كثير من اللغويين النحت ظاهرة غير قياسية في اللغة، وما صياغة منحوتات كالتي أوجدها القدماء لامتناع اشتقاق كلمة من كلمين في أقيسة التصريف، إلا أن هذا ليس

رأي كل اللغويين والعلماء. السؤال المطروح هو: **ما حد القياس والسماع في النحت عند فقهاء اللغة؟**.

د- هل يجوز الجمع بين النحت والتعريب في كلمة واحدة منحوتة، أم أن هناك عائق لغوي، صرافي، معجمي، ... إلخ؟.

فقد تقتضي الكيمياء ذلك حيث نـــقول في المركب(9): "Aldéhyde": "غو لـــ يد" وفي "Alcool-éther": "غوليثر"، وننحت من المعرب فنقول: "غوليداز" لـــ "Aldéhydase". (انظر "وجيه السمان"، النحت، مجلة مجمع اللغة بدمشق الجزء الأول المجلد: 57).

ر- تقول العرب: "بلعنبر"، و"بنو العنبر". وكذلك يفعلون فيما فيه ألف ولام، إذا لم يكن ثم إدغام، فيقولون: بلعجلان، وبَلْحَرْث بن كعب.

فإن كانت لام التعريف مدغمة، مثل، النّمري، ونحوه لم يحذفوا النون من: بني.

وبيان ذلك: أنهم يريدون: بني العنبر، فيحذفون الياء، لسكونها وسكون اللام، ثم من بعدها يحذفون النون لأمرين: أحدهما كثرة الاستعمال، والآخر مشابهة النون باللام، فتحذف كما يحذف أحد المثلين في نحو: "حسْت" و"ظلت" التي أصلهما: "ظَلِلْت" و"حَسَسْتُ".

والدليل على أن المراد في قولهم: بلعنبر أن التنوين لا يصحب كسرة الراء في: بلعنبر. وإنما حذفت النون من "بني"، لاجتماعهما مع اللام من "العنبر"، لتقاربهما في المخرج، وذلك لأنه لما تعذر الادغام فيه، حصل الحذف، بدلا من الادغام، وإنما تعذر الادغام، لأن الأول متحرك، والثاني ساكن سكونا لازما. وشرط المدغم تحريك الثاني إذا أدغم الأول فيه، والثاني هاهنا حرف التعريف، وسكونه لازم. فجعل الحذف بدلا من الإدغام، لما تعذر، لكونه مؤديا إلى التخفيف المطلوب.

والحذف مبدأ منتشر بوفرة في كتب اللغة والنحو، استطاع القدماء استنباطه من القرآن الكريم، ومن الكلام العربي الفصيح نظمه ونثره، وذلك بفضل قدراتهم اللغوية، وتمكنهم من امتلاك أسرار هذه اللغة التي اشتهرت بأساليب وطرق في التعبير والاتصال، قليلا ما تجده في لغات أخرى. وهذا منبثق من غريزة الإنسان العربي ومزاجه، الذي كان بروح السليقة والفصاحة.

السؤال هو: **هل "المنحوت" لا يستقيم إلا إذا خضع لمبدأ الحذف؟** إذا كان الجواب بنعم، فما هي خصائص هذا الحذف؟ وكيف يتم؟ وما هي الصوتات التي ينسحب عليها الحذف في جزئي المركب المنحوت؟.

ز- إن البحث عن التحليل الملائم من منظور النظرية الملائمة كذلك هو شيء ليس بالمستحيل في تناول بنية من قبيل بنية النحت. خصوصا مع التطور الذي حصل في تناول بنية الكلمة في السنين الأخيرة ـــ إلى جانب ما يمكن استنباطه من مظان الفكر العربي من أفكار تساعد على بناء نظرية عربية بخصوص بنية الكلمة عموما وبنية النحت على الخصوص ـــ من علماء عرب وأجانب.

فكيف يمكن استغلال مجهودات وأعمال هؤلاء في صياغة نظرية متكاملة في النحت؟

هـ- إذا كان المعجم لائحة من المفردات والقواعد الدلالية التي تمنح تلك المفردات معاني جديدة. فإن النحت داخل هذا المعجم، قد يشكل الطبقة الأكثر تعبيرا وإفرازا للمعاني الجديدة المتكاملة. فما هي القواعد الدلالية التي تجسد تلك المعاني؟ وكيف يتم صوغ مداخل معجمية للمنحوت داخل معجم يضم مداخل معجمية لحقول دلالية أخرى؟.

فطبيعة المنحوت مزدوجة، بمعنى أنها مكونة من أصلين وليس من أصل واحد، وهي غير متشابهة إلى حد المشترك اللفظي، وإنما هناك تماثل على مستوى الصامت أو الصامتين كما في:

- [ع.ش.ز.] + [ش.ز.ن] ← [ع.ش.ز.ن].

عشز + شزن ← عشزن([10]).

- [ش.م.ذ] + [ش.م.ر] ← [ش.م.ذ.ر].

شمذ + شمر ← شمذر([11]).

اختيار أمثلة من هذا النوع هو لأجل النظر في العلاقة الدلالـــية التي تكونها حيث الإسم يكمل الفعل أو العكـــس على مستوى المعنى. فهل المنحوتات تقوم بنفس الدور، أم أنها تختار لفظا جامعا لما يحويه المنحـــوت منـــه، مما يعبر عنه التوليديون "بالإبداعية" "La créativité"؟.

وإذا تحقق هذا النوع نستطيع القول إن النحت تأليفي على المستوى الدلالي.

و- لقد عرف "بيير داكو" اللاشعور بقوله: "يعتبر الفرد في حالة اللاشعور (اللاشعور هنا صفة) إذا كان لا يعرف شيئا عن أفعاله النفسية والفيزيائية. وتعتبر هذه الحالة مؤقتة عند الإنسان العادي، **حيث إن معظم الوقائع اللاشعورية يمكن أن تصبح شعورية أولا بأول، حسب الاحتياجات.**

ندرك، من خلال هذا التعريف، أن بإمكان الإنسان العادي غير المريض أن يعيش حالة لاشعورية مؤقتة، تفضي به للقيام بشيء، تتضح معالمه فيما بعد، حينما يعود لحالته الشعورية الطبيعية.

وإذا آمنا بأنه من المؤكد أن جهلنا بالوقائع الفيزيولوجية والنفسية الملائمة هو الذي يسمح بالاعتقاد الشائع أنه لا توجد أية بنية قبلية، أو توجد بنية قبلية ضئيلة، تسبق نسق "المفاهيم التي يمكننا الوصول إليها"، (انظر تشومسكي، 1971، ص: 121)، فإن هذا يسمح لنا بالتعامل مع بنيات من قبل البنيات النحتية، التي تكون ناتجة، في هذه المقاربة، عن حالة نفسية معينة([12]).

فلقد أكد "هوكيت" (1967)، الذي أخذ الفكرة من "فرويد"، صاحب نظرية التحليل النفسي، أن الحالة النفسية "تمنع المتكلم الادلاء بمفردتين متشابهتين في المعنى في نفس الوقت، حيث إن سرعة الخطاب، تستوجب انتقاء أصل ورفض آخر على أن ضغط متابعة الكلام يؤدي بالمتكلم إلى محاولة التلفظ بالأصلين معا في نفس الوقت (...) هذا التفسير، يجعل من السهل إدراك كيف أن التراكب (Overlap) يصاحب التنقص (Réduction). (انظر "كانون"، 1986، ص: 733).

يبدو أن صاحب النص كان ينوي شرح ما يسمى في الأدبيات التقليدية ب " Contamination": وهي من ضمن الاصطلاحات المتعددة التي أدرجها كانون في مقالته عن "النحت في اللغة الانجليزية"، للتعبير عما يسمى "نحتا".

نلمس إذا أن النفس البشرية، **تحمل سلوكات عدة لا حصر لها قد يصعب تفسيرها أحيانا، مما يصعب معه ترجمة الحالة، على الأقل الإنفعالية التي من خلالها تبرز إلى الوجود**

مفردات من قبيل المفردات المنحوتة، تبقى العلاقة التي تربط مثل تلك المفردات بالمعنى([13]) الذي تدل عليه. فما هي طبيعة ذلك المعنى؟ وكيف يمكن إثبات دور الحالة النفسية في تحديد المعنى؟ وهل هناك انتقال للمعنى، بنفس الصورة، من اللاشعور إلى الشعور؟([14]).

ي- ترتبط الصوامت بعضها ببعض، فيتولد عن ذلك الارتباط عدة مقاطع، جذور، جذوع، كلمات، ثم جمل، بل في النهاية: دلالات متعددة. والارتباط الصامتي مظهر يأخذ مشروعيته في النحت أو عند النحت، لأن ارتباط البنية "أ" بالبنية "ب" لتكوين منحوت "ج"، يوحي بقيمة الارتباط، لأنه حينئذ يكسب البنية "ج" روحا جديدة"، تطرح عدة أسئلة منها: لماذا وقع استقرار البنية "ج" على هذا الصامت أو ذلك من البنيتين "أ" و"ب"؟ هل البنية "ج" تتحدد انطلاقا من ارتباط صامتين من "أ" و"ب"، بمعنى ارتباط آخر صامت من "أ" بأول صامت من "ب"؟.

للإجابة عن السؤال الثاني نقول: إن أساس ذلك الارتباط أو الالتحام هو جعل بنية المنحوت بنية واحدة، تبدأ من نقطة وتنتهي في أخرى. إلا أن الاحتفاظ على ملامح البنيتين قد يجعلنا نفكر في إقامة حدود خاصة لبنية المنحوت منه، مع افتراض كون البنية المعرضة للنحت يجب أن يكون لها طرفان ونهايتان([7]).

يتطلب تحديد أطراف البنى المنحوت منها ونهايتها اللجوء إلى قوالب ومبادئ التحاليل الصرافية العربية وغير العربية، للاستفادة منها في الكيفية التي تعالج بها بنية الكلمة عموما حتى يتسنى لنا اقتراح "نظرية نحتية" تحاول الإجابة عن مجموع الأسئلة المطروحة من خلال هذا المقال، وأسئلة أخرى غيرها. ولأجل تحقيق هذا المطمح، أرى من المفيد أن ترتكز هذه النظرية على المبادئ التالية:

أ- لا يمكن استعمال المواد الملاحظة، خصوصا المعجمية منها والتي يهيئها الصرافي لتكوين نظريته، قلت لا يمكن استعمالها كما هي، بل يجب تصفيتها وإعادة بنائها.

ب- يجب استعمال الحدس في بناء أو تقعيد المعجم بحذر شديد، مهما تكن براعتنا بالمعجم أو المعجمات على أنواعها وقدرتنا النحتية بداخلها.

ويمكن بعد هذا صياغة تحليل يتناسب وبنية المنحوت المغبونة على النحو التالي:

1- طرفا البنية ونهايتها:

هناك أربع حالات في النحت يمكن صياغتها كما يلي:

1- س م.س.س ن س م.س.س ن.

2- س م.س.س ن س م.س ن.س.

3- س.س م.س ن س.س م.س ن.

4- س.س م.س ن س م.س ن.س.

حيث ترصد كل من "م" و"ن" التماثل الحاصل على البنية المنحوت منها، بينما "س" عبارة عن متغير يشير إلى الساكن. ويمكن التمثيل للحالات الأربع أعلاه على التوالي كما يلي:

←	→
5- ب م.ر.د ن	ب م.جـــ.د([8])
←	→
6- ب م.ل.هـــ ن	ب م.هـــ ن.س([9])
←	→
7- ب.خ م.ص ن	ل.خ م.ص ن([10])
←	→
8- ج.ل م.ح ن	ل م.ح ن.ب([11])

نلاحظ أن الأسهم صوب البنيات تعتبر حدودا، على غرار المعقوفات التي توضع الجذور بداخلها.

كما أن البنيات الأربعة يمكن تقليصها إلى بنيتين اثنتين، انطلاقا من وضع التماثل، وهذا أمر مرتبط بالمنحوت من جهة، ومن جهة أخرى بمدى الاقتطاع الذي يعمل على تسوية البنية وتهذيبها:

←	→
9- ب م.ر.د ن	ب م.ج.د ن

← →

10- ب.خم.صن ل.خم.صن

حيث المثالان (6) و(8) يلحقان مباشرة بالمثال (5)، وعليه فإن هناك حالتين فقط من البنيات المنحوت منها:

← →

11- سم1.س2.سن3 سم4.س5.سن6

← →

12- س1.سم2.سن 3 س4.سم5.سن6

حيث تشكل سم1 وسن6 في (11) طرفي البنية، بينما سن3 وسم4 نهايتها. أما (12) فما دامت سم2 قريبة من الطرف، واحتمال بترها أقوى من احتمال بتر الطرف أي س1، فإننا نعتبر أن س1 وسن6 هما طرفي البنية (12) بينما سن3 نهايتها الأولى، أما نهايتها الثانية فيصدق عليها مثل ما صدق على الطرف الأول، حيث إن سم5 قريب من النهاية التي في س4 مما نفترض سحب تحليل الطرف عليه، فيكون هو النهاية الثانية([12]).

قاعدة في النحت:

إن ترك بصمات واضحة، دليل على وجود بنيتين مستقلتين، تتمشيان مع روح اللغة العربية، في الحفاظ على استقلالية مشروطة لبناء منحوت سليم. وكل هذا جعلنا نفكر إقامة حدود خاصة تسم النهايتين بشكل واضح.

لذا، وحتى نكون أمام وضع بنيوي يسمح بصياغة منحوت سليم. ونتمكن من خلاله لمس، وعن قريب، التماثل المرسوم، ثم النهاية الثانية، والتي افترضنا أن تكون أول صامت من البنية الثانية الاصل للمنحوت منه، نعيد صياغة البنيتين على النحو التالي:

←

13- س س س

→

س س س

من الملاحظ أن الوضع الجديد المتمثل في (13)، يسمح لمس الاستقلالية المشروطة لبناء المنحوت، حيث "س" صامت متغير، بينما "← →" يدلان على الاتجاه الحدودي المشار اليه أعلاه.

إذا عينا في (13) التماثل الممركز على مسافة بعيدة([13]) نصبح بصدد ترسيمتين طبقا ل (14)، و(15):

←

(14) سم س سن

→

سم س سن

←

(15) س سم سن

→

س سم سن

وتطبيقا لقانون اللغة العربية الذي يرفظ التماثل في البنية الواحدة، اعتبارا ان التماثل هنا هو على مسافة بعيدة، نظرا لبنية المنحوت المكونة من أصلين لا اصل واحد، فإننا سنقوم فورا بحذف التماثل وفقا للشروط المبينة أعلاه[14].

←

(16) سم س سن

→

سم س سن

حيث يشير الخطان المتقاطعان المنحرفان الى بتر سن و سم من البنية (16)، فيكون حاصل البينة (17):

←

(17) س م س

→

س س ن

هذا بالنسبة ل (14) أما (15)، حيث التماثل يقع على الصامتين الأخيرين من الاصلين بانتظام، فإن الاقتطاع سيلاحق الصامتين الاولين، وهذا يعزز عدم الاقتطاع من الطرفين، وهكذا نحصل على البينة (18) التالية:

←

(18) س س م س ن

→

س س م س ن

التي هي في الاخير:

←

(19) س

→

س س م س ن

أما إذا اعتمدنا تحليلا تنضيديا يراعى فيه اقحام الحركات على الجذور فإننا سنحصل على بنيات من قبيل:

(20) أ- س ح س ح س

| |

ع ش

ز ن ← ع ش (و) ز ن[15]

س ح س ح س

| |

ل س ← ط م (ل) ل س[16]

(ب) س ح س ح س

| |

ط م

(ج) س ح س ح س

ع م

س ح س ح س

ر س ← ع م (ر) ر س([17])

(د) س ح س ح س

ص ق

س ح س ح س

ع ب ← (ص) ص ق ع ب([18])

(ر) س ح س ح س

خ ر

س ح س ح س

ط م ← ح (م) خ ر (ن) ط م([19])

(ز) س ح س ح س

ح ز

س ح س ح س

ق ر ← ح (ن) ز ق ر([20])

بالنسبة لهذه الأمـــثلة يمكن إقحـــام الحركات فيها قبل الزيادات، فمنها ما يبقى محتفظا بتلك الحركات المقحمة، ومنها ما تتغير حركته، طبقا للزيادات الملحقة به. من ذلك المثال (21):

(21) س ح س ح س

ص ـــ ع

س ح س ح س

ل ـــ ب

وهو جذر رباعي موجود، الا أنه لم يرد نحته إلا بزيادة ياء النسب عليه، فيكون من المشهور الذي بوب له، خصوصا عنه الاستراباذي في شرح الشافية. إلا أن باقي الامثلة خصوصا (20(و)) و(20(ز))، تتغير حركاتها الداخلية وفقا للزيادات التي تحل بها. إذا تمسكنا بطرح انشطار الفتحة([21]) الذي نادى به الاســـتاذ السغروشني، فإننا سنحصل على (22)، و(23)، بعد إضافة الزيادات على النحو التالي:

(22)

(23)

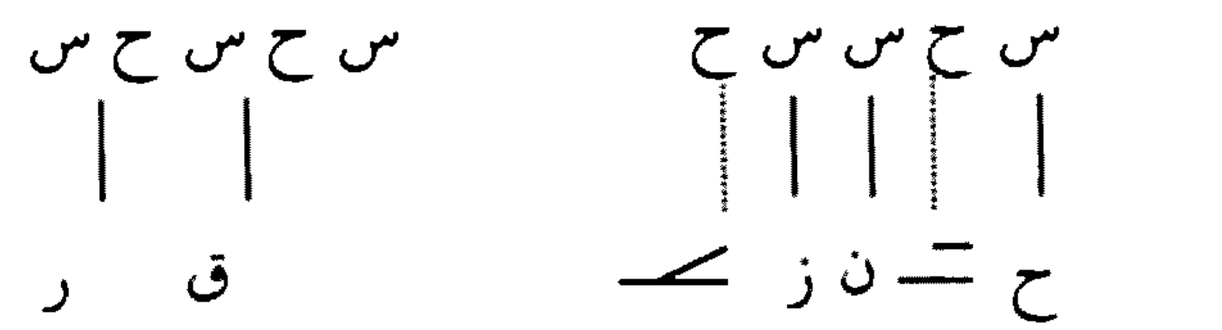

حيث إن (س) تشير الى النون، وهو يدل على أن الساكن عبارة عن زائد، إلا أن الزيادة في (23)، إذا كان مضافا الى البنية، فإنه في (23) يكون معوضا للساكن المحذوف /خ/.

نفس التعويض نجده في البنية (24) وهو تعويض مقدم عن التعويض الحاصل في (22) أعلاه.

(24)

حيث عوضت /و/ /ز/، لما أنه لم يقع تغيير حركي، فتم الحصول على [ع ش وز ن] وهو على وزن "فعوالل" مثل فدوكس وسرومط حيث تمت زيادة الواو في موقع بعد العين، وهو موقع تطرد زيادة الواو فيه على غرار أول الكلمة أو آخره التي يتعذر زيادة الواو فيهما. وها هو معجم لسان العرب([22]) يدلنا على جوازجمع « عشوزن » على « عشازن » وهذا دليل على زيادة الواو دون إشكال.

وأما بالنسبة للأمثلة الثلاثة الباقية (20 ب) (20 ج) و(20 د)، فإن ما يقع فيها هو تكرار لنفس الصوتية، وإذا كان (20 ب) و(20 ج) لا يطرحان أي إشكال، فإن (20 د) يتعذر فيها ذلك التكرار لأسباب تأليفية تنفي الابتداء بساكنين. وعليه نعيد صياغة الأمثلة على النحو التالي:

(25)

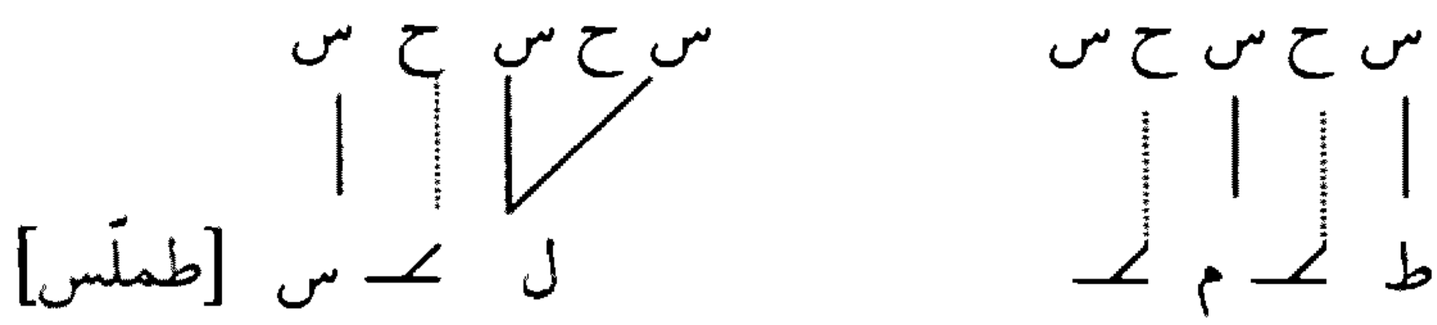

(26)

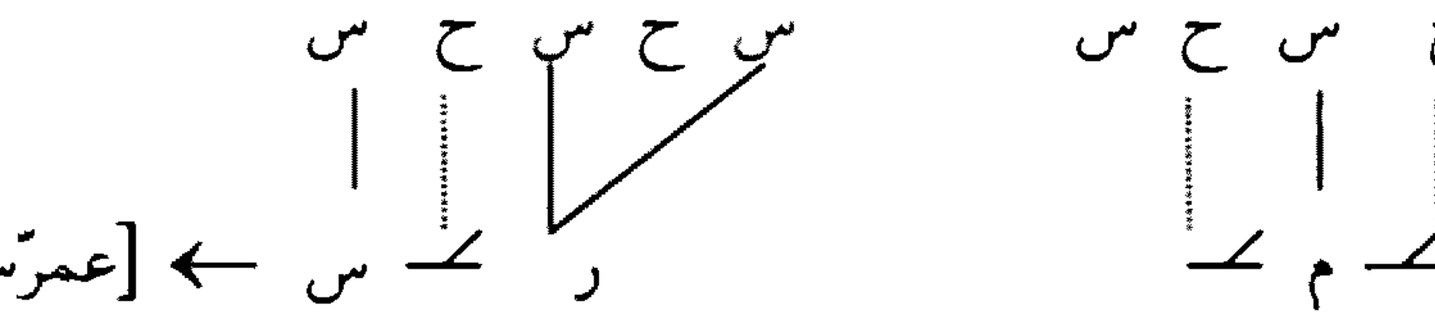

(27)

حيث لا وجود لـــ *س س، في بداية الكلمة كما هو معروف في العربية أي لاوجود لمقطع من هذا القبيل س س ح وإنما يوجد مقطع طويل منغلق أو مضاعف الاغلاق هو س ح س س مما يستدعي إقحام أداة التعريف وإدغام المتماثلين فنحصل على:

(28)

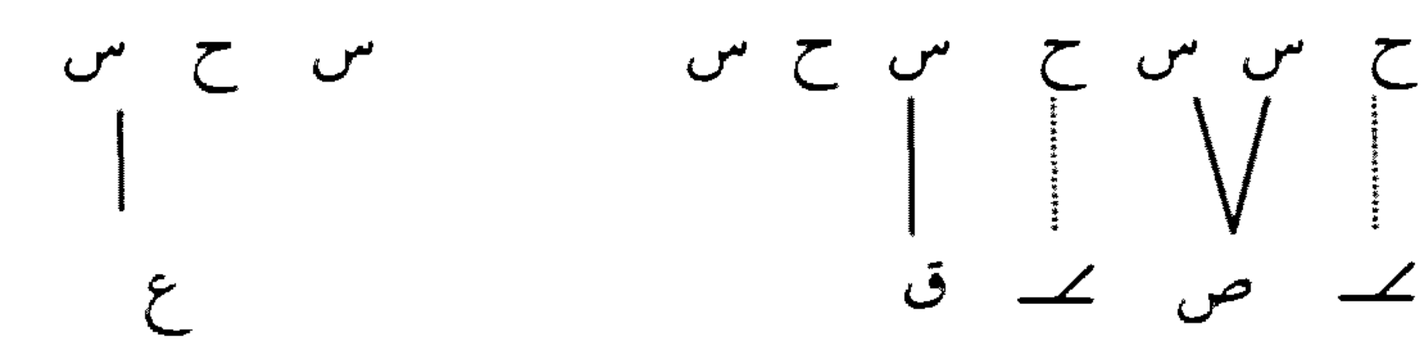

وإذا كان الأمر بخصوص صياغة قاعدة في النحت تتلاءم مع كل المعطيات المتوفرة يستعصي نظرا لطبيعة بنيته المعقدة، فإن هذا يجعلنا، لبلوغ هذا الهدف اللجوء إلى نظرية صرافية ومعجمية([23]) ونفسية في معالجة البنى النحتية، ثم تأسيس قاعدة عامة أو قواعد؛ حسب المعطيات؛ لمراعاتها في بناء مصطلحات علمية وغير علمية "منحوتة"، مع الاهتمام بمجموع الدلالات النحتية التي يفرزها المنحوت في سبيل استقرائها ومقارنتها أو ضمها إلى طر يقي النماء الأخرى: الاشتقاق والتعريب.

بعض المراجع والمصادر العربية والأجنبية المعتمدة:

1- العين، الفراهيدي، الخليل بن أحمد، تحقيق عبد الله درويش مطبعة الغنى، 1967.

2- الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت، 1984.

3- اللسانيات واللغة العربية، الفاسي الفهري، عبد القادر، 1985، دار تبقال للنشر والتوزيع البيضاء.

4- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، بيروت، 1955.

5- مقاييس اللغة، ابن فارس، أبي الحسن أحمد بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر.

6- مدخل للصواتية والتوليدية، السغروشني، إدريس، 1987، دار تبقال البيضاء.

7- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، جلال الدين، ضبط محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الفكر بيروت.

8- مدى النحت في اللغة العربية، الشهابي، مصطفى، مجلة المجمع العلمي العربي، القاهرة، 1959.

9- النحت: صوغ الكلمات المركبة، عبد العزيز محمد حسن، مقال مترجم لصاحبه، ماروسلاف ستيتكفيتش، حوليات، كلية العلوم، القاهرة، العدد 9-1978-1980.

10- النحت في اللغة العربية، الموسى، نهاد، 1984، دار العلوم للطباعة والنشر.

11- النحت الحمزاوي، رشاد، مجلة الحوليات التونسية، العدد 1988/27.

- A Linguistic study of the developement of scientific vocabulary in standand Arabic, MAHDI ALLI, A.S, Regai Preint, I, 1987.
- English word formation, Bauer, L., Cambridge V.P., 1983.
- Generative Merphology, Salise, S., Paris P, 1984.
- La théorie de la racine en indo- Européen, Juquois,G, la linguistique, 6/2, P. V de France, Paris, 1970,1971, 1972.
- Word formation in generative grammar, Aronoff, M. MIT Pres, cambridge.[24]

[1]- أخذت بعض فقرات هذا البحث من الرسالة الجامعية التي تقدمت بها سنة 1994 لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللسانيات تحت عنوان : " النحت وبنية الكلمة العربية " تحت إشراف د. عبد القادر الفاسي الفهري.

[2] - مقاييس اللغة، ابن فارس، 1؛ ص . 328.

[3] - كتاب العين؛ الخليل بن أحمد، باب الرباعي من العين؛ ج، 2، تحقيق مخزوي وسامراني؛ 1988؛ بيروت.

[4]- السيوطي ، المزهر، المجلد الأول ص 483.

[5] - كان النحت في القديم كما عند الخليل، يشير إلى التركيب والاشتقاق، حيث تبنى الكلمة من الجمع بين كلمتين ويشتق منها فعل، وهذا واضح من قوله: " العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلا أن يشتق فعل من جمع بين كلمتين مثل حي على".

[6] - انظر الصفحات 482- 485 من كتاب المزهر للسيوطي المجلد الاول للاطلاع على اقوال هؤلاء العلماء مختصرة.

[7]- انظر "اندروسبانسر"، 1991، ص: 3، عند الحديث عن بنية الكلمة في إطار تحديده المجال الصرافي، حيث اعتبر أن المتكلم الانجليزي في الادبيات الحديثة يهتم بالتدقيق، معرفة شيئين اثنين بخصوص الكلمة " Antidisestablishmentarianism" كونها أطول كلمة في المعجم الانجليزي، وكونها تتكون من مكونات منفصلة: (...)

(anti)، dis (...)، ment (...)، arian (...)، isme (...)، ووصفيا لا ينزع المتكلم الانجليزي معرفة أي شيء آخر حول الكلمة، مثلا: "ماذا تعني".

[8]- بطبيعة الحال هناك مصطلحات منحوتة غير علمية: ادبية وادوات (منحوتة)، ولكن التركيز على المصطلحات العلمية هو للضرورة الملحة التي أملتها الظروف الاجتماعية، والسياسية، ... إلخ، في بناء منحوتات من أجل الاختصار، والاقتصاد في الكلام، نقص الجهد لتسهيل برمجة معجم علمي يحتوي على ألفاظ (مفردات) منحوتة مثلا، ... إلخ.

9 _ في العربية لا يوجد تعريف صريح للمركب ولكن ما قام به اللغويون هو تعريفهم للمركب المزجي كما قال السيوطي: "كل اسمين جعلا اسما واحدا لا بالاضافة ولا بالاسناد بتنزيل ثانيهما منزلة هاء التأنيث" همع الهوامع، ج. 1، ص. 32. وينقسم المركب المزجي إلى اشكال فرعية وهي: 1- مركب أحوال مثل حيص بيص، مركبات صوتية مثل القهقهة، مركبات اعلام مثل: بعلبك. 2- المركب العددي، مركبات الظروف مثل صباح مساء.

[10] - عشوزن: الملتوي العسير الخلق من كل شيء.

[11] - الشميذر: الخفيف السريع.

[12] - هنا نفترض فقط كون ضغط متابعة المتكلم لبنتين اثنتين في سياق الكلام قد يفضي إلى نحتهما.

[13] - تحدث دجاكندوف (1983) عن طبيعة المعنى في اللغة البشرية، متسائلا عن إمكانية ترجمة ما يروج في إدراكنا بالألفاظ، وذلك من وجهة نظر نفسية. على أن هناك سؤالين غير متصلين هما : دراسة دلالات اللغة الطبيعية ما هو إلا دراسة للادراك النفسي

[14]- أمثلة: أ- "إني أشعر بدقات قلبي، لكن بمجرد توجيه تركيزي على تلك الدقات أستطيع إدراكمها شعوريا.

ب- إنني أكتب في القطار، وواع بما أكتب. فأنا لا أفكر إذا في صديقي جاك. بينما تذكار صديقي وجد في ذاكرتي. ارفع بغتة عيناي إلى الساعة، كي تذكرني بالموعد الذي حدده جاك. في هذا الوقت، صعد جاك إلى حقلي الشعوري" بيار داكو، 1977، ص. 156 وما بعدها.

إن مثل هذه الامثلة وغيرها تنم عن اهتمام بالغ بقضايا النفس الانسانية وعملية الادراك يجعلنا نلمس أن ثمة صلة مباشرة بين مفردات اللغة والجانب النفسي للانسان. وأن ثبوت هذه الصلة يدخلان الجانبين معا في علاقة تأثير وتأثر وما دامت اللغة فرع، والنفس البشرية أصل، فلا بد أن يؤثر الاصل في الفرع، وذلك بظهور ذلك التنقص / الاقتطاع المفاجئ الذي يظهر حينما نريد النطق بكلمتين اثنتين يحملان نفس المعنى.

[7]- لقد جاء الافتراض انطلاقا من سؤال مطروح هو: إذا كنا أمام بنيتين مستقلتين، فكيف نحافظ على ملامحهما ونحن نضعهما في قالب بنيوي واحد، نتمكن من تحليلها تحليلا سليما، طبقا لأعراف ومبادئ وقوانين اللغة العربية؟.

[8]- من "البرجد" وهو كساء مخطط.

[9]- من "البلهس" وهو السرعة.

[10]- من "تبلخص" لحمه إذا غلظ.

[11]- من الجلحابة وهو الشيخ الهرم.

[12]- لقد لجأ القدماء إلى حذف شبه الزائد المشترط فيه أن يكون قريبا من الطرف وفي بنية معقدة مثل بنية المنحوت منه، نستغل هذه الإشارة الذكية من لدنهم في التحليل. وإذا كنا ننظر إلى المشكل من مستوى خطي، مع الاحتفاظ بملامح البنيتين المنحوت منهما، فمن الممكن صياغة الشكل التالي:

إذا كان - مرم - مرن - طرفي البنية المنحوت منها، فإنهما لا يحذفان على اعتبار أن لهما ما يماثلهما داخل البنية.

[13]- نجد في الاتجاه التركيبية مصطلح المسافة البعيدة والذي أظن انه أخذ لمشروعيته ضمن هذه الاتساق، وبالتحديد في تحاليل المراقبة. وأظن أن هذا المصطلح قد يأخذ هو الآخر مشروعيته في تحليل هذه الظاهرة إذا تم الاقرار:

أ- تستجيب المعطيات لذلك،

ب- تأسيس النحت على الجذر (ضم جذر إلى آخر دون أي حد صرفي)،

ج- افتراض كون المنحوت منه بنية واحدة وهي في حاجة إلى تسوية. هذه العوامل الثلاثة تسمح بتدعيم الفرضية أعلاه، ثم الاخذ بها دليلا على تبرير الجزء الذي يحذف.

والمقصود بالتماثل على مسافة بعيدة في بنية المنحوت منه، ليس ذلك التماثل المعروف، والذي يحدث جنبا إلى جنب، فيقع إما إدغام أو حذف، وإنما هو تماثل موزع بين بنيتين ولكنه مضبوط في مواقع معينة.

[14]- حذف النهايتين والاحتفاظ بالطرفين.

[15]- سبق شرحه.

[16]- الجاف.

[17]- الشرس القوي.

[18]- الطويل من الرجال.

[19]- الغضبان.

[20]- القصير.

[21]- لاحظ الاستاذ السغروشني الذي أفاد العربية في تبسيط جانب من جوانبها المعقدة ألا وهو الجانب الصرافي، أن يلاحظ أن الحركات في العربية تنقسم حسب صفاتها إلى قسمين: القسم الذي يهمنا والذي يحتوي الفتحة التي تتكشف عن ضمة وكسرة، حيث تمت ملاحظته أن الفتحة (ـــَـ) تثبت عند القدماء على غرار الضمة (ـــُـ) والكسرة (ـــِـ) اللذان يحولان إلى سكون.
وقد استطاع من خلال ذلك، ضبط الصيغ الثلاثية والرباعية، على الخصوص، أما الخماسية فلا تعمل في اللغة العربية لأنها لا تستقيم على حال حيث يتم تعديلها عند التصغير أو التكسير إلى الرباعي، كما هو الشأن في الثنائي الذي نرجعه إلى الثلاثي حتى يصلح تصغيره.
وبعد ما وضع الاستاذ السغروشني ترسيمة للرباعي تتنبأ بالثلاثي ومهمله وهي تضم 27 صيغة تمثل حياة اللغة العربية، المستعمل منها 9، اثنان منها مهملان، بقي إذا سبعة، لم يدرج القدماء منها سوى أربعة واختلفوا في الخامسة، وهكذا نكون أمام طبقات صغيرة من صيغ الرباعي المجردة: فُعْلُلُ فَعْلَلَ فِعْلَل فِعْلِل
والتي نجد قسما لابأس به من المنحوتات يأتي عليها مثل: برجد، بحتر، ... إلخ، عن "فُعلل"، وبلهس، بزمخ، ... إلخ، عن فعلل، وصلقم وهبلع، ... إلخ. عن فِعلل، وهدلق دعبل، ... إلخ، عن فِعلِل، حيث تشكل فعلل النصيب الاوفر من تلك المنحوتات.
[22]- لسان العرب، ج: 13، ص: 286.
[23]- منذ السبعينات والاهتمام منصب على تحديد المدخل المعجمي للكملة على غرار ما كان سائدا قبل هذا التاريخ، وذلك في محاولة لضبط بعض المفاهيم التي تكون في مجملها، الخانات الفارغة للكلمة في طريقها نحو التكوين، نذكر على سبيل المثال مفاهيم الصوتية، الصرفية، المقطع، الجذر، الجذع، المفردة، البسيطة، المفردة المركبة، المفردة المتمكنة ... إلخ. ولعله قبل هذا التاريخ وبالضبط في سنة 1965، وخلافا لما كان سائدا بخصوص القواعد التي كان يتضمنها المكون التركيبي في النحو التوليدي التحويلي: المكون القاعدي والمكون التحويلي، افترض تشومسكي توسيع القاعدة (base) التي أصبحت تنقسم إلى مكونين فرعيين: المكون المقولي والمعجم. هذا التغيير اعتبر تبسيط للنحو بإقصائه قواعد إعادة الكتابة من المعجم ، بعد تخصيصه في إطار نظرية المعيار الموسعة. إلا أن هذا المعجم اعتبر لائحة غير منتظمة من المعلومات المعجمية، المفردات أو المداخل ومجموع القواعد الحشوية. وهذا يتنبأ، فعلا، بكون تكوين الكلمة يعالج شطر منه في المعجم، والآخر خارجه.
إلا أن الذي سجل المعالجة الكلية للكلمات داخل المعجم هو هالي (1973)، الذي طور ما نظر له تشومسكي (1970). فقد رسم هالي السلسلة التي يجب أن تنتظم فيها الصرفيات على أساس تكوين كلمات اللغة، هذه السلسلة التي لابد من أن تتنبأ بها قواعد تكوين الكلمة حتى لا يقع خلل يؤدي إلى لا سلامة البناء، وهو من بين الاسباب التي جعلت الفاسي الفهري (1990)، فيما بعد، ينادي بالتقويس داخل الكلمة العربية كي تكون البنية سليمة صرافيا ومن خلال أعمال كل من سلكرك (1982)، ووليامز وديشلو (1987)، يتضح اعتماد هذين الاخيرين على الكلمة التي تحلل إلى جذع، أما سلكرك فقد تجاوزت الجدع إلى الجذر، معتبرة الجذع: مقولة متكررة. وهكذا تكون قاعدة تمثيل أو خلق مركب مثل "Erythrocyte" هي:
- جذر - جذر جذر، وهي نفس القاعدة التي تبناها الفاسي الفهري (1990) لبناء "النحت" وعن طريقها نمثل للمركب أعلاه على النحو التالي انطلاقا من تصور وليامز وديشلو ثم سلكرك على التوالي:

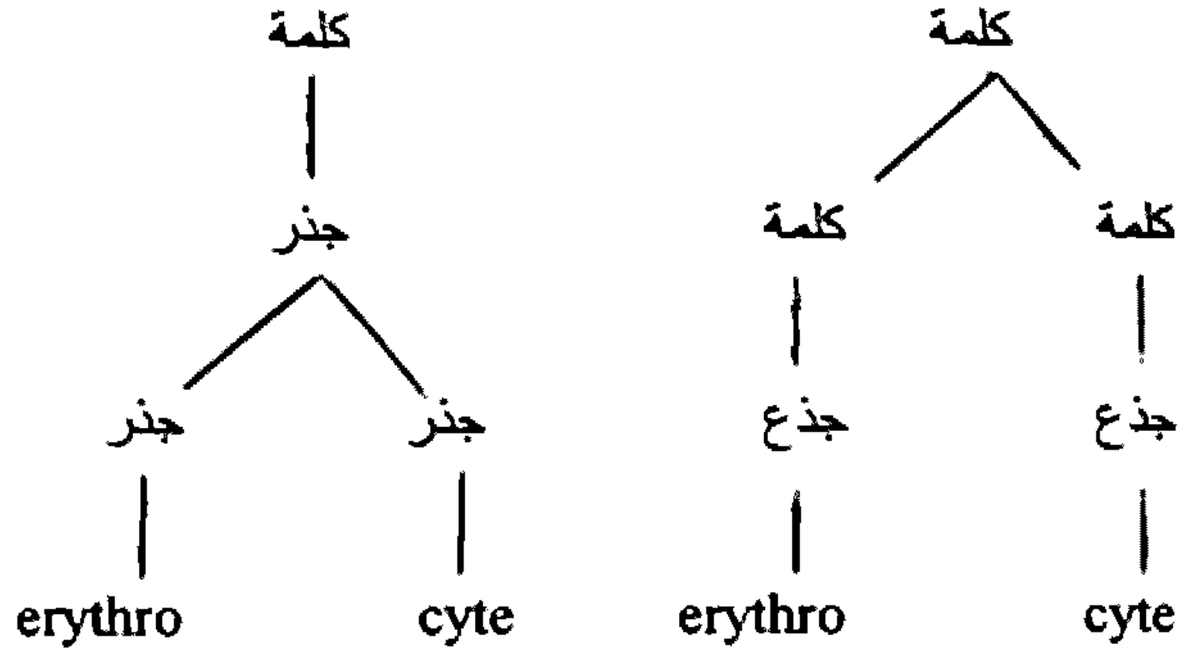

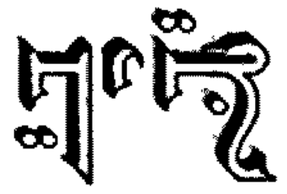

حيازة الأرض في مصر
من الالتزام إلى الملكية الخاصة

ذ. عبد الفاضل الصافي
كلية الآداب – مكناس

ملخص :

كانت الأرض في مصر (وفي كل المشرق العربي) عماد السلطة، ولهذا كان الحكام يبقون ملكيتها في أيديهم بذريعة أن البلاد "فتحت عنوة"، وشتانا بين الفتح والاستلاء. ولنفس السبب أبقى محمد علي باشا، بعد انقراده بالسلطة، أراضي مصر تحت إدارته و لم يسمح بقيام الملكية الخاصة لهذه الأراضي إلا حينما وجد أن الملكية أصبحت ضرورة صحية لبقاء مصر صامدة أمام الرأسمال الغربي التوسعي . وهذا السبب الأخير حدد شكل وحجم ونوع ومراحل تطور هذه الملكية.

كانت الأرض الزراعية في مصر ،قبل مجيء الحملة الفرنسية ،مازالت ملكية عامة في يد الدولة، ممثلة في شخص الحاكم الذي أعطى حق الانتفاع للفلاحين فيما يعرف بأرض الخراج (الأثرية) وحق الاستغلال لأراضي الرزق والأوسية. وقد اعتقد نابليون عند اجتياحه لمصر أن الملتزمين ،الذين لم يكونوا في واقع الأمر ملاكا وإنما كانوا جباة ضرائب فقط ،اعتقد أن هؤلاء يماثلون أمراء الإقطاع في فرنسا ،ففكر في إعادة النظر في قوانين الملكية والمواريث والضرائب ،بما يسمح بتمليك الفلاحين ملكية خاصة قانونية. غير أن نابوليون ما لبث أن ترك مصر مسرعا بالعودة إلى فرنسا لمواجهة الإضطرابات المستجدة. ثم تجددت الفكرة مرة أخرى عندما تولى جاك مينو أمور الحملة في مصر ،فقام بتشكيل لجنة بتاريخ 2 مارس 1801 لمسح الأراضي الزراعية مستهدفا إلغاء نظام الإلتزام وتمليك أرض الأوسية للملتزم وأرض الأثر (الخراجية) للفلاحين المنتفعين بها،وتوحيد الضرائب على الأرض. غير أن هذا المشروع تعطل

تطبيقه أيضا ،إذ كان على الفرنسيين إعطاء الأولوية للدفاع عن بقائهم في مصر وبخاصة أن القوات المشتركة العثمانية الإنجليزية جاءت لإخراجهم من البلاد.[1]

وبعـــد فترة الفوضى التي عرفتها مصر عقب إخراج الفرنسيين منها سنة 1801، تمكن محمـــد علي باشا مؤيدا من طرف الزعامة الشعبية من الوصول إلى السلطة في شهر مايو سنة 1805. لكـــن الســـنوات الأولى مـــن ولايته كرسها لتدعيم مركزه ضد الأخطار والمؤامرات الداخـــلية المتمثلة في البكوات المماليك والخارجية المتمثلة في الفرنسيين والإنجليز. وقد تحالف بصفة مؤقتة مع الزعامة الشعبية ممثلة في شيوخ الأزهر وعلى رأسهم السيد عمر مكرم، ومع الـــتجار.[2] غـــير أن محمـــد علي باشا ما لبث، بعد أن تمكن من تدعيم مركزه، أن تطلع إلى إسقاط نظام حيازة الأرض القديم كله ،لأنه يحول دون سيطرته الكاملة على كل أنحاء البلاد ، كمـــا يحـــول كذلـــك دون حصوله على العائد من الإنتاج لمواجهة متطلباته المالية المتزايدة. وتؤكـــد هيلين آن ريفلين بحجج دامغة أن كل ما أقدم عليه محمد علي باشا فيما يخص حيازة الأرض كـــان وراءه العامل الثاني لأن "الإحتفاظ بالسلطة السياسية ظل متوقفا على مدى ما يســـتحوذ عليه محمد علي من إشراف مالي ،ففي مصر ،مثلها في ذلك مثل أي جزء آخر من الإمبراطورية العثمانية ،كان لابد من تعبيد الطريق إلى السلطة بالذهب ، وكان الإستمرار في الحكـــم رهينا بتدفق الدخل على نحو مستمر لمواجهة المطالب المتعددة من كل جانب، وكان محمد علي يحتاج إلى النقود ليحتفظ بولاء قواته ،وليحافظ على إخلاص أصدقائه في الأستانة ، وليقدم الرشاوي كلما بدا ذلك ضروريا"[3].

كان على محمد علي باشا ،للوصول إلى الهدف الذي وضعه نصب عينيه ،أن يتخلص مـــن الزعامة الشعبية التي أوصلته إلى الولاية والتي لها ثقلها السياسي - فكما هو معروف فإن الســـلطة غير قابلة للقسمة -وفعلا تم له ذلك بعد أن استطاع ضرب مشايخ الأزهر بعضهم بـــبعض مما سهل عليه الإنفراد بزعيمهم السيد عمر مكرم ونفيه من القاهرة إلى دمياط وكان ذلـــك ســـنة 1809.[4] وبعد ذلك راح يعمل ويخطط للقضاء على المماليك نهائيا لكونهم كانوا يشـــكلون أكبر قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية تقف في وجه طموحه ،فكانت بينه وبينهم

سلســـلة من المعارك في الصعيد إلى أن تمكن من التخلص منهم بشكل نهائي في مذبحة القلعة الشـــهيرة في فـــاتح مـــارس سنة 1811، التي استطاع محمد علي باشا بعدها أن يؤكد سلطته المطلقة على ولاية مصر.[5]

ما أن حل ربيع سنة 1812 حتى انعدم في كل مصر من يستطيع أن يتحدى سلطة محمد عـــلي باشا ،وأصبح بإمكانه إجراء تغييراته الجذرية في نظام حيازة الأرض ،فصادر إلتزامات المـــاليك في الوجه القبلي و لم يبق من أراضي الإلتزام سوى مساحات صغيرة تمت السيطرة عـــليها فيما بعد. أما في الوجه البحري ،فقد أصدر محمد علي باشا أمرا في فبراير سنة 1814 بضـــبط جميـــع أراضـــي الإلتزام ورفع أيدي الملتزمين عن التصرف فيها[6]، مع إبقاء أراضي الأوسية في حيازتهم طول حياتهم معفية من الضرائب وإعطائهم عليها حق الإفراغ والهبة دون بيعهـــا إلا لـــلحكومة. كما أمر بأن يصرف لهم تعويض يعادل الفائض الذي كانوا يحصلون عليه.[7]

ضبط محمد علي ،بعد ذلك ،جميع أراضي الوقف بما فيها الرزق الأحباسية في الصعيد ، والـــتزم بحقوق المنتفعين بها، سواء كانوا أفراد أو مؤسسات، وذلك بالإنفاق على المؤسسات التي رصدت لها وبإعطاء فوائض مدى الحياة للأفراد المنتفعين.

وكجـــزء مـــن عمليات التغيير التي أحدثها محمد علي في القطاع الزراعي،قام بعملية مســـح شامل لكل الأراضي الزراعية في مصر خلال سنتي 1813–1814. وبلغ مجموع مساحة الأراضـــي التي لم تفرض عليها ضرائب من أطيان مصر 2250738 فدانا من الإبعاديات والبور وأواسي الملتزمين ومسموح المشايخ ومسموح المصاطب. أما مساحة الأراضي المزروعة التي فرضت عليها ضرائب فبلغت 3218715 فدانا. وبهذا بلغ مجموع الأراضي الصالحة للزراعة في كل مصر 5434455 فدانا.[8]

ما أن اكتملت عملية إسقاط النظام القديم في الحيازة في نهاية عام 1815، حتى حول محمد علي معظم أراضي مصر إلى مزرعة شاسعة تحت الإدارة الموحدة والمباشرة لجهازه الإداري. واعتمد على العائد، الذي أخذ يتدفق مباشرة إلى خزينة الولاية ، في النفقات العمومية والخاصة على السواء. ولكنه في البداية لم يشجع تكوين الضيعات الخاصة ،لأنه كان

يرغب في أن يحتفظ للخزينة بالأرباح الناتجة عن الزراعة ،كما لم تكن لديه أية رغبة في أن يوفر لضباطه فرصة الإستحواذ على أية أداة سلطة أو نفوذ على الشعب المصري.[9] ولقد قال للبارون دي بوالكونت Le Baron de Boislecomte ذات مرة:

"لقد اتجهت كل براعتي نحو اجتذاب الضباط الأتراك إلى خدمتي، وكان علي أن أعتمد على نفس المصادر التي يعتمد عليها السلطان، ومن حسن الحظ أنه يدفع رواتب ضئيلة. ولما كنت قد دفعت أكثر منه بكثير فقد جاء الضباط ليدخلوا في خدمتي ،ومنذ ذلك الوقت أصبح من الضروري أن يظلوا مخلصين لي. ولكي يتم ذلك قررت أن أغدق عليهم النقود والهدايا ،بشرط ألا يصبحوا ملاكا ويستحوذوا على نفوذ شخصي على السكان."[10]

يتضح جليا من خلال هذه القولة أن محمدا عليا كان يدرك ،تمام الإدراك ،أن من يتصرف في الأرض في مصر يمتلك السلطة. إن الأرض والسلطة في مصر ،خلال الفترة ،كانتا تشكلان وجهين لعملة واحدة. لكن الباشا سيعدل سياسته هذه في أواخر العشرينيات ،وفي رأي هذا البحث المتواضع ،كان السبب هو نفسه ،أي البحث على المزيد من السلطة وذلك بخلق حلفاء أقوياء في الداخل.

نتج عن سقوط الإلتزام ،ومباشرة بعد إتمام عملية مسح الأراضي ،ظهور ثلاثة أنواع من الحيازة. النوع الأول هو الأراضي الأثرية وتسمى كذلك بالخراجية ،والنوع الثاني هو أراضي الأوسية ،وأخيرا أراضي المسموح(أي مسموح المشايخ ومسموح المساطب). وكانت كلها ملكيات إنتفاع فقط. وسنحاول فيما يلي التعريف بإيجاز بهذه الأنواع الثلاثة:

1- الأراضي الأثرية أو الخراجية: بعد أن تمكن محمد علي باشا من إسقاط نظام الإلتزام ،وزع الأراضي الزراعية على الفلاحين ،فأعطى لكل أسرة مساحة تتراوح ما بين ثلاثة وخمسة أفدنة مقابل دفع ما يفرض عليها من ضرائب.[11] وهناك آراء مختلفة حول ما إذا كانت الأرض قد سجلت فعلا باسم الفلاح في هذه الفترة ،أم أن التسجيل تم باسم القرية ككل ،هذه الأخيرة التي كانت مسؤولة بشكل جماعي فيما يخص دفع الضرائب. وهذا البحث المتواضع يذهب مع رأي الدكتور أحمد أحمد الحته الذي يقول إن ما تم كان يجمع بين الأسلوبين معا ،فالأموال المقررة تقيد على القرية ككل ،

ويحتفظ صراف القرية بسجل يقيد فيه أسماء الفلاحين الذين لهم أراض أثرية.[12] ولا يجب أن تفوتنا الإشارة إلى أن الفلاح لم تكن له سوى حيازة انتفاع ،أي إنه لم يحصل على أية حقوق قانونية جديدة على الأرض فيما يخص الحيازة ،وحل شيخ البلد محل الملتزم في تقرير من تؤول إليه الأرض بعد وفاة الفلاح ،وإن جرت العادة على إعطاء الأولوية في الإنتفاع بالأرض لأبناء المتوفى من الذكور. ولم يتغير الوضع هذا حتى نهاية عصر محمد علي. أما أبرز التغييرات التي حدثت في هذا القطاع فهي أن الضرائب أصبحت تجبى مباشرة من طرف السلطات المحلية دون وسيط ،أي لم يعد هناك ملتزم بجباية الضرائب كما كان الحال في السابق.[13]

2- أراضي الأوسية: لقد سبق الإشارة إلى أنها تلك الأراضي التي أبقاها محمد علي باشا في أيدي ملتزمي الوجه البحري سابقا ،ومنحوا حق الإفراغ والهبة والإيقاف والبيع للحكومة فقط. لقد اختلفت الآراء حول مساحة هذه الأراضي ،ونتفق مع الدكتور علي بركات الذي يقول بأن هذه المساحة تراوحت بين 190 ألف فدان و200 ألف فدان ،وذلك لأنه اعتمد مادة أرشيفية لها مصداقيتها.[14]

3- أراضي المسموح: أعطى محمد علي باشا مشايخ القرى بعض الأطيان معفاة من الأموال الأميرية ،وقد تشكلت مساحتها من ما يعادل نسبة خمسة من كل مائة فدان من الأطيان المعمورة (المزروعة) نظير الخدمات التي يقدمونها للحكومة ،ومقابل أيضا الأعباء التي يتحملونها عند استضافة موظفيها الذين يمرون بالقرى أو ينزلون بها. وتعرف تلك الأراضي بمسموح المشايخ ،وهي للإنتفاع فقط.

كما أعطى الباشا بعض الأعيان أطيانا معفاة من الضرائب للإنتفاع بها وذلك مقابل إطعام عابري السبيل والمساكين ،وتعرف باسم مسموح المصاطب.[15] وكانت نسبة مسموح المصاطب تتراوح بين 4 و5 أفدنة عن كل 105 أفدنة من أطيان المعمور بالقرية. أما كبار المشايخ المعروفين بالمقدمين فخصص لهم 10 أفدنة عن كل مائة فدان من أراضي القرية.[16]

كانت هذه هي أنواع الحيازات التي سمح بها محمد علي في بداية عهده ،وهي على العموم حيازات صغيرة. وكانت ،في إطار سياسة الإحتكار التي سلكها الباشا ،تابعة لإدارته المباشرة. كان السبب في الإقتصار على هذا الشكل والنوع والحجم من الحيازة هو الرغبة في عدم إعطاء أي طرف فرصة مقاسمة محمد علي الباشا السلطة ،كما عبر عن ذلك بنفسه للبارون دي بوالكونت. ولكن ،بعد أن أصبح للباشا كل النفوذ والسلطة المطلقة داخل مصر وامتد نفوذه إلى شبه الجزيرة العربية ثم إلى السودان و لم يعد يخشى أية معارضة داخلية ،تغيرت رؤيته للأمور ،فظهرت حيازات كبيرة أصبحت فيما بعد ملكيات خاصة مترامية الأطراف. فما هو شكل هذه الحيازات ولماذا ظهرت خلال هذه الفترة بالضبط؟.

1- **الإبعاديات**: مفردها إبعادية ،وهي الأرض القابلة للزراعة التي شملتها عملية المسح و لم تفرض عليها ضرائب لأنها كانت غير مزروعة ،وتتكون أساسا من أراضي البور. وأول مرة منح فيها محمد علي باشا إبعادية كانت سنة 1826 ،حسب الدكتور علي بركات[17]. أما حسب هيلين آن ريفلين فكان ذلك سنة 1829[18]. وعلى العموم سواء كانت السنة 1826 أو 1829 فإن هذا التأخير في منح الإبعاديات يعزز ما ذهبنا إليه حين قلنا أن الباشا لم يشأ منح أراضي واسعة إلا حين أصبح سيد مصر بلا منازع ،بل وصاحب إمبراطورية. أضف إلى ذلك ،إن هذه الإبعاديات منحا لأتباعه وكبار موظفيه معفاة من الضرائب —إلا في بعض الحالات- بشرط استصلاحها وزراعتها ،ولكن بصفة حيازة إنتفاع فقط في البداية. و لم يمنحهم حق توريثها لذريتهم إلا سنة 1837 ،وحق ملكيتها ملكية كاملة إلا سنة 1842[19], أي بعد معاهدة لندن سنة 1840 التي ما هي في جوهرها سوى تكرار لمعاهدة بلطة ليمان سنة 1838 التي استهدف فيها الأوربيون إلغاء الإحتكار في كل أرجاء السلطنة العثمانية وبخاصة في مصر التي كانت سياسة الإحتكار التي نهجتها عماد اقتصادها ،والجدار الأمني لهذا الأخير أمام الرأسمال الغربي المهاجم. وفي رأينا كان الدافع إلى منح الإبعاديات هو خلق طبقة من كبار الملاك يستطيع محمد علي باشا الإعتماد عليها في مواجهة الرأسمال الأوروبي، وبخاصة بعد أن وقع من يده الدرع الرئيس (سياسة الإحتكار) الواقي من ضربات الرأسمال الغربي بكل

أنواعها. وسيعزز البحث هذا الرأي ،القابل للنقاش وللخطأ بطبيعة الحال ،حين سيتطرق لنظام العهدة ومن بعده ظهور الجفالك. ونود الآن أن نشير فقط ،وتجنبا للدخول في التفاصيل المملة ،إلى أن مجموع الأراضي التي منحها محمد علي لأتباعه بلغ حتى سنة 1848 ما مساحته 164960 فدانا كان معظمها من الإبعاديات. وإلى جانب الإبعاديات فإن ثمة مساحات من المعمور منحها الباشا لأتباعه المقربين لكن على نطاق ضيق.[20]

2) **نظام العهد:** لم تكن العهد في الحقيقة ضياعا ،بل كانت أقرب إلى إلتزام بجباية الضرائب ، وتكاد تشبه الإلتزامات السابقة المطاح بها. لقد كانت العهدة امتيازا يمنح لفرد يتعهد بما يلي:

أ– أن يتحمل نحو الإدارة المركزية للولاية المسؤولية فيما يتعلق بدفع الضرائب الجارية والمتأخرة عن القرية المعسرة،

ب– أن يسلم لهذه الإدارة منتوج الأرض بأسعار محددة،

وأول عهدة منحها محمد علي باشا كانت سنة 1831 ،وحين استمرت أحوال البلاد في التدهور ،أصدر الباشا مرسوما بتاريخ 23 مارس 1840 ينص على منح القرى المعسرة عهدة لكبار الموظفين والضباط الذين اغتنوا وهم في خدمته. وإذ لم يكن لهم خيار في الأمر ،لم يفعلوا سوى الإنصياع للأوامر ،وقد قبل محمد علي وأسرته تولي العهد لإعطاء المثال وتجنبا لأي اتهام.

كان صاحب العهدة لا يتلقى أي حق في التمليك ،فالأرض كانت تبقى أرض أثر كما هي مسجلة في سجلات المساحة ،ويبقى الفلاح الذي كانت في حوزته يعمل –في حالة عدم قدرته على دفع الضرائب وانتقال أرضه إلى المتعهد– عند المتعهد مقابل أجر أو بمقاسمة المحصول. وقد أفلس بعض المتعهدين,[21] في حين اغتنى الكثير منهم حسب ما يذكره بورنغ في تقريره.[22]

كانت في سنة 1844 ،مساحة الأراضي التي تحولت إلى عهد ،تبلغ 1205559 فدانا ،من بينها 120 ألف فدان كانت تشكل عهدة محمد علي باشا ،و98 ألف فدان عهدة ابنه إبراهيم

باشا. وبلغت مساحة عهدة بقية أفراد أسرة الباشا 75 ألف فدان ،بينما الباقي ومساحته 912559 فدانا قد أصبح عهدا لكبار موظفيه وضباطه الأتراك بشكل عام.[23]

ترى هيلين آن ريفلين أن السبب في التجاء محمد علي باشا إلى هذا النظام هو إلحاح القناصل الأوروبيين عليه لإنهاء نظام الإحتكار ،تطبيقا لبنود معاهدة بلطة ليمان ،ولهذا راوغهم بمنح الأرض لأتباعه ،الذين كانوا يسعون لإرضائه ،فلم يمنعوا عنه المحصول الذي كان يأخذه بالسعر الذي يحدده هو بنفسه. وانتهى نظام الإحتكار الذي كانت تمارسه إدارة الولاية مع استمرار الغرض الذي كان يتوخاه منه محمد علي باشا.[24]

يضيف هذا البحث إلى هذا الإستنتاج، أن محمدا عليا باشا أراد إقحام هؤلاء الموسرين في الصراع الدائر بينه وبين القوى الأوروبية وجعل مصالحهم مرتبطة بمصالحه حتى يأمن لهم ويجد فيهم السند ،وبالتالي يضمن مصالح مصر الإقتصادية. وبالتالي ،فهو كان يشكل طبقة رأسمالية تستطيع مواجهة الرأسمال الغربي والوقوف في طريقه. وقد عارضت انجلترا هذا النظام لكن بدون جدوى ،على الأقل طيلة ما تبقى من فترة ولاية الباشا ،لأن هذا الأخير لم يترك لها فرصة ذريعة قانونية تسمح لها باللجوء إلى القوة.

3) **الجفالك (الشفالك)**: للوقوف في وجه الغزو الرأسمال الأجنبي، الذي سمحت به المعاهدات التي وقعتها السلطنة العثمانية ،ولضمان استمرار الولاية في يد محمد علي وفي سلالته من بعده ،فقد منح الباشا لنفسه ولأفراد أسرته أراض واسعة ،إنها الجفالك. وكانت كلها من أراضي المعمور ، وحتى المساحات الصغيرة جدا من الإبعاديات التي شملتها الجفالك فقد كانت مستصلحة قبل تحديد مساحات الجفالك. كانت مساحة الجفالك التي حددها الباشا لنفسه ولأفراد عائلته تساوي 334286 فدانا ،منها 249426 فدانا تشكل مساحة جفالك الباشا وحده. وكان أول جفلك منحه محمد علي هو الذي منحه لابنته زينب هانم والثاني هو الذي منحه لابنته خديجة هانم وكان ذلك سنة 1838 [25] أي نفس السنة التي تم فيها توقيع معاهدة بلطة ليمان.

لقد كانت الجفالك مملوكة ملكية خاصة وكاملة ،وكذلك الشأن بالنسبة للإبعاديات ابتداء من سنة 1842. وكانت كلاهما هبة من ولي النعمة لأسباب سياسية اقتصادية ،وكانت مساحتهما شاسعة تحوي قرا بأكملها وفي بعض الأحيان مجموعة من القرى. وهكذا نلاحظ أن الملكية الزراعية الخاصة في مصر بدأت شاسعة وموهوبة ،وفي المقابل كانت هناك ضياع قزمية حيازتها نفعية فقط. سيسهم هذا الوضع في إحداث منعطفات في تاريخ مصر إبان الفترة اللاحقة لعهد محمد علي باشا ،لن تتسع هذه الورقة لدراستها وتكتفي بالإشارة إلى أن مجموعة من الدراسات ،سواء التي تعرضت بالدرس للقوى الإجتماعية في مصر حتى قيام ثورة الضباط الأحرار ،أو التي تناولت ما كان لأشكال الملكية الزراعية من آثار على مجريات الأحداث حتى نفس الثورة ،قد تجيب عن أسئلة من يريد الإطلاع على ما لم تتسع له هذه الورقة المتواضعة.

الهوامش:

---

[1]) د. عاصم الدسوقي ،الملكية الخاصة للأرض في مصر: النشأة والتطور 1837 – 1899 ،ضمن مجلة الطريق ،عدد 3 ،يونيو 1989 ،ص ص 121-122.

[2]) د. علي بركات ،تطور الملكية الزراعية في مصر 1813-1914 وأثره على الحركة السياسية ،دار الثقافة الجديدة ،القاهرة 1977 ،ص 21.

[3]) هيلين آن ريفلين, الإقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن 19 , ترجمة أحمد عبد الرحيم ومصطفى الحسيني, دار المعارف, القاهرة 1968, ص ص 72- 73.

[4]) عبد الرحمن الرافعي, عصر محمد علي, ط 3, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة 1951, ص ص 80-99 (للمزيد من التفاصيل).

[5]) نفسه, ص ص 111-121.

[6]) علي بركات, م. س, ص 23.

[7]) أحمد أحمد الحتة, تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير, دار المعارف, القاهرة 1950, ص 35.

8) علي بركات ،م س ،ص ص 24-27 .

[9]) هيلين آن ريفلين, م س , ص 91.

[10]) DOUIN (G.), La Mission du Baron de Boislecomte, نقلا عن هيلين آن ريفلين, م س, ص 91.

[11]) علي بركات, م س, ص 29.

[12]) أحمد احمد الحتة, تاريخ مصر الاقتصادي ... ص 89.

[13]) علي بركات, م س, ص 30.

[14]) نفسه, ص ص 30-31.

[15]) أحمد أحمد الحتة, تاريخ الزراعة المصرية ... ص 48.

[16]) علي بركات, م س, ص 71.

[17]) نفسه, ص ص 73-74.

[18]) هيلين آن ريفلين, م س, ص 92.

[19]) علي بركات, م س, 71.

[20]) نفسه, ص ص 73-74.

[21]) هيلين أن ريفلين, م س, ص ص 96-98.

[22]) تقرير بورنغ, ضمن نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر, جمعها وقدم لها محمد فؤاد شكري ود. محمد أنيس ومحمد رجب حراز, مكتبة الأنجلو المصرية, 1960, ص ص 199 - 200. (وبورنغ هذا هو عضو مجلس العموم البريطاني, أوفدته الحكومة البريطانية إلى مصر عام 1837 لوضع تقرير عن حالة مصر) .

[23]) هيلين آن ريفلين, م س, ص 97.

[24]) نفسه, ص ص 95- 96.

[25]) علي بركات, م س, ص ص 85- 95, للمزيد من التفاصيل.

رسائل اخوان الصفا ونزعة التنوير
في الفكر العربي الإسلامي

ذ. محمد تضغوت

كلية الآداب – مكناس

على الرغم مما كتب في تاريخ الإسلام قديما وحديثا، فإن العديد من المواضيع ذات القيمة الفعالة – بالمفهوم الابستيمى – ما تزال تدخل في دائرة الصمت واللامبالاة.

وأعتقد أن مرد ذلك لا يعزى إلى ضآلة المادة التاريخية المتاحة التي بخلت بها المظان، بقدر ما يعزى إلى الانصراف للبحث في مواضيع مجترة ومستهلكة لم تخرج عن نطاق الثقافة الوصية التي تطعمها السياسة وتغديها النزعات الايديولوجية.

ذلك أن نجاح أي تيار فكري معين أو فشله لا يتوقف على مقدار صلاحيته الأزلية والقيمة التاريخية ذات الصبغة الظرفية التي تؤطره، وإنما بفعل تدخل السلطة السياسية التي تلعب دورا فعالا في تدعيم التيار الذي يساير توجهاتها، واضطهاد باقي التيارات المعارضة.

من الطبيعي أن ينحى هذا العقل الذي نصب نفسه مدافعا أمينا على وضع السلطة الثقافية والتنظير للسياسة الرسمية — عبر مسار تاريخ الإسلام — إلى اقصاء الآراء المخالفة واضطهادها. وخلالها سعى النصيون الموالين للسلطة إلى تغدية العقل الشعبي بالخرافات والقصص الخيالية البطولية التي تخاطب الشعور وتثير الحواس، بغرض أبعادهم عن التدبر والخوض في السياسة والهائهم عن مواجهة حياتهم اليومية البئيسة.

ومن ثمة نستطيع أن ندرك كيف دأب رجال الفكر وأعلام التنوير، ومنهم اخوان الصفا إلى نهج أسلوب التكتم والتستر، ناشطين بعيدا عن أعين السلطة والعامة الذين تم تسخيرهم أو تأليبهم من قبل الخاصة لمناوءة الفلسفة والفكر المعارض بدعوى المروق والالحاد. ولقد صدق "أركون" حين لاحظ بأن شروط ممارسة الفكر في المجتمعات الإسلامية التقليدية كان يقتضي دوما تغليب الرهانات الآنية والمباشرة على الرهانات البعيدة. ذلك أن ضرورة

المماحكاة والمناظرات الجدالية من دفاع عن الذات أو احتجاج ضد الآخرين، إضافة إلى الزامية التقليد الحرفي لتعاليم الشيخ المؤسس، ومسايرة أهواء ذوي النعم والكرم من الأمراء أو الخضوع الواعي أو اللاواعي للإيديولوجيا المهيمنة، كل ذلك راح يحد من جرأة المفكرين والباحثين عن الابتكار والإبداع، ويحجم بالتالي فعاليتهم النقدية.

ولاشك أن هذه الإكراهات والالجامات التي هيمنت على الفكر ردحا من الزمن قد حدت من تناميه وضيقت من دوائر مباحثه.

ولاغرو فقد مر الفكر الإسلامي المستنير منذ الردة المتوكلية التي اقترنت بتسلط الأتراك بامتحانات عسيرة من الفقهاء المتشددين الذين عادوا للهيمنة على شؤون السياسة وتوجيه الفكر والثقافة.

وفي هذا الإطار يمكن تفسير ظاهرة اقبال الطلبة على الاهتمام بالعلوم الدينية ذات المنحى السني. فقصدوا الفقهاء لكونهم حملة علوم الشريعة والعبادات، بحيث كان لابد لمن يريد تولي القضاء والخطابة أن يتتلمذ على أيديهم.

كشف الجاحظ عن ذلك بقوله : "وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لايعد فقيها، ولايجعل قاضيا، وماهو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشرط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال. وبالحري ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير، حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان" [1].

لذلك نذر في هذا العصر من اشتغل بالفلسفة والبحث في ربط العلة بالمعلول حتى أن الحنابلة وقتئذ رفضوا كل نزعة كلامية وجدالية مع الخصم لأنها في اعتقادهم ستوصل حتما صاحبها إلى التسليم بأفكار تدخل في دائرة المحظور.

ومما يبرهن على صدق معاداة الارستقراطية — التيوقراطية للفلسفة والعلوم، أن السلطة قامت سنة 277 هـ بمحاولة استئصال الحركة الفلسفية من جذورها. فالحوليات تتحدث عن دولة المعتضد بالله التي قامت باضطهاد الفلاسفة [2]. واستحلفت الوراقين بأن

لايعملوا على نسخ أي مؤلف في الفلسفة [3] وهو ما انعكس سلبا على عمل النساخين وعطل الحركة الثقافية برمتها.

ولم تقتصر شرور الاضطهاد والتفتيش على تتبع علم الكلام والفلسفة وتكفير من اشتغل بها، بل مضوا إلى أبعد من ذلك. فقالوا بعقم التفكير العلمي والرياضي، مقابل الانتصار للسكون والخمول الذي احتضنته القوالب الفكرية الجبرية الجاهزة.

وقد تحدث أبو الحسن بن فارس عن خطر الهندسة على الدين مع قلة نفعها وانتهى إلى أن الخوض في الرياضيات يؤدي إلى الانخلاع من الدين [4]. على عكس ما رأى الجاحظ من "أن الهندسة وما يتصل بها من المساحة والوزن والتقدير وما أشبه ذلك، ومنها الكيمياء والطب فبهما يصلح المعاش وتقوم الأبدان وتعالج الأسقام " [5].

بديهي أن ينحو رجال الثقافة العالمة المعارضة منحى التكتم والتستر أمام شراسة الملاحقة والتعنت الذي مارسه خصوم العقلنة، ومعها ظهر التطرف والغلو ليس في أوساط الشيعة والتيارات الباطنية والتصوف والفلسفة، وإنما داخل نسق وتوجهات الفكر ذي المنحى السني نفسه.

ومن الطبيعي، في ظل هذا الخلط والغلو وتداخل الآراء وتشابك التيارات أن تظهر جماعة اخوان الصفا الذين طرحوا أفكارهم في رسائل شملت شتى صنوف المعارف والموضوعات التي جرى استخلاصها من فضاءات معرفية متنوعة. منها ما ينتمي إلى الثقافة الإسلامية، ومنها ما يدخل في صنف عرفان الموروث القديم؛ بل سيصبح هذا الموروث — بكل أبعاده الابستمولوجية والايديولوجية يفرض نفسه في الساحة الفكرية باسم العقل دون أن يخرجهم ذلك من ربقة الإسلام [6].

كان أبو حيان التوحيدي أول من ذكر شيئا عاما عن اخوان الصفا. ففي إحدى ليالي الامتاع والمؤانسة سأله وزير صمصام الدولة في حدود سنة 373 هـ عن زيد بن رفاعة قائلا: "اني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولا ومذهبا لاعهد لي به، وكناية عما لا أحقه وإشارة إلى ما لايتوضح شيء منه. يذكر الحروف، ويذكر النقط، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا بسبب، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة والألف لم تعر إلا لغرض. فما

حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دخلته ؟ وما خبره ؟ فقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إليه وتكثر عنده وتورق له.

قلت أيها الوزير، هو الذي تعرفه قبلي قديما وحديثا بالتربية والاختبار والاستخدام، وله منك الأخوة القديمة، والنسبة المعروفة.

قال: دع هذا وصفه لي.

قلت : هناك ذكاء غالب، وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناحرة ومتسع من فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي. وأبو الحسن بن هارون الزنجاني. أحمد المهرجاني. والعوفي، وغيرهم، فصحبهم، وخدمهم .

وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته. وذلك أنهم قالوا بأن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال. وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرسا وسموها: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وكتموا أسماءهم، وبثوها في الوراقين. كما سأله الوزير عن رؤيته لهذه الرسائل، فقال التوحيـــدي: "قد رأيت جملة منها، وهي مبثوتة من كل فن بلا إشباع، ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات، وتلفيقات، وتلزيقات، وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطإ عليها "[7].

ثم إن جميع ما وصل إلينا عن إخوان الصفا من الإشارات والتعليقات لم يخرج في مجمله عن الذي ذكره التوحيدي ونقله القفطي، ثم جاء المتأخرون وتفننوا في الاستنتاج والاجتهاد والمقاربات وأمعنوا النظر في المنقولات وحملوا مضامين الرسائل مالا تحمل.

واضح من خلال النص المنقول عن التوحيدي، أن هناك مجموعة من الأشياء والقضايا ظلت عالقة؛ منها ما يتعلق بتاريخ النشأة، ومنها ما يتعلق بعدد الرسائل المصنفة.

فعلى الرغم من أن النص المروي عن التوحيدي يوحي بأن الرسائل قد ألفت في السبعينات من القرن الرابع الهجري، فليس معنى ذلك أن الجماعة نشأت في ذلك التاريخ بالذات؛ كما يبدو من خلال كلام التوحيدي نفسه من أنه لم يطالع على كل الرسائل، بما فيها الرسالة الجامعة التي يعتقد أنها قد ألفت من لدن أبي سلمة المجريطي الذي نعتقد بأنه قد نقل ثقافة الإخوان إلى الأندلس.

وتأتي قيمة الرسالة الجامعة فيما ذكره إخوان الصفا أنفسهم بأنها جاءت جامعة مانعة موضحة وملخصة للحقائق السابقة، مستقاة ببراهين هندسية يقينية، ودلائل فلسفية حقيقية وبينات علمية، وحجج عقلية، وقضايا منطقية وشواهد قياسية، وطرق اقناعية، لايقف عن كنهها ولا يحيط بحقائقها، ولايحصلها ولا شيئا منها إلا من ارتاض بما قدمنا، وحذق وعرف وتدرب فيها، وتمهر ... وهي منتهى الغرض لما قدمناه، وأقصى المدى ونهاية القصد، وغاية المراد، ولله الحمد والمنة، وله الحول والقوة "[8].

يظهرإذا أن تنوع المواضيع التي تطرقت لها الرسائل، واختلاف مناحي التأليف والتحليل، والغموض الذي أحاط بالجماعة وعصر تدوين الرسائل، كلها عوامل ومعوقات تحول دون الحسم والقول الفصل في تاريخ نشأة الحركة ونشاطها.

فكثيرة هي النصوص المستخلصة من الرسائل تفيد بأن الجماعة كانوا دعاة في سلك التنظيمات الشيعية الإسماعيلية، ويستفاذ من أخرى أن الجماعة لم تكن مقاصدها سياسية بقدر ما كانت جماعة تنويرية تثـــقيفية استهدفت محو الجهل وإذكاء الوعي؛ ففي حين يفيد صنف آخر انها كانت حركة سياسية واجتماعية عملت على احتواء كل العناصر والإثنيات من مذهبيات مختلفة، بهدف تـــشييد مجتمع فاضل يسوده العدل والتعاون لتحقيق الخلاص الأبدي[9].

ولم يكن الخلاص المنشود في نظرهم يتحقق في اعتناق الأديان وطقوس العبادات بل، أيضا – في امعان النظر في القضايا العلمية وتشغيل العقل في شتى المعرفة ومتطلبات الحياة المعيشية.

ومما يلفت النظر أثناء تفحص أوراق الرسائل ، أن اخوان الصفا- مع حرصهم على تبويب المعارف التي تناولوها- يذكرون مواضيع، ويدلون بآراء متماثلة في أماكن مختلفة وأحيانا متضاربة، بما يوحي إلى أن الرسائل قد صنفت بكيفية جماعية، كما أنها لم تكتب مرة واحدة أو في زمن بعينه.

ولعل ما يزكي هذا الاحتمال أن الأسلوب الجيد الذي وسم لغة الرسائل، في بعض الجوانب كان يكتنفه الغموض والتكرار في جوانب أخرى، ولعل إحاطتها بكثير من دقائق العلوم وتداولها في مناسبات مختلفة يزيد من تعزيز الرأي بأن هذا العمل الموسوعي الكبير ليس من عمل فرد واحد أو نتاج لعصر بعينه.

يزعم اخوان الصفا أن جماعتهم ترجع إلى أيام الرسول عليه السلام، إذ قالوا في إحدى رسائلهم: "ومن قبله ما أنال أحق بما قاسى أولاهم بالأمر من بعده، ثم من بعد غيبة صاحب الشريعة، قتل من بعده من أجلة أصحابه المساعدين له في اقامة الناموس معه مثل صديقه وفاروقه وذي النورين، وما تواتر له أهله وأقاربه من المصائب، فصار ذلك سببا لاختفاء اخوان الصفا، وانقطاع دولة خلان الوفا إلى أن يأذن الله بقيام أولهم وثانيهم وثالثهم في الأوقات التي ينبغي لهم القيام فيها ".

وقد استنتج "عمر فروخ" من خلال هذا النص الذي أورده كذلك بأن جماعة الاخوان كشفوا عن أنفسهم في القرن الرابع الهجري؛ مع العلم أنه لاتوجد أدنى إشارة ترجح هذا الاحتمال؛ مما حمله على العدول عن رأيه ليقر ثانية بصعوبة الحسم في تحديد زمن النشأة.

وفي السياق نفسه حاول ثلة من الدارسين الآخرين أن يستنتجوا تاريخ النشأة بالسند إلى بعض القرائن والتخمينات المرتبطة بحركة الشيعة الإسماعيلية، وتألق ثقافة القرن الرابع، غير أن هذا التخمين قد يفيد — نسبيا — في معرفة تاريخ تأليف الرسائل أو ظهورها دون أن تكون له صلة البتة بتأريخ نشأة الجماعة خصوصا وأن الرسائل مثلما سلف القول لم تكن وحدة تأليفية، بالرغم من كونها وحدة فكرية ليس إلا.

أما عن الإسم الذي اتخذوه فليس هناك أدنى اختلاف مادام أن اخوان الصفا قد سموا أنفسهم بهذا الإسم [10] وصرحوا بأنه مأخوذ من صفوة الاخوة؛ وكثيرا مارددوا

واستـــفتحوا رسائلهم في مواضيع مختلفة بأنهم " اخوان أصدقاء " أصفياء، وادون محبون، علماء أخيار، فضلاء كرام، متعاونون متأدبون، "واعلم يا أخي"، و"كن يا أخي"، و"هلم بنا يا أخي"، و"هل لك يا أخي" ... إلى غير ذلك من العبارات التي تنحو منحى الاخوة.

غير أنهم عند كل مناسبة، وفي كل رسالة ينبهون المتلقي إلى أن وراء الموضوع يذكرون غرضا معينا غامضا لا يمكن إدراكه إلا بفتح البصيرة وتشغيل ملكة العقل، وعدم إصدار الحكم المتسرع.

ولعل كثرة الإشارات والرموز التي وردت في الرسائل هي التي أوحت إلى مجموعة من الدارسين أن يستنتجوا بأن اخوان الصفا كانوا من الباطنية الذين اشتهروا بعداءهم للإسلام وأضمروا له أشياء مبيته لم يقدروا الكشف عنها خوفا من السيف والاضطهاد.

غير أن الفحص الدقيق لهذه المزاعم بالاستناد إلى نص مرموز بعينه لا يمكن اتخاذه دريعة ومطية للحكم على اخوان الصفا بالمروق والالحاد، بل يمكن القول - باستحضار القرائن وامتحان جملة من الأخبار والمواقف التي وردت أيضا في ثنايا الرسائل - أن اخوان الصفا لم يفهموا الدين فهما سطحيا مثلما فهمه الفقهاء والجهلة من العامة والمتاجرين بالدين، وإنما فهموه فهما عقلانيا تنويريا يعمل على تصليح طلب الدين بالدنيا والدنيا بالدين[11]. بل نجدهم يضعون رسالة مفيدة في ماهية الايمان وخصال المومنين المحققين [12] ألحوا فيها على تطهير النفس بنور العقل وروح العلم ليحيى المرء حياة عيش السعداء ويوفق للصعود إلى ملكوت السماء والدخول في زمر الملائكة والسيحان في فضاء الأفلاك وسعة السماوات[13].

ومعنى ذلك أن الدين عند اخوان ليس دينا طقوسيا تمارسه الحواس، وإنما دينا يتجاوز المظهر الخارجي الريائي إلى الغوص في تطهير النفس وتهييئها لمعانقة عالم الأرواح. لذا جاءت آرائهم في هذا الإطار – فياضة بالرموز التي تنحو منحى تثبيت الوئام بين أهل الديانات السماوية ؛ وتوصية الاتباع بضرورة تحكيم العقل، وذم الجهل، ونبذ التعصب المميت الذي يفضي إلى التزمت والتقوقع والحسد وتعطيل الفكر وتكدير النفس وتدنيسها بالشرور والفجور والآثام.

ومن هنا ندرك أن الأنبياء عند اخوان الصفا ليسوا هم الأفراد الذين نصت عليهم الأديان والكتب المنزلة فقط؛ بل منهم من لم تنص عليه. فوجدناهم يجمعون بين موسى وعيسى ومحمد وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم في طبقة واحدة [14].

وزعموا " أن الإنسان العاقل اللبيب إذا أكثر التأمل والنظر إلى الأمور المحسوسة واعتبر أحوالها بفكرته وميزها برويته كثرت المعلومات العقلية في نفسه، وإذا استعمل هذه المعلومات بالقياسات، واستخرج نتائجها، كثرت المعلومات البرهانية في نفسه. وكل نفس كثرت معلوماتها البرهانية، كانت قوتها على تصور الأمور الروحانية التي هي صورة مجردة عن الهيولى بحسب ذلك، وعند ذلك تشبهت بها وصارت مثلها بالقوة. فإذا فارقت الجسد عند الممات صارت مثلها بالفعل، واستقلت بذاتها ونجت من جهنم عالم الكون والفساد، وفازت بالدخول إلى الجنة عالم الأرواح التي هي دار الحياة الأبدية [15].

وإذا كان اخوان قد عمقوا النظر الفلسفي في المعارف والأديان فماهي المرجعية التي اعتمدوها في التأطير والتدوين؟

ذكر اخوان الصفا في رسالتهم الثانية المصنفة في الرياضيات وعلم العدد " أن علومهم مأخوذة من أربعة كتب هي:

1) الكتب المصنفة على السنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات.
2) الكتب المنزلة التي جاء بها الأنبياء مثل التوراة والانجيل والفرقان وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة، وما فيها من الأسرار الخفية.
3) الكتب الطبيعية، وهي صور أشكال الموجودات بماهي عليه الآن من تركيب الأفلاك، وأقسام البروج، وحركات الكواكب، ومقادير أجرامها، وتصاريف الزمان، واستحالة الأركان، وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات، وأصناف المصنوعات على أيدي البشر. كل هذه صور وكنايات -يقول اخوان الصفا- بأنها دالات على معان لطيفة وأسرار دقيقة يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون معاني بواطنها من لطيف الباري جل ثناؤه.

4) الكتب الالاهية (والنواميس الكونية) التي لايمسها إلا المطهرون الملائكة التي هي بأيدي سفرة (تسفير الأعمال). كرام بررة، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها، وتصاريفها للأجسام وتحريكها لها وتدبيرها إياها، وتحكمها عليها وإظهار أفعالها" [16].

وإذا كان المصدران الأولان المتمثلان في كتب الفلاسفة وأسفار الأنبياء معروفين فإن المصدرين الأخرين المتعلقين بالنفسيات والالاهيات لايمكن فهمها وإدراكهما إلا بتعميق الملاحظة والارتقاء بالفهم إلى مستوى التجريد والتأمل والاستلهام.

فأجناس الملائكة هي النفوس الخيرة الموكولة بحفظ العالم وصلاح الخليقة [17]، وأما عفاريت الجن ومردة الشياطين، فهي النفوس الشريرة الفاسدة المفسدة التي بقيت عمياء عن رؤية الحقيقة، صماء عن الاستماع للصواب، بكماء عن النطق الفكري في المعاني اللطيفة. فهي سابحة في ظلمات بحر الهيولى، غائصة في قعر من الأجسام المظلمة ذي ثلاثة شعب " تهوي في هاوية البرزخ (الحاجز بين الدنيا والآخرة)، كلما نضجت جلودهم (بالبلاء) بدلناهم جلودا غيرها (بالكون)، فذلك ذأبهم مادامت السماوات والأرض لابثين فيها أحقابا لا يجدون برد نسيم عالم الأرواح، ولا يذوقون لذة شراب المعارف، فهذه حالهم إلى يوم يبعثون " [18].

وإلى جانب الرمز والتأويل اللذين أطرا التوجه الفكري لاخوان الصفا، فإنهم مالوا أيضا إلى القول ببواطن الأشياء وعدم الأخذ بظواهر الأحكام. حتى أنهم حين بحثوا في الصداقة والعشرة وكيفية الاهتداء إلى انتقاء الإخوان أوصوا في الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية بعدم الاغترار بظاهر الصحبة والعشرة من غير تحسس بواطنها.

"فمن الناس من يتشكل بشكل الصديق ويدلس عليك، مع العلم أن أخلاقه تخالف أخلاقك، حتى إذا طالت الصحبة على وجه النفاق انكشف الأمر، وصارت الوحشة وتحولت إلى المنازعة، والمنازعة توجب المغالبة، والمغالبة تنتج المغايظة، والمغايظة توجب المباغضة، والمباغضة ضد الصداقة " فصاحبها يشبه الموافق المنافق الذي يظهر لك المحبة وخلافها في صدره وضميره " [19].

وفي تواضع علمي — قل نظيره — يقر اخوان الصفا بأن ثمة أشياء جهلوها و لم يصلوا إلى فهم كنهها. فقد أعلنوا صراحة بأن مذهبهم في صفوة الصداقة وتكريس حسن المعاملة ليس هو عندهم برأي مستحدث، ولا مذهب محدث بل هو رأي قديم سبق إليه الحكماء والفلاسفة والفضلاء والأنبياء ... كما لم يجدوا حرجا في الكشف عن مصادرهم ومناهلهم حسب المواضيع التي طرحوها. هذا، فضلا عن اعتمادهم على السماع والتجربة والبرهان والحدس المعقلن مع اخضاعهم السماع والرواية للمنطق والعقل الذي جعله الإخوان هو الفيصل في تلقي المعارف وامتحانها وتقويمها" [20].

ومما يبين شغف الإخوان بالعلم والمعارف أنهم وقفوا من المعلم والتعليم وطالبي السؤال موقفا إيجابيا — فاعتبروا المعلم أبا للنفس وسبب لنشوءها، وعلة حياتها. فإذا كان الوالد هو أبو الجسد الذي أعطى الابن صورة جسدية، فإن المعلم هو الذي وهبها الصورة الروحانية؛ مع العلم أنهم وقفوا موقفا نقديا إزاء " أولائك الذين يتشبهون بأهل العلم ويتدلسون بأهل الدين، لا الفلسفة يعرفونها، ولا الشريعة يحققونها، ويدعون مع هذا معرفة حقائق الأشياء ويتعاطون النظر في خفيات الأمور الغامضة البعيدة، وهم لا يعرفون أنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم " [21].

ولعل من بين الميزات التي من الواجب أن يتحلى بها المعلم النبيه؛ هي أن يكون جيد الطبع، حسن الخلق، صافي الذهن، محبا للعلم، طالبا للحق، غير متعصب لرأي أو مذهب " [22].

وبلغ من تبجيلهم للعلم وأهله أنهم فضلوا رزق العلم على رزق المال لأن العلم سبب لحياة النفوس وتطهيرها؛ بينما المال سبب لاقامة حياة الجسد في دار الدنيا فقط [23].

وليس معنى هذا أن اخوان الصفا تنكروا للدنيا ومتاعها، بين وازنوا باعتدال بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. يشهد على ذلك تمجيدهم العمل اليدوي والافادة من الصنائع، كذا دعوتهم إلى التآخي والتكافل في مجتمع مدني يتعاون فيه الأعمى والبصير والغني والفقير ومن أوتي العلم مع من أوتي الرزق الوفير [24].

وبجمل القول، فإن مختلف الآراء التي أدلى بها اخوان الصفا في الالاهيات والطبيعيات والنفسيات والسياسة والاقتصاد والدين؛ كلها آراء عولت على تحكيم العقل والمنطق والحدس والبرهان، وهو ما يفيد بأن الجماعة سعت إلى تكوين مجتمع فاضل يساهم فيه كل الأفراد في تأسيس دولة أهل الخير التي يسوسها الحكماء العقلاء ويحتكم فيها لمنطق العقل وفضائل الشرائع والحكمة الخالدة؛ ويزرع في جنباتها روح المحبة ونقاء النفس وصفاء الأخوة. " فيزول ما علق بالشريعة " من الجهالات والضلالات، ويحصل الكمال للإنسان " [25].

ولتقريب صورة الرسائل وتوضيحها أرى من اللازم أن نستعرض الحصيلة استعراضا تقنيا، وذلك ليسهل الاستيعاب والكشف الإجمالي عن الأقسام الكبرى والخطوط العريضة التي تناولوها في المعارف والعلوم. وأحيل المهتم القارئ إلى فهرست الرسائل مثلما وضعها أصحابها للإطلاع أكثر على مضامين الرسائل ومواضيعها.

تتكون الرسائل من اثنين وخمسين رسالة إذا أضفنا إليها الرسالة الجامعة، وإن كان التوحيدي قد حصرها في خمسين فقط. وهي مبوبة في أربعة أقسام :

*** رسائل رياضية تعليمية:**

احتوت الرسائل الرياضية على أربعة عشر رسالة ودارت في مجملها حول فلسفة العدد والهندسة والنجوم وتركيب الأفلاك والموسيقى، وصورة الأرض، و النسب العددية والهندسية والصنائع العلمية النظرية والعملية والمهنية واختلاف الأخلاق . وكتبوا الرسالة العاشرة في " أيساغوجي " وهي الألفاظ الستة التي تستعملها الفلاسفة في المنطق والأقاويل والمخاطبات والحجج والبراهين. والرسالة الحادية عشرة في " قاطيغورياس" وهو البيان عن المعقولات الكليات، وهي الألفاظ العشرة التي كل واحد منها اسم لجنس من الموجودات كلها. وخصصوا الرسالة الثانية عشر في "باريمانياس"، وهو الكلام في العبارات وأداء المعاني على حقها والإبانة عنها. ووضعوا الرسالة الثالثة عشرة في " أنولوطيقا الأولى " وهي القياس الذي كان يستعمله الحكماء والمتكلمون في الاحتجاجات والدعاوي والبينات والمناظرات، وتمييز الصدق من الكذب في الأقاويل والخطإ من الصواب في الآراء، والحق من الباطـــل في

الأفعال. أما الرسالة الرابعة عشر من هذا القسم فقد صنفوها في " أنولوطيقا الثانية " وهي البرهان أو ما يسمونه ميزان البصائر الذي يستعمله الصيارفة الالاهيون لقياس الأقوال والأفعال وتوضيح الحق المبين والعلم اليقين.

وما يلفت النظر في هذا القسم أن اخوان الصفا وضعوا المواضيع التي طرقوها وضعا ذا مغزى، إذ لم يبتدأوا بفلسفة العدد جزافا؛ بل لاعتباره مدخلا مفيدا لاستيعاب باقي العلوم الآتية من الرسائل اللاحقة من عقليات وطبيعيات ونفسانيات ونواميس إلاهية؛ حتى إنهم لم يبتدءوا بالعدد " واحد " الا لكونه أصل الموجودات؛ وجذر العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف وإسطقس المعاني [26]. كما لم يضعوا الرسالة الثانية في الهندسة النظرية إلا لكونها تشكل إحدى اللبنات الأساسية في تقويم العقل وتأسيس البرهان. وبينوا بأن غرض الفلاسفة الحكماء من النظر في العلوم الرياضية إنما هو ترويض أنفس المتعلمين للفلسفة ومحبة الحكمة واتخاذها بوابة معرفية لفهم الطبيعيات والعلوم النفسية والصعود بهما لأخذ الالاهيات التي تعتبر المعارف الحقيقية [27].

وليست صدارة القسم الرياضي عند اخوان الصفا ناشئة من كونها أصل البراهين المنطقية فحسب، بل هي ناشئة بفعل تأثرهم بالفيتاغورية الحديثة التي امتزجت فيها الرياضيات بالفلسفة الهرمسية التي ذاع صيتها في الاسكندرية وحران وجند سابور وأنطاكية وأفاميه وغيرها من المراكز العلمية المشهورة في مرحلة ما قبل الإسلام.

ويبدو أن تأثر اخوان الصفا بفلسفة الأعداد راجع إلى كونهم وضعوا غايات معينة، تبرهن على انسجام الكون وتفاعل الموجودات.

ولعل أهم ملاحظة يمكن الخروج بها من القسم الرياضي الذي غطى المجلد الأول من الرسائل أنهم وظفوا الأرقام توظيفا فلسفيا وروحانيا، واعتقدوا أن الحكماء هم الذين رتبوها وفق ترتيب الموجودات وفاضلوا بينها حسب الأدوار التي تقوم بها.

ففضلا عن تبجيلهم للعدد "واحد " الذي يرمز للالاه المتعالي أصل الموجودات فقد اعتمدوا أيضا العدد " أربعة " لأنهم اعتقدوا بوجود هذا العدد في أكثر الأمور الروحانية والطبيعية التي انبثـــقت عن الأصل وفاضت عنه.

[الحرارة – البرودة – الرطوبة – اليبوسة] [النار – الهواء – الماء – التراب] [الدم – البلغم – المرتان – الأخلاط] [الربيع – الصيف – الخريف – الشتاء] [العلوم الأربعة: الرياضيات – المنطقيات – الطبيعيات – الالاهيات].

وعلى هذه الأمثلة جرت أكثر الأمور الطبيعية التي هي مطابقة للأمور الروحانية.

[الباري عز وجل] [العقل الكلي الفعال] [النفس الكلية] [الهيولى الأولى].

*** الرسائل الجسمانية الطبيعية**

وهي سبعة عشرة رسالة خصصوا الرسالة الأولى " للهيولى والصورة " وماهيتها، ووضعوا الرسالة الثانية في " السماء والعالم، وكيفية أطباق السماوات؛ وتحركات الأفلاك وتسيير الكواكب.

أما الرسالة الثالثة فقد خصصت "للكون والفساد" والغرض منها بيان ماهية الصور المقومة لكل الأركان الأربعة المتمثلة في الماء والهواء والأرض والنار. والرسالة الرابعة في ألاثار العلوية وكيفية حوادث الجو وتصاريف الهواء. والرسالة الخامسة كرسوها لكيفية تكوين المعادن واختلاف جواهرها؛ وخصصوا الرسالة السادسة في ماهية الطبيعة، والسابعة في أجناس النبات وأنواعها، والثامنة في أصناف الحيوان وعجائب هياكلها وغرائب أحوالها. أما الرسالة التاسعة فقد تكلموا فيها عن " تركيب الجسد". وخصصت الرسالة العاشرة "للحاس والمحسوس"...

وتحدثوا في الرسالة الحادية عشرة في " مسقط النطفة " وكيفية رباط النفس بها، وبينوا أن التركيب والخلق والتكوين يتبع تأثير أفعال روحانيات الكواكب في أحكام بنية الجسد في قوامه ومزاجه.

وقالوا في الرسالة الثانية عشر بأن الإنسان عالم صغير مماثل لأحوال الخلائق الروحانيين من الملائكة والجن والشياطين وأرواح الحيوانات أجمعين. فهو خلاصة هذا العالم وثمرته وزبدته.

وفي الرسالة الثالثة عشرة وقفوا فيها عن كيفية نشر الأنفس الجزئية في الأجساد، وأوضحوا في الرسالة الرابعة عشر " بيان طاقة الإنسان في المعارف " أما الرسالة الخامسة عشرة فقد خصصوها " لماهية الموت والحياة " والحكمة في وجودهما وغرضهم منها تنبيه المريدين والاتباع إلى الاستهانة بالموت وإزالة الخوف منه لأن النفس تبقى خالدة بعد مفارقتها للجسد واستراحتها من أذاه.

ودارت الرسالة السادسة عشر حول " ماهية اللذات والالام الجسمانية والروحانية وعلة كراهية الموت، واللذة التي تنالها النفوس بسبب الأجسام، وتجردها في حب نفسها.

أما الرسالة السابعة عشر من هذا القسم فقد عالجوا فيها علل "اختلاف اللغات" ورسم الخطوط والعبارات، وكيفية مبادئ المذاهب والديانات والآراء والاعتقادات ودلالة الخواطر على اعتناق الأشياء أو النفور منها، وإيثار الإنسان الشيء عن غيره.

ومن الملاحظ أن اخوان الصفا لم يعبأوا بالجسد الذي هو مغرور بزينة المحسوسات [28] لأنه أصلا مكون من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجلد وما شاكله، وهذه المكونات هي في نظرهم أجسام أرضية مظلمة ثـــقيلة متغيرة وفاسدة؛ على عكس النفس التي ان أدركت حقيقتها ووقفت على استيعاب جوهرها لم تعبأ بمفارقة الجسد.

وهذا ما أوضحوه بإسهاب في القسم النفساني.

*** القسم النفساني والمبادئ العقلية:**

يشتمل هذا القسم على عشر رسائل، دارت في مجملها حول البحث فيما وراء الطبيعة، ومجال النفسانيات. إذ بحثوا من خلاله في مبادئ الموجودات، ونضد العالم، ونفس الإنسان، والعقل والمعقول والأدوار والأكوار، وماهية العشق وأنواع المحبوبات، وتركوا فصولا مهمة في البعث والقيامة، وكمية أجناس الحركات؛ والعلل والمعلولات، والحدود والرسوم.

وارتكزوا في تحليلهم لهذه القضايا على رأي الفيتاغوريين ومذهب الأفلاطونية المحدثة التي وظفوها في تعليل صدور الموجودات وانبتاقها بواسطة الفيض. وهذا ما يناقض مسألة الخلق التي تقول به الأديان.

وللنفس البشرية في نظرهم قوى كثيرة لايحصى عددها، غير أن أشرفها:

- القوة المفكرة ⟵ وموضعها وسط الدماغ
- القوة المتخيلة ⟵ وموضعها مقدمة الدماغ
- القوة الحافظة ⟵ مؤخرة الدماغ
- القوة الناطقة ⟵ مجراها اللسان
- القوة الصانعة ⟵ التي مجراها البدن والأصابع

فإذا ما تم توظيف هذه القوى وتشغيلها أمكن تحصيل المعرفة. وقد اتبعوا في مراتب هذا التحصيل تلك الحكمة الفلسفية القديمة التي وجدها سقراط، فيما تروي الأسطورة الاغريقية، وهي مكتوبة بأحرف من ذهب على عتبة معبد "أبولون" (اله الوحي والالهام والشعر) والتي تقول " اعرف نفسك بنفسك". ومن ثمة فقد أعطى اخوان الصفا للمعرفة الإنسانية قيمة أولية؛ إذ وضعوها شرطا الزاميا وضروريا لولوج باقي المعارف. "والا فمثله كمثل من يزعم أنه يعالج المرضى وهو سقيم أو يدعي بأنه يساعد الفقراء وهو مدقع، أو أنه يحاول أن يرشد الناس في الطرقات وهو لايعرف طريق بيته ".

وإذا فمسألة النفس تعتبر قضية محورية في فلسفة اخوان الصفا وعليها دارت أسس التدبير وتهذيب الأخلاق وزرع المحبة والصداقة بين البشر بهدف الوصول إلى الطهر والكمال وتحقيق الخلاص؛ حتى إذا ما فارقت الأجساد البائدة ارتقت إلى الملإ الأعلى ودخلت في زمرة الملائكة إلى أن تتحد بالله في اليوم الأخير. أما إذا استمرت في عمائها وبقيت عاجزة عن السمو وإدراك حقائق الأشياء وفارقت الجسد فإنها لا تقو النهوض لتتصل بخالقها، وذلك هو العذاب والخسران المبين.

وهكذا فالدنيا عند اخوان الصفا هي دار محنة وبلاء واختبار والغرض منها تتميم صورة النفس، وتكميل فضائلها.

وإذا كان اخوان الصفا يومنون بالبعث وينتقدون الدهريين الذي يكفرون بالآخرة. فإن البعث الحقيقي عندهم ليس البعث كما يتصوره العامة من قيام الأجساد من التراب ورجوع الأرواح إليها، وإنما هو الانتباه من نوم الغفلة واليقظة من رقدة الجهالة، والحياة بروح المعارف والتنوير والخروج من ظلمات الأجساد الطبيعية كما أن الحشر عندهم هو جمع النفوس الجزئية واتحادها بالنفس الكلية، والحساب هو موافقة النفس الكلية على أعمال النفوس الجزئية. أما الصراط فهو الطريق المستقيم القاصد إلى الله تعالى والخلود. في حين أن الجنة، مكانها في عالم الأفلاك الذي هو عالم الدواء والبقاء والخلود في النعيم وانتقدوا أولائك الذين يميلون إلى الاعتقاد بأن المرء يتزوج في الجنة ويلتد ويشرب الخمر ويأكل الطيور المشوية، وأن الله يأمر الملائكة بأخذ الكفار والعصاة وقدفهم في النار، حتى إذا صاروا فحما ورمادا أعاد الله فيها الرطوبة والحياة ليدوقوا وبال أمرهم والعذاب من جديد.

وليس معنى ذلك أن اخوان الصفا ينكرون ما نطق به الأنبياء من صفة الجنة ونعيم أهلها وعذاب النار وأحوال القيامة، وإنما غرضهم من وصف تلك الأشياء وصفا جسمانيا على سبيل التشبيه ليقربوا فهمها للناس.

*** العلوم الناموسية الالاهية الشرعية:**

في هذه العلوم ضمنوا فيه إحدى عشر رسالة بما فيها الرسالة الجامعة. فقد خصصوا – الرسالة الأولى في الأراء والمذاهب، وبينوا فيها اختلاف كمية إدراك المعلومات واختلاف العلماء في توصيل الحقائق، وأوضحوا أن الديانات توضع لأقوام انحرفوا عن طريق النجاة، وبعدوا عن الرشاد. ووضعوا الرسالة الثانية في ماهية الطريق إلى الله وكيفية الوصول إليه، والغرض منها حث النفس على التهذيب وإصلاح الأخلاق وتطهير السرائر.

وكشفوا في الرسالة الثالثة عن اعتقاد اخوان الصفا وخلان الوفا ومذاهب الربانيين الالاهيين، وقد هدفوا منها إقامة البرهان على بقاء النفوس وخلودها بعد الموت الذي يعني عندهم *مفارقة الأجساد*. وتحدثوا *في الرسالة الرابعة من هذا القسم عن كيفية عشرة اخوان* الصفا وتعاون بعضهم مع البعض في أمور الدين والدنيا. وتكلموا في الرسالة الخامسة في ماهية

الإيمان وخصال المومنين، والذي يبقى في نظرهم من العلوم الغامضة والأسرار الخفية التي تنتمي للروحانيات والقضايا النفسية. ووضعوا الرسالة السادسة في ماهية الناموس الالاهي والوضع الشرعي وشرائط النبوة ومذاهب الربانيين ومرموزاتهم المقصودة. وبينوا في الرسالة السابعة كيفية الدعوة إلى الله عز وجل بصفوة الأخوة وصدق الوفاء. ودارت الرسالة الثامنة حول كيفية أفعال الروحانيين والجن والملائكة والمردة والشياطين. بينما خصصوا الرسالة التاسعة "لكمية أنواع السياسات" ومراتب المسوسين وصفات المدبرين لها في العالم. أما الرسالة العاشرة فقد وقفوا فيها على ترتيب العالم ونظام الموجودات الفائضة عن فعل الله الذي هو علة العلل ومبدأ المبادئ الفائضة. في حين خصصوا الرسالة الحادية عشر والأخيرة التي يحتمل أن تكون هي الرسالة الجامعة لماهية السحر والعزائم وماهية العين والزجر والفأل والوهم والرقي وكيفية أعمال الطلسمات، وناقشوا فيها عمارة الأرض، ومسألة الجن والشياطين والملائكة والروحانيين وكيفية تأثير بعضهم في بعض. ونبهوا إلى أن هذا العلم المتعلق بالسحر والطلاسم مأخوذ من الكتب السماوية وكتب الحكمة وملازمة العلماء وأهل الاختصاص. وقد بينوا أن الغرض من السحر هو معرفة ما ينجم عنه من شر لاجتنابه. لذلك ألحقوا علم السحر والطلسمات بأحكام النجوم؛ وأوصوا بابعاده عن العامة تماما مثل دعوتهم بابعاد الطب والكيمياء عنهم لأنهم ليسوا مؤهلين للإدراك والاستعمال على عكس الحكيم النبيه الذي يعرف كيف يخلط ويزاوج بين الأشياء ويعملها في الوقت الذي ينبغي فيه ذلك، كذا معرفته النسبية واستواء الأنصبة وإجراء الروحانيات في الجسميات وتركيب الأجسام على الأجساد وإمكان الأرواح فيها بعد الممات [29].

وعددوا السحر الحلال وأحصوه في الزجر والفأل والرقى والعزائم وعمل الخواتيم وربط الروحانيات ونصب الطلسمات ووضع العلامات. ونقلوا في هذه الرسالة الأخيرة جملة من الأخبار تدل على أثر فعل النجوم في حياة الفرد ومصيره، وذكروا فيها أن هذه الأسرار الفلكية أخذوها من التدابير الهرمسية والأنباء الادريسية التي كان صاحبها من أعلم أهل الدنيا في علم النجوم .

خلاصة القول فإن رسائل اخوان الصفا وغناها المعرفي تعتبر من بين أهم المصادر التي لا غنى لدارس الفكر والفلسفة والتاريخ من الرجوع إليها؛ فهي تقدم منهلا ثريا للمعارف والعلوم؛ وتقدم وجها مشرفا لانجازات العقل العربي الإسلامي المستنير الذي خبا بفعل ثقل أنصار مدارس التقليد والاتباع؛ وغلبة أهل الأثر على أهل النظر الذي ساد العالم الإسلامي بدءا من منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد.

ولاشك أن المرجعية العامة التي اعتمدوا عليها في التأليف قد نبعث من صميم محيطهم الاجتماعي والسياسي الذي ميز ثقافة القرن الرابع الهجري والذي نعتبره ترجيحا بأنه القرن الذي ظهرت فيه الرسائل؛ كما لانستبعد أن يكون للموروث الثقافي اليوناني حضوره وتأثيره في مكونات تلك المعارف التي حملتها موسوعة اخوان الصفا .

الهوامش:

[1] - انظر : كتاب الحيوان، ج1، ص : 43 -44.
[2] - الذهبي: العبرفي خبر من عبر، ج2، ص : 61 ، دائرة المطبوعات والنشر- الكويت 1961.
- ابن الجوزي ، المنتظم...، م5، ص : 122.
[3] - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج11، ص : 340، المطبعة الحسينية، دون تاريخ.
- السيوطي: تاريخ الحلفاء، ص : 367 – 370، مطبعة السعادة، مصر 1952/1371.
[4] - توفيق الطويل: قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ص : 110، القاهرة 1958.
[5] - انظر: الرسائل، ص:171، دار صادر، بيروت 1957.
[6] - الجابري، عابد: تكوين العقل العربي، ص : 141 – 142، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1984.
[7] - المقابسات، ص: 25، تعليق د. علي شلق، دار المدى، بيروت. ط 1. 1986.
[8] - انظر الرسائل، ج1، ص : 42 - 43.
[9] - نفسه، ج4، ص : 167.
[10] - نفسه، ج 4، ص : 18.
[11] - نفسه، ج 4، ص : 55.
[12] - نفسه، ج 4، ص : 67.
[13] - نفسه، ج 4، ص : 78.
[14] - نفسه، ج4، ص : 18.
[15] - نفسه، ج1، ص : 451.
[16] - نفسه، ج 4، ص : 42.
[17] - نفسه، ج1، ص : 143.
[18] - نفسه والجزء والصفحة.
[19] - نفسه، ج4، ص :47.
[20] - محمود اسماعيل: نهاية أسطورة، نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل اخوان الصفا، ص :21.
[21] - نفسه، ج4، ص: 51.
[22] - نفسه والجزء والصفحة.
[23] - نفسه، ج4، ص: 55.
[24] - نفسه والجزء والصفحة.
[25] - نفسه،ج1، ص :8.
[26] - الاسطقس : الأصل، الاسطقسات الأربعة هي : الماء والأرض (التراب) والهواء والنار.
[27] - الرسائل، ج1، ص : 57 - 58.
[28] - نفسه، ج4، ص :26.
[29] – نفسه ، ج 4 ص: 425

الخلفية التاريخية للمعاهدات المبرمة بين قرطاجة وروما قبل الحروب البونيقية

ذ. عمر علوي الامراني
كلية الآداب – مكناس

الملخص:

اختلف الباحثون في مسألة ترتيب المعاهدات القرطاجية الرومانية من الناحية الكرونولوجية حسب شكلها ومضمونها إلا أنه إذا نظرنا لتلك المعاهدات في إطار التطور التاريخي العام للدولتين داخليا وخارجيا، وقارنا بين شكل ومضمون تلك المعاهدات والأحداث التاريخية، نستطيع إيجاد صيغة مقبولة، لترتيبها كرونولوجيا وموضوعيا.

تمهيد

يلاحظ المتتبع للعلاقات القرطاجية الرومانية، مدى عمقها وارتباطها الوثيق بالظروف التاريخية العامة للبحر الأبيض المتوسط في التاريخ القديم. كما يمكنه أن يسجل أن الأساس في تلك العلاقات كان هو الحفاظ على التوازن الاستراتيجي في البحر المتوسط عموما وفي الحوض الغربي منه على الخصوص؛ وتظافر الجهود فيما بينهما للوقوف ضد أي قوة أخرى يمكن أن تنافسهما في الحوض الغربي.

وهكذا فإن الوجود الإغريقي بالمنطقة عمل إلى حد كبير على توحيد صفوف القوتين وعلى تجاوز التناقضات الثنائية فيما بينهما مرحليا؛ بل كان كذلك من بين أهم العوامل التي وحدت العالم الفينيقي الغربي نفسه تحت النفوذ القرطاجي.(1) وقبل تناول علاقات روما، العهد الجمهوري، مع قرطاجة، لابد من الإشارة إلى أنه حتى بالنسبة لروما العهد الأتروسكي (أي قبل 509 ق.م) فقد كانت دواعي الوقوف أمام أخطار القرصنة الإغريقية، من بين الأسباب في

تقاربهمـــا. هـــذا التقارب الذي أدى إلى هزيمة الإغريق في الآليا Alia سنة 535 ق م وقطع طريق كرسيكا وسردينيا عليهم.(2)

وهكـــذا فإنـــه انطلاقا من مفهوم التحالف بمعناه الواسع، بين قرطاجة وروما، على نطاق البحر الأبيض المتوسط ضد القوة الهيللينية، يمكن فهم ورصد العلاقات الثنائية بينهما.

لقـــد دخـــلت روما في صراع قوي ضد جنوب إيطاليا، ولعب إغريق صقلية دورا خطيرا، ولمـــدة طويـــلة، في إحـــداث غرب البحر الأبيض المتوسط، وتصدر الأحداث في بعض الأحيان، خاصة ضد قرطاجة.

واعتـــبارا لهذا الدور الإغريقي الخطير في المنطقة أصبح لزاما على روما وقرطاجة أن يتفاهما. وهـــذا فعلا ما تجسده وتؤكده المعاهدات المبرمة بين القوتين منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد إلى الثلث الأول من القرن الثالث قبل الميلاد.

المعاهدات المبرمة بين القوتين:

إن التعرض لهذه المعاهدات هو في الأساس محاولة للإجابة عن بعض الأسئلة مثل:

- متى تم أول اتصال بين روما وشمال إفريقيا؟
- ما هي طبيعة العلاقات بين روما وقرطاجة قبل الحروب البونيقية؟
- وعلى أي أساس كانت ترتكز تلك العلاقات؟

وهل كان يشم منها ما يبرر قيام حرب بينهما؟

إن تـــلك المعـــاهدات حســـب ما أوردته المصادر أربعة. وقد عرضها جاك هوركون(3) اعـــتمادا على ما جاء عند بوليب وديودور الصقلي وتيت ليف. وترجع المعاهدات حسب ترتيبها الزمني لسنوات 509 و348 و306 و279 قبل الميلاد.

لكـــن هـــذه المعاهدات من حيث الشكل والمضمون كانت موضوع نقاش طويل بين من يـــنكر الأولى ويثبت الثانية مكانها، أو ينكر الثانية ويجعل الثالثة عوضها أو ينكرها، أو يجعل الرابعة هي الثالثة، الأمر الذي يتبين معه بوضوح أن الأولى كانت أساسا مثار شك وريبة على العموم.

وإذا تركـــنا جانـــبا هذا الشك، مرحليا، فإن ما جاء في المعاهدة الأولى يوضح لنا أن أول اتصـــال لـــروما العهد الجمهوري مع قرطاجة، كان منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وأن هذا الاتصـــال كـــان اتصالا رسميا بين دولتين متساويتين من الناحية القانونية، وهذا ما تجسده المعاهدة الأولى بيـــنهما لســـنة 509 ق م، والتي كانت لها أبعاد تجاريـــة من جهة، كما كانت تهدف إلى تحديـــد مناطـــق النفـــوذ بين الدولتين من جهـــة أخرى.

إلا أن هـــذا التاريخ الذي أورده بوليب يضع مشكلا منهجيا عند الباحثين باعتبار مضمون المعاهدة والظروف التاريخية لروما، آنذاك؛ الشيء الذي جعل الباحثين يتشككون في مصداقية هذا التاريخ بل وينكرون حتى المعاهدة نفسها.

لقـــد أخبرنا بوليب عن ثلاث معاهدات بين القوتين مبينا أن أولاها كانت لسنة 509 ق م. وهـــي التي وصفها بأنها كتبت بلاتينية قديمة جدا يصعب على المتمرسين في عصره ترجمتها.(4) ثم يذكـــر معاهدتين أخرتين، لكنه لم يبد أي ملاحظة حولها مثل ما فعله في الأولى، كما أنه لم يعين للـــثانية تاريخا محددا، بينما جعل الثالثة معاصرة لنزول بيرهوس بإيطاليا، وهذه المعاهدة تتفق مع التي جعلها تيت ليف سنة 279 ق م.(5)

أمـــا ديودور الصقلي فلم يشر إلا لمعاهدة واحدة وهي معاهدة 348 ق م والتي تعد في نظره الأولى.(6) ويذكـــر تيـــت ليف بدوره هذه المعاهدة لكنه لم يرتبها بل تركها مبهمة لكنه بالنسبة لمعـــاهدة 306 ق م يـــرى بأنها تعد تجديدا ثالثا لمعاهدة سابقة.(7) أما معاهدة 279 فتعتبر في نظره تجديدا للمرة الرابعة.(8)

إن كـــل المعـــاهدات الـــتي أوردها بوليب كانت منحوتة على ألواح برونزية ومحتفظا بها بالكابتول، وإن كان الرومان يجهلونها قبل عصره.(9)

مناقشة ما تثيره تلك المعاهدات من قضايا شكلا ومضمونا:

إذا تركـــنا جانـــبا الخوض في مناقشة مسألة ترتيب تلك المعاهدات بالمقارنة مع ما جاء عند تيـــت ليـــف وديودور، لأن النتيجة لن تلغي، على كل حال، أيا من المعاهدات؛ فإنه يجدر بنا أن نـــتطرق للموضـــوع في عمقـــه أي انطلاقا مما جاء فيها في محاولة لمعرفة نقط الضعف في المعاهدة الأولى والتي يمكن أن تجعلنا نشك في المصداقية التاريخية للمعاهدة ككل أو العكس.

فبموجب معاهدة 509 ق م تعهدت قرطاجة بأن لا تتعرض للمدن اللاتينية طالما بقيت هذه المـــدن عـــلى ولائهـــا لـــروما. وأن تعيد قرطاجة لنفوذ روما كل مدينة متمردة ضد روما تكون قـــرطاجة قـــد اســـتولت عـــليها. وفي المقابل، نجد روما قد تعهدت فيها بأن لا تتجاوز، هي أو حـــلفاؤها أثناء إبحارهم منطقة الرأس الطيب؛ إلا لأسباب قاهرة كالعواصف أو لمطاردة الأعداء. ولا يـــرخص لهـــم بشراء أو اقتناء أي شيء إلا ما كان ضروريا لترميم سفنهم أو لإقامة شعائرهم الدينية، على أن يرحلوا في فترة لا تتجاوز الخمسة أيام.(10)

إن مـــا يـــثير الانتباه، فعلا في هذه المعاهدة، هو ما جاء فيها بالعبارة الواضحة حول تعهد قـــرطاجة بألا تتعرض للمدن اللاتينية طالما بقيت على ولائها لروما. وأن تعيد إلى سيطرة روما كل مديـــنة لاتيـــنية متمردة عليها. لكن هل كانت روما فعلا تسيطر سنة 509 ق م على اللاتيوم حتى ترد المعاهدة بهذه الصيغة؟

إنـــنا نعرف أن نهاية الهيمنة الاتروسكية على مدينة روما لم تكن نتيجة ثورة وطنية رومانية، وإنمـــا كانت نتيجة تظافر جهود كل من الإغريق واللاتينيين وثورتهم في وجه الأتروسكيين، وأن مديـــنة روما لم تلعب أي دور في كل ذلك(11)، بل أكثر من ذلك فإن مصالح مدينة روما كانت مرتبطة بمصالح الأتروسكيين، الشيء الذي يفسر لنا عداوة اللاتينيين لها وقتالهم لأهلها.(12)

كمـــا نعـــرف أن مديـــنـــة روما كانت إحدى المدن الثلاثين التي كانت تشكل العصبة اللاتيـــنيـــة، وكانت تشترك معها في تقديم القرابيـــن.(13) كما أن طرد الاتروسكيين من اللاتيوم فـــرض عـــلى تـــلك المـــدن توحيد صفوفـــا للوقـــوف أمام تهديـــدات الهجمات الخارجيـــة

المتمثلة في زحف القبائل الجبلية على السهل. (14) وهو ما أدى إلى عقد التحالف الذي تتحدث عنه الحوليات، بين روما والمدن اللاتينية سنة 493 ق م.

إن ما نريد توضيحه هنا هو أن اللاتينيين كانوا يحتفظون باستقلالهم وسيادتهم وأنه في الأوقات الحرجة كان يجتمع ممثلو الرومان واللاتينيين لتدارس الوضع واتخاذ قرار التحرك المشترك الذي يتطلبه الموقف، وتعيين القائد الأعلى المكلف بقيادة العمليات.(15) والأهم من كل ذلك هو أنه لا يمكن القول بأن المدن اللاتينية كانت تحت سيطرة روما سنة 509 ق م. بل إن المستعمرات التي ضمتها روما خلال القرن الخامس والنصف الأول من القرن الرابع، هي في الحقيقة مستعمرات لاتينية، وذلك لأن المستعمرات الرومانية لا يمكن الحديث عنها إلا حوالي 335 ق م مع بناء ميناء أستيا Ostia(16) الشيء الذي يؤكد أن روما خلال القرن الخامس لم تكن سوى عضو في الحلف اللاتيني الذي كانت تتزعمه تسكلوم Tusculum.(17)

وهكذا لا يجوز، من ناحية الواقع التاريخي، أن تتحدث روما باسم المدن اللاتينية باعتبارها مدنا خاضعة؛ وهذا أمر يجعل كل باحث نزيه يشك في وجود معاهدة 509 ق م؛ سيما وأن معاهدة 348 ق م مشابهة لها على الرغم من وجود بعض الإضافات. وقد سبقت الإشارة إلى أن هناك من القدامى من يجعل هذه أولى المعاهدات بين قرطاجة وروما.(18)

ويمكن أن يزداد هذا الشك إذا علمنا ما لحق الروايات الرومانية المتعلقة بمرحلة ما قبل الغزو الغالي من تشويه لأنها كانت تقدم روما وكأنها قد فرضت حلفا على اللاتينيين.(19)

لكن ماذا تعني معاهدة 509 ق م في الحقيقة؟

منذ العهد الاتروسكي كان لقرطاجة امتياز وجود ساكنة يونيقية بالمدينة الاتروسيكية كايرى Caere وميناؤها بيرجي Pyrgi وقد كان تأثير هؤلاء واضحا في المدن المجاورة وفي وادي التيبر الخاضع للطرخانيين.(20) وقد استفادت تلك الجالية، نتيجة حسن تصرفها، حتى بعد الثورة على الملوك الاتروسكيين، الشيء الذي يجعل توقيع أول معاهدة رومانية بونيقية أمرا ممكنا جدا ولو في سنة 509 ق م أولى سنوات العهد الجمهوري(21)، خاصة إذا علمنا أن هذه المعاهدة

كـــانت تجديـــدا لمعـــاهدة قديمة بين البونيقيين والاتروسكيين في الوقـــت الذي كان فيه هؤلاء يمارسون هيمنة ولو شرفية على مجموع اللاتيوم.(22)

وحرصـــا من البونيقيين على إنجاح سياستهم، التي تعمل جادة على قطع الطريق أمام الخطر الإغـــريقي الذي يهدد القوتين، اقترحوا مباشرة بعد الثورة تجديد المعاهدة السابقة المبرمة منذ العهد الاتروسكي.

وحرصـــا مـــنهم أيضـــا على عدم إزعاج أصدقائهم الجمهوريين الجدد فإن البونيقيين قبلوا إعـــادة صـــياغة المعـــاهدة الجديـــدة بنفس البنود وإن كانت لا تتفق والنفوذ الفعلي لروما العهد الجديـــد.(23) سيما وأننا نعرف أنه لم تعد لروما تلك المكانة التي كانت لها في العهد الملكي، ذلك أن مســـاعدة اللاتينيين لها ضد بورسينا Porsenna، جعلتها تفقد هيمنتها في اللاتيوم، وبالتالي أصبح سكانه اللاتينيون لا يرون ما يوجب عليهم الخضوع لزعامتها.(24)

وهكـــذا نجد معاهدة 509 تتضمن بنودا تنسب لروما هيمنة ترابية لن تكون لها، في الحقيقة، إلا بعد قرن ونصف، الأمر الذي يتناسب ومعاهدة 348 ق م.

والنتـــيجة، اعـــتقد البعض أن هذه الأخيرة هي الأولى وبالتالي رفضوا ما أورده بوليب في موضـــوع معاهدة 509. وإن كان آخرون(25) يقبلونها على اعتبار ما أورده بوليب في الموضوع من إشـــارات أهمها تلك التي توضح أنها كتبت بلغة قديمة يصعب فهمها حتى على المتمرسين المثقفين في عصـــره(26)، الأمـــر الـــذي يجعل المعاهدة بعيدة عن أن تكون قد كتبت بعد القرن الرابع قبل الميـــلاد. إذن يـــبقى الرأي الراجح هو أن معاهدة 509 ق م تعد أقدم معاهدة بين قرطاجة وروما كما تعتبر أول اتصال لها بشمال إفريقيا بعد قيام العهد الجمهوري.

أمـــا الذين يعتقدون بأن معاهدة 348 ق م هي أول معاهدة(27)، وبالتالي تاريخ أول اتصال بيـــنهما، فإنهم يرتكزون على التحالف الذي جمع مرة أخرى بين روما وقرطاجة ضد الإغريق سنة 348 ق م، بعدمـــا ظلت معاهدة 509 ولمدة طويلة عبارة عن نص ميت(28)، لأنها كما رأينا لم تكن تتفق والواقع السياسي لروما.

عـــلى كل فإنه تبعا للتغييرات التي عرفتها روما ما بين 509 و348 ق م، أصبح من الضروري تجديـــد المعـــاهدة الســـابقة. وهـــذا فعلا يتفق مع وجهة النظر التي تجعل 348 ق م المعاهدة الثانية لبوليب(29)، مع العلم أن هذا الأخير لم يشر إلى تاريخها.

لكـــن إذا أخذنا بعين الاعتبار الرأي القائل بأن 348 هي الأولى فإن هناك من يجعل المعاهدة الثانية في سنة 343 ق م أو 306 ق م.(30)

إلا أن نظرة دقيقة في الموضوع، تجعلنا نشك في ذلك، وذلك للاعتبارات الآتية:

❖ أولا: إذا اعتـــبرنا تـــاريخ 306 ق م، فإن روما في أواخر القرن الرابع هذا كانت قد سيطرت عـــلى اللاتيـــوم كله بل وعلى مناطق أخرى وراءه. إذا كيف يعقل أن تسمح روما في هذه الفـــترة والحالـــة هـــذه، بهجومات القراصنة على اللاتيوم أو تسمح بالأحرى بأخذ الغنائم والأسرى(31). أن هذا أمر غير مقبول.

❖ ثانيـــا: اعـــتمادا على ماسبق، يبقى إذن أن المعاهدة الثانية لبوليب ربما ترجع لسنة 343 ق م، وإن كـــان تيت ليف لا يذكر أنها تجديد لمعاهدة سابقة(32). وحتى لو افترضنا ذلك فإن هذا بـــدوره لا يحل المشكل على اعتبار أنه لا يعقل أن تقبل روما بعد 5 سنوات فقط شروطا لم تكـــن في صـــالحها، وهي الشروط التي تمنع عليها التجارة بسردانيا وإفريقيا أو الوصول إلى الشواطئ اللاتينية.(33)

إذن لابـــد من وجود فترة زمنية أطول يمكن أن تصل إلى قرن ونصف بين المعاهدتين ليعقل فهـــم تلك الشروط في إطارها التاريخي. وهذا فعلا ما يتفق والرأي الذي يجعل المعاهدة الأولى سنة 509 ق م والثانية 348 ق م.

هكذا يتضح أن أول اتصال بين روما وقرطاجة كان عبارة عن اتفاق بينهما لتنظيم التجارة والحـــد مـــن مساوئ القرصنة، ولم يكن تحالفا بينهما، الشيء الذي يوضح مدى تنافس وأطماع القوتـــين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط؛ سيما وأن الدبلوماسية القرطاجية كانت تعمل

في اتجـــاهين مضـــادين، اتجـــاه توقيع المعاهدات مع روما في نفس الوقت الذي كانت تحتفظ فيه بعلاقات طيبة مع الاتروسكيين.

لكـــنها لم تســـتطع الاستمرار طويلا في نهج تلك السياسة، خاصة عندما حدث الاصطدام بـــين رومـــا والاتروكســـيين وذلك عندما وقف هؤلاء إلى جانب السمناتيين ضد روما في مسألة كامـــبانيا.(34) لقـــد فضلت قرطاجة روما الأمر الذي أدى إلى القطيعة مع الاتروسكيين. وفعلا أعـــلن هـــؤلاء عداءهـــم الصريح للقرطاجيين بتقديم المساعدة للسرقوسيين المحاصرين من طرف القوات القرطاجية.

أمـــام تـــلك المعطيات، لابد من الوقوف عند إشارة تيت ليف التي تجعل معاهدة 306 ق م تجديدا ثالث لمعاهدة سابقة.(35)

صـــحيح إن دواعـــي التجديد واردة في هذه الفترة، على اعتبار أن روما قد أفصحت عن نيـــتها لتصـــبح قـــوة بحرية منذ سنة 310 ق م كما سبق أن رأينا أن الاتروسكيين كانوا يساندون الإغـــريق في المـــنطقة ضد القرطاجيين، بل أصبح الإغريق منذ 310 ق م يهددون التراب البونيقي، تحت قيادة اكاطوكليس.

أمـــام كل هذا فإن لاتفاقية 306 ما يبررها، ومن الطبيعي أن تتصرف قرطاجة بما يضمن لها صداقة روما إلى جانبها.

أمـــا فيما يتعلق بالتسلسل العام للمعاهدات فإن هذا لن يخل به، فعلى الرغم من أن بوليب وديـــودور لم يشـــيرا إلى هذه المعاهدة، عكس تيت ليف الذي جعلها تجديدا ثالثا لمعاهدة سابقة، فإنـــنا نـــبقى مـــنطقيين مع ما قلناه فتكون المعاهدة الأولى سنة 509 والثانية 348 والثالثة 306 ق م. لكن ما هو مضمون هذه المعاهدة الأخيرة؟

إنـــه أساســـا الالتزام المتبادل بين الطرفين بعدم الإبحار قرب الشواطئ التابعة الالتزام المتبادل بـــين الطرفين بعدم الإبحار قرب الشواطئ التابعة لكل منهما؛ وكذا الحد من أي عمل يهدف إلى السيطرة أو التدخل السياسي لروما ليس في صقلية فحسب ولكن في كرسيكا أيضا.(37)

مـــن كل ما سبق يتضح إذن أن علاقة روما مع قرطاجة لم تكن علاقة عداء، ولكن علاقة سلم يشوبها كثير من الحذر.

كمـــا يظهر أنه إلى حدود هذا التاريخ لا يمكن أن نتحدث عن أي صلة تربط روما باهالي شمـــال إفـــريقيا لأن روما كانت تتعامل مع كيانات سياسية رسمية. كما يتضح أن تلك المعاهدات كـــانت تهـــدف إلى الحفـــاظ، المتبادل للقوتين، على مكتنسباتهما، ووقوف كل منهما إلى جانب الأخرى ضد أي تهديد في المنطقة خاصة ضد الخطر الإغريقي.

وهـــذا مـــا تعبر عنه المعاهدة الأخيرة بين الطرفين لسنة 279 ق م. وهي المعاهدة الرابعة بين القوتـــين، وهـــي تؤكد بدورها الاتفاقيات السابقة ولكنها تزيد عليها شروطا تنص على وجوب تقـــديم المساعدة فيما بينهما ضد عدوهما المشترك برهوس ملك الابير كما أنها لا تسمح بتوقيع أي اتفاقية منفردة معه.(38)

لكـــن إذا كـــان من الواضح أن المعاهدات السابقة بين القوتين، إلى حدود هذا التاريخ، قد لعـــبت دورا مهما في الحفاظ على ميزان القوى في المنطقة، فإنه يمكن أن نسجل أنه ابتداء من هذه المعـــاهدة الأخـــيرة حدث نوع من التراجع عن أهم البنود التي كانت تحرص كل قوة منهما على التشـــبث بـــه، ونقصـــد به تراجع الطرفين ضمنيا عن المنع المتبادل والمفروض على كل منهما عن النزول بأراضي الطرف الآخر. إذ هناك من بين بنود المعاهدة بند ينص على أنه إذا طلبت قرطاجة أو رومـــا العـــون من الأخرى فإنه يجب على القوة المطلوب منها أن تتوجه لتقديم المساعدة بالبلد الذي تخوض الأخرى الحرب فيه.(39)

كمـــا يمكـــن أن نسجل في هذه المعاهدة خللا لصالح روما. وهو الذي يجعل هذه الأخيرة، ضـــمنيا، تستفيد أكثر من المعاهدة، ويتجلى ذلك في البند الذي ينص على أنه مهما يكن الطرف الـــذي يحتاج المساعدة، فإن القرطاجيين يلتزمون بتوفير السفن لذلك ذهابا وإيابا، وإن كان البند يـــلزم كـــل طرف بتوفير المؤن الضرورية لجنوده. كما كان على القرطاجيين من جانب واحد أن

يقدمـــوا العون في البحر للرومان متى كان هؤلاء في حاجة إلى ذلك، وإن كان هذا موجها أساسا ضد مدينة تارانت.(40)

عـــلى كل يظهر أن روما كانت المستفيدة أكثر، وذلك ربما يرجع لكونها في هذه الفترة لا تـــتوفر عـــلى قوة بحرية أو أسطول يجعل قرطاجة تنتظر العون منها في هذا المجال؛ وإن كان هناك ســـبب آخر يمكن أن يبرر قبول قرطاجة لهذه المعاهدة بهذه الصيغة، ويتجلى في أن قرطاجة كانت مستعدة لتقديم أي عون يوقف الخطر عنها من بعيد.

وهكـــذا فلكي تجعل حدا للتحالف الإغريقي بقيادة بيرهوس فضلت أن تقدم العون لروما، وبذلك تضمن، في نفس الوقت، روما إلى جانبها.

خاتمة

هكـــذا يتضـــح أن العلاقـــات بين أهم القوات الموجودة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ونعني بهما قرطاجة وروما، كانت علاقات تمليها المصلحة الخاصة لكل منهما.

وإذا استمرت العلاقة سلمية بينهما إلى سنة 265 ق م فإن ذلك يرجع أساسا إلى وجود قوة أخـــرى بالمـــنطقة كـــانت تهدد مصالحهما ونعني بها القوة الإغريقية. الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه باخـــتفاء ذلك العدو المشترك، ستتداخل مصالحهما وستطفو أنانيتهما وأطماعهما على السطـــح في مناطـــق بعضهما البعض، بدعوة أو بأخرى، كمقدمة للحـــروب المدمـــرة التي نشبت بينهما بعد ذلك فيما يعرف بالحروب البونيقية (264–146 ق م).

الهوامش:

1) S. Moscati, les phéniciens, trad fr. Coll marabout université, 1965 p. 130.
2) Ibid, p. 130.
3) J. Heurgon, Rome et la Méditerranée occidentale jusqu'aux guerres puniques. Coll. N^lle clio. P.U.F. Paris 69 pp. 386-395.
4) Polybe, III, 22
5) J. Henrgon, op cit. P. 386
6) Dlodore, XVI, 19, 1
7) Tite live, IX, 43, 26
8) Tite - Live, Per, XIII
9) St Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord (H.A.A.N), III, 67 ; p. 67, N° 2.
10) Polybe, III, 22
11) محمد محفل، تاريخ الرومان، ط1 دمشق 72، ص. 229.
12) نفس المرجع السابق، ص. 229.
13) A. Piganiol, Histoire de Rome, coll. Clio, Puf, 4° ed, Paris 54 p. 50.
14) L. Homo, Nouvelle histoire Romaine, colle marabout, Paris 69, p. 33
15) Ibid, p. 33
16) J. Henrgon, op. Cit, p. 289
17) R. Bloch et J. cousin, Rome et Son destin, lib. Arm . colin, 1° ed Paris 60, p. 43.
18) Diodore, XVI, 19, 1
19) M. Bordet, Précis d'Histoire Romaine, Arm. Colin, coll u, 5° ed Paris 80, p. 42.
20) G. ch. Picard et C. Picaed, vie et mort de carthage, Hachette 1970 p. 180.
21) iidem, ibid, p. 180.
22) iidem, ibid, p. 180.
23) iidem, ibid, p. 180 ; st Gsell, III, 69
24) Tite - live, II, 9, 11, 21
25) St Gsell, III, pp. 68-69.
26) Polybe, III, 22
27) Diodore, XVI ; 19, 1.
28) G. ch. Pieard et C. Picard, op. Cit. P. 181.
29) Polybe, III, 24
30) J. Henrgon, op. Cit, pp. 389-390.
31) St. Gsell, III, p. 70.
32) J. Heurgon, op. Cit. Pp. 386-387
33) St. Gsell, III, 71
34) G. ch. Picard et C. Picard, op cit, p. 182.

35) Tite – live, IX, 43, 26
36) J. Heurgon, op, Cit. P. 182.
37) St Gsell, III, 72, N° 1.
38) S. Moscati, op. Cit. P. 144.
39) St. Gsell, III ; 73.
40) B. H. Warmington , Histoire et civilisation de carthage 814 AV. JC. à 146 AV. JC. Trad. Fr. Payot, Paris 61, p. 210.

من وحدة التيمار إلى نظام الالتزام:
أضواء حول استغلال الأراضي في العهود العثمانية

ذ. قدور بوزياني

كلية الآداب - مكناس

تأخذ هذه المداخلة على عاتقها مهمة دراسة وتحليل بعض ما اعتمده العثمانيون من أشكال وأساليب في استغلال واستثمار ما كان تحت نفوذهم من أراضي واستغلاليات زراعية في البلقان والأناضول وبعض البلاد العربية. وقبل التطرق لمختلف جوانب هذه الإشكالية الحاضرة في ثنايا الكثير من القوانين العثمانية وفي متون عدة مظان وأبحاث الأبحاث التاريخية (1) يجمل بنا أن نمهد لها ببعض الملحوظات القمنية بتأطيرها وتبيان بعض قضاياها:

- شكلت الأرض والعمل الزراعي نقطة الارتكاز المحورية في بنية الاقتصاد العثماني ومثلت مصدر معيشة السكان الرئيسي. وعلى إيراداتها توقفت الكثير من جوانب الدورة الاقتصادية العثمانية . ومثل هذه الملحوظة هي المبرر الموضوعي لمعالجة هذه الإشكالية وتسليط ما يكفي من الأضواء حول الطرق المعتمدة عثمانيا في استثمار الأراضي والانتفاع بها.
- تعتبر السياسة العثمانية إزاء استثمار الأراضي حصيلة ما توارثته من تقاليد وهياكل إسلامية ومسيحية، وبالتالي فإن نزوع العثمانيين لتوظيف إيرادات الأراضي وفق حاجياتهم ومشاريعهم على مختلف الأصعدة اعتبر استمرار لما ترسخ من أعراف وقواعد في مجال الانتفاع من الأراضي وكانت هناك، حسب العديد من الكتابات (2) روابط عميقة بينما تبلور عثمانيا وما ساد من نظم وأعراف عبر الفضاءات الحضارية المجاورة منها والمعاصرة .

بفعل تعدد المرجعيات التي استند إليها العثمانيون في استثمار الأراضي واعتبارا لسعة وتنوع الامتداد العثماني، وارتباطا بالطابع العسكري للدولة العثمانية، ليس في مكنتنا أن نتحدث عن شكل محدد من أشكال الاستغلال بل التشديد على تنوع السبل المعتمدة لإدارة

الأراضي واستثمارها. ومن ثمة تعبئة دخولها بالقدر الذي يعزز المشروع العثماني، ويسهم في تغذية الخزينة المركزية ماليا وعينيا ودعم الآلة الحربية بشريا.

- ارتباطا بمضمون الملحوظة الثالثة واعتبارا للعديد من التقلبات التي ميزت أشكال الملكية ونظم الضرائب العثمانيين (3). سنقصر اهتمامنا في هذا البحث على بسط ومقاربة مختلف قضايا وحدة التيمار التي برزت كأداة استغلالية وإنتاجية في القرون الأولى لقيام الملك العثماني ونقف بعدها عند أهم العوامل والآثار الملازمة لتقعيد وتبلور نظام الالتزام عبر الفضاءات الجغرافية والحضارية العثمانية المختلفة.

على أية حال واستئناسا بالمضامين العامة لهذا التصدير نشير إلى أن العثمانيين وبفعل طبيعة دولتهم العسكرية قد بادروا منذ الفترات الأولى لحكمهم إلى تنظيم دولتهم على على أساس إقطاعي عسكري وذلك كحصيلة لما ورثوه من مؤثرات حضارية مختلفة ولحاجتهم في الاستفادة من هذا النظام الذي يقوم على أساس منح الأراضي للمحاربين مقابل التزامهم بتقديم خدمات أمنية وإدارية للسلطة المركزية، والإسهام في المجهود العسكري لدولة غازية مثلث الحرب بالنسبة لها حالة شبه دائمة (4). وبصرف النظر عن أشكال الملكيات وأصناف الأراضي التي شـــهدها الفضاء الحضاري العثماني، وهي مبسوطة في أكثر من تأليـــف ودراسة (5) فما يعنينا هي الأراضي الأميرية أو أراضي الميري التي شكلت معظم الأراضي الصالحة للزراعة. وعادت ملكية الرقبة فيها حسب تفسيرات المفتي الشهير أبي السعود (6) (ت 1574) للدولة واعتبر السلطان مالكها الأعلى، له أن يمنحها لمن يشاء على أساس التصرف بها أو حق الانتفاع منها مقابل تأدية خدمات معينة تجاه الدولة (7) ، وبناءا عليه، كان الجانب الأكبر من أراضي الميري، ينقسم إلى إقطاعات، بعضها وهي الخواص الهمايوني، عاد دخلها الذي كان مرتفعا إلى خزانة السلطان الخاصة وعائلته وأهل الخدمة في القصور وكبار الموظفين (8) ، بينما خصص الجانب الآخر من هذه الاقطاعات كملكيات عقارية لإعالة الفرسان السباهية وكبار ضباطهم ولتوفير أسباب الرزق لفئات أخرى من الجند ضمنهم حراس قلاع وحصون الحدود (9) وبذلك برزت وحدة التيمار كأحد أسس النظام

الاجتماعي والاقتصادي العثماني ولعبت أهم الأدوار في تقوية الملك العثماني وفي اندفاع توسعات العثمانيين بآسيا الصغرى والبلقان (10)

فماذا تعني وحدة التيمار، وممن تشكلت مجاليا وايراديا وما الواجبات التي كان على حائز التيمار الالتزام بها. ثم ما هي العوامل والمسببات التي ساعدت على انهيار وحدة التيمار لصالح شكل آخر من أشكال استغلال أراضي الدولة هو نظام الالتزام؟

بدءا، نشير إلى أن إقطاعه التيمار ليست تنازلا عقاريا ولا منحة توهب مدى الحياة (11) بقدر ما هي تنازل ضريبي محدود ومشروط على نحو صارم بأداء خدمة معينة. فعندما يحوز السباهي على براءة الانتفاع من مقاطعة أو قرية أو عدة قرى. فهذه البراءة /الرسم لا تعني تنازلا عن الأرض ولا عن الفلاحين والمزارعين المرتبطين بها. وإنما تفيد تفويضا وتنازلا من حاكم المقاطعة أو من السلطان لصاحب البراءة عن العشور والضرائب النقدية والعينية الواجبة الأداء عن هؤلاء الفلاحين (12) في مقابل التزام السباهي بتأدية ما هو مقرر عليه من فروض عسكرية وواجبات أمنية وإدارية وبالتالي كانت استفادة التيماري من الاقطاع مشروطة وبفعل علاقاته الغير المباشرة مع الحوز الفلاحي، لم تكن له أحقية الإجارة الوراثية المضمونة بخلاف المزارع المستأجر الذي كان التزامه بدفع ما عليه من عشور وفروض كافيا لضمان ديمومة ما يستأجره من أراضي واستغلاليات (13) . ومن جانب آخر، كانت هناك تمايزات واضحة ودقيقة بين الاقطاعات العسكرية وذلك بموازاة وتلازم مع طبيعة وحجم الأعباء والخدمات المفروضة على الفرسان السباهيين (14)، وهكذا فإن الاقطاع الذي كان يدر دخلا يتراوح ما بين 3000 إلى 20000 أقجة Aspre عرف باسم التيمار، وكان يستفيد منه في العادة صغار الخيالة وجموع السباهيين العاديين في حين نعت الاقطاع الذي يصل دخله إلى 100.000 أقجة باسم الزعامت، وخصص في المجمل لكبار الضباط السباهية وقادة المقاطعات والسناجق والألوية (15) وقد تشكل كل واحد من الاقطاعين المذكورين، التيمار والزعامت من جزأين، هما الأرض الأصلية المسماة في القوانين العثمانية قليج/سيف والجزء الثاني شكلته الاضافات التي عرفت باسم ترقي، وكانت الفئة الثالثة من الاقطاعات

أكبر من وحدات التيمار والزعامات وهي الخاصات التي كانت، بفعل وفرة حصادها من نصيب السلاطين العثمانيين وكبار موظفيهم وخدمهم (16) وقد تشكلت إيرادات الحاصل على التيمار أكان كبيرا أم صغيرا من المساهمات الضريبية والعشور المقررة على الرعايا والفلاحين المسجلين في تيماره، واستفاد أيضا من محاصيل استثمارة خاصة، قد تكون قطعة أرضية أو طاحونة أو مزرعة فواكه كانت عليه مسؤولية استثمارها وتحصيل مداخيلها (17) وفي مقابل هذه الإيرادات التي كان في مقدور التيمارجي أن يوسعها بالحصول على ترقيات جديدة، وظفت السلطة المركزية العثمانية هذا النظام للحفاظ على جاهزية قوة دائمة ومتأهبة من جموع الفرسان الخيالة وضباطهم الذين شكلوا في معظم الأحيان قيادات المقاطعات والأقاليم العثمانية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان (18) وكان على التيمارجي أن يحصل بدءا على شهادة حق الانتفاع من بكلربك المقاطعة مقابل تقديم بدل نقدي للخزينة المركزية مع ضرورة الحصول على موافقة اثنين من الزعامتيين وعشرة من التماريين في الألوية والسناجق التي يوجد بها. وقد تم تقنين الواجبات اللازمة على الفرسان الخيالة بما يناسب حجم ومداخيل ما ينتفعون به من تيمارات وزعامت (19)، وكان على الفارس السباهي المساهمة في إدارة وضبط الأمن المحلي في المنطقة التي يوجد بها.

وأن يتولى تجهيز عتاده ورعاية جواده استعدادا للخدمة العسكرية، كما كان عليه إعاشة وتجهيز رجـــل مسلح، جيبيلو عن كل 3000 أقجة بالنسبة للتيماري و 5000 أقجة بالنسبة للزعامت. (2) فعلى سبيل المثال، كان على السباهي المستفيذ من تيماري دخله 20000 أقجة أن ينضم لقوات السلطنة مجهزا بدرع وخيمة ومصحوبا بخمسة اتباع مجهزين عدة وعتادا، وكان على المستفيد من الزعامت أن يجهز مقابل إيراداته ثمانية عشر فارسا مجهزا. وفي موقع حشد القوات كان الباديشاه أو القائد العام للحملة يشرف على تفتيش عام يوكلاما. للتحقق من التزامات سباهيي المقاطعات والسناجق والكشف عن المتخلفين أو الغير المجهزين (21). وحسبنا أن نشير في هذا الصدد إلى أن الدولة العثمانية قد استفادت في مراقبة وضبط إيرادات وإلتزامات السباهيين من التعدادات الضخمة والسجلات والدفاتر التي كان

يعدها القائمون بالتعداد عبر ألوية ومقاطعات السلطنة. وهي ممارسات يعود أول احصاء خاص بها لما قبل 1400 م وشهدت أزهى فتراتها في عهد سليمان القانوني قبل تراجعها وتقهقرها مع نهاية ق 16 م (22) وذلك بتزامن مع الكثير من العلل ومواطن الخلل التي شهدتها الدولة العثمانية في هذه المرحلة (23) .

على أية حال، فإن وحدة التيمار، التي استقطبت المسلمين والمسيحيين معا، واعتمدت أساسا في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان وبعض المقاطعات العربية (24)، مكنت الدولة العثمانية من تجاوز ما كانت تشكوه من ندرة في المعادن النفيسة وأعفتها من أعباء تدبر وجمع رواتب ومعاشات الجند كما استفادت من هذا النظام لدعم واستيعاب توسعاتها المختلفة بالقدر الذي ضاعف من حجم الامتداد العثماني وأضفى عليه طابعا استيطانيا ملائما ومقبولا من قبل العديد من الأقوام والملل التي استهدفتها العمليات العسكرية العثمانية إسلاميا ومسيحيا (25). وقد لعب سلاح الفرسان دورا مركزيا في حسم الكثير من الملاحم العسكرية العثمانية، وكان على السباهيين بحكم تسلحهم الخفيف مبادأة القوات المناوئة واستدراجها إلى حيث نيران المدفعية العثمانية ثم تعقب ما تبقى من هذه القوات المتراجعة والأثخان فيها قتلا وسبيا (26) . هذا وقد قدرت بعض الأبحاث أن الجيش التيماري جند في سنة 1445 ما يزيد عن أربعين ألف فارس بينما وصلت أعداد الإنكشارية آنذاك إلى ستة آلاف فقط، وكان بوسع الباب العالي حشد ما يزيد عن خمسين ألف سباهي في نهاية ق 15 (27)، ويذكر الباحث التركي عمر لطفي باركان (28) أن الخيالة التيماريين قد بلغو في بداية قـ 16 م يناهز 70 إلى 80 ألف فارس ويشير عمر عبد العزيز عمر إلى أن الأراضي المقطعة وفرت للقانوني ما يزيد عن 130000 فارس (29) .

علما أن 10 % من سباهيي كل سنجق أو مقاطعة وعرفوا باسم الملاحظين/ كوروجو. كان عليهم البقـــاء في الأحواز الفلاحية لضمان الأمـــن وتأمين دورة الإنتاج الزراعية بما يحافظ على واجبات الفرسان ويمكنهم من الحصول على حاجياتهم المختـــلفة في ساحات المعارك والحملات (30).

ومن دون الدخول في تفاصيل ما أثارته وحدة التيمار من سجالات تصنيفية وما يمايزها عن الإقطاع الأوربي (31) فإن وحدة التيمار وإن لم تكن وراثية، فقد كان لابن التيمارجي الحق في الحصول على رسم للانتفاع من تيمار أبيه بعد وفاته، وكان بامكان الأكفاء عسكريا الاستفادة من التيمار أكانوا شبابا أو انكشارية وحرصت السلطة المركزية منذ سنة 1530 على تأجير الخواص الهمايوني وعلى تقنين حيازات التيمارات، ولم يعد يسمح لحكام المقاطعات بمنح غير التيمارات التي يتراوح دخلها ما بين 3000 إلى 5000 أقجة. وكان ذلك، إلى جانب مظاهر أخرى إيذانا ببداية انتقال العثمانيين من وحدة التيمار إلى نظام الالتزام (33) خصوصا وقد بدت الكثير من المؤشرات الدالة على استهلاك نظام التيمار، وبرزت علامات أكيدة على تخلفه عن الاستجابة لحاجيات السلطنة عسكريا وماديا وتنظيميا. ولنا أن نستعرض في عجالة بعض هذه العلامات:

أ- تراجعت القيمة الوظيفية للسباهيين وأضحت خيالتهم الخفيفة متخلفة عسكريا إزاء تطور الأسلحة والجيوش الأوربية. وغير قادرة بالتالي على مجاراة ضرورات التوسع العثماني ذي الآفاق العالمية (34).

ب — بفعل الامتداد العثماني في العمق الأوربي والآسيوي ازدادت حاجة العثمانيين لمشاة ثابتة ومتفرغة كلية للعمل الحربي خلافا للسباهي الذي كان يقضي فترات محدودة في ساحة المعارك. وكان يميل في فترات السلم إلى التقاعس وإهمال التداريب إلى درجة أن الكثير منهم قد غلبت عليه نزعة الفلاحة، وبدل كل ما في مستطاعه للتنصل من واجباته العسكرية (35).

2- لم يسلم نظام التيمار من المفاسد التي شهدتها الهياكل التنظيمية العثمانية في ق16 وبدأ حكام المقاطعات في منح التيمارات للاتباع والخصوصيين وبات في مقدور التماري اعتماد الرشوة أو إنتداب البديل للتحلل من المشاركة في المجهود الحربي للدولة مما عجل بتراجع فعالية سلاح الفرسان وقلل من رقابة السلطات المركزية على إيرادات وواجبات السباهيين، وعزز من سعي المنتفعين إلى إضفاء الطابع الوراثي على إقطاعاتهم (36).

تحت ضغط هذه المؤشرات وفي مواجهة التبعات الناتجة عن توقف التوسع الإقليمي وللأعباء المالية المرتبطة بتوسع الإدارة وأعداد الجيوش الثابتة، بدأت تترسخ تحولات عميقة في بنية النظام العقاري العثماني بأسره، وهكذا بادر العثمانيون منذ عهد سليمان القانوني إلى تلزيم الخاصات وأراضي الدولة واندفعوا في تغيير شكل استغلال الأراضي عبر هدم مقومات وحدة التيمار، فصادروا الاقطاعات الشاغرة ونهجوا سلوكا متعمدا في استرجاع الأراضي من التيماريين والدفع بها إلى ملتزمين يتعهدون بتقديم متوجب نقدي مسبق للخزينة (38) وقد أسهمت هذه الانعطافة نحو الالتزام وتحويل الاستثمارات العسكرية إلى مزارع ضريبية في توفير سيولة نقدية اعتمدتها السلطة في تغطية رواتب ما استحدثته من سرايا عسكرية وعساكر مشاة، وبعد منح الملتزم حقوقا دائمة في جباية الضرائب مقابل مبلغ نقدي محدد تراجعت موارد الدولة. وظهرت العديد من الاغتصابات بل تحولت الكثير من الامتيازات العقارية المشروطة أو المؤقتة، خصوصا بعد صلح كارلوفيتز إلى تنازلات أبدية باسم المالكانه (39). وقد استفاد الملتزمون وقد انتسبوا إلى مختلف ركائز الدولة سياسيا وعسكريا وإداريا وتشريعيا (40) ، من ارتخاء الدولة العثمانية في ق 17 و 18 م للاستفراد بالفلاحين وإثقال كواهلهم بفروض مختلفة، دفعت الكثير منهم فحسب أوصاف كوجي بك وحاجي خليفة إلى هجرة الحقول وترك العمل الفلاحي (41) وقدمت سيميليا نسكايا أفادت عديدة عن جشع هؤلاء الملتزمين والفروق الضخمة التي كانت قائمة بين ما يدفعونه للخزينة وما يجمعونه من الفلاحين (42) كما استعرضت بعض الكتابات جهود هؤلاء من أجل تقوية وتوسيع إيراداتهم وما بذلوه من مساعي حثيثة لترسيخ مرتكزات السلطات الطرفية بما يمهد للخروج و الإنفصال عن السلطة المركزية (43)

وكخلاصة عامة، نؤكد على تنوع الأساليب والقواعد التي اعتمدها العثمانيون لاستغلال الأراضي الزراعية مع التشديد على أهمية حجم ونوعية الأراضي الأميرية ضمن المجال العثماني. وهي الأراضي التي وظفت لتقعيد وحدة التيمار كحلقة إدارية ومالية وعسكرية محكومة بسلطة الدولة المركزية ومشروطة بما نهضت به من أدوار فاعلة في دعم

وتبلور الملك العثماني: وبفعل ما طرأ من تحولات في بنية السلطة العثمانية واعتبارا لجسامة من واجهته من تحديات مختلفة بادر العثمانيون إلى تكييف الانتفاع من أراضي الدولة وفق ما يستجيب لحاجياتهم المالية والعسكرية فاعتمدوا نظام الالتزام الذي أفرز قوى ريعية استرفت الريف العثماني وأشهر الكثير منها راية العصيان والانفصال في وجه السلطة المركزية للباب العالي.

كما نؤكد على أن العثمانيين قد فشلوا لعدة عوامل في توسيع مصادر الغنى والثروة، وظلت الأراضي وعمليات الاستثمار الفلاحي المختلفة أساس الاقتصاد العثماني ومحور تدبر المعاش. ونشدد في الختام على أن استثمار الأراضي عبر الفضاء العثماني قد ساهم في امتداد الملك العثماني و أفضى في نهاية المطاف إلى تفكيك أوصال السلطنة بتواز مع تجذر سلطة الأعيان وكبار الملتزمين وما أفرزته من حركات انفصالية مختلفة.

أ - من نماذج تلك المظان والأبحاث نشير إلى:

- محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي ط : 6 دار النفاش بيروت 1988
- فؤاد خليل : الإقطاع الشرقي بين علاقات الملكية ونظام التوزيع دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع بيروت 1996
- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج : I تحت إشراف روبير ما نتران ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة 1993
- محمد مراد : مسألة الأرض في المشرق العربي في ظل السلطنة العثمانية مجلة الاجتهاد ع : 36 السنة التاسعة صيف 1997
- بيري اندرسون: دولة الشرق الاستبدادية ترجمة: بديع عمر نظمي مؤسسة الأبحاث العربية بيروت 1983

2- أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، دار الشروق بيروت / القاهرة 1982 ص: 106

- فؤاد خليل : الإقطاع الشرقي : ص : 232
- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج : I ص : 170

3 – للمزيد من التفصيلات، يراجع حسن الضيقة: الملكية والنظم في الدولة العثمانية مجلة الاجتهاد ع: 36 س : 9 صيف 1997

4 – بول كولز العثمانيون في أوربا. ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1993 ص 68 وما بعدها .

– أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني .م س

5– فؤاد خليل : الإقطاع الشرقي ص : 233

– محمد مراد : مسألة الأرض ... الاجتهاد ع : 36 ص 43–49

– الكاي صونار : تحول الإمبراطورية العثمانية : المجتمع الاقتصاد الإيديولوجيا مجلة الواقع السنة الأولى ع 4 شباط 1982

6– في شرحه لتشريعات سليمان القانوني يقول أبي السعود: "إن الأراضي وضعت بتصرف الرعية ليسا ملكا لهم بل ملكا للدولة"

– حسن الضيقة : الملكية والنظم الضريبية الاجتهاد : ع : 36 ص 115

7 – بيري اندرسون:دولة الشرق الاستبدادي ص : 17

8– هاملتون جب /هارولد بوون : المجتمع الاسلامي والغرب ج: 2 ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى دار المعارف مصر القاهرة 1971ص 56

9– فؤاد خليل : الاقطاع الشرقي ص : 233 وما بعدها

10– عن الفتوحات العثمانية بآسيا الصغرى والبلقان يراجع :

– يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ترجمة: عدنان محمود سلمان ج: I مشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا استانبول 1988

– محمد فريديك : تاريخ الدولة العلية العثمانية

– محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية : احمد السعيد سليمان الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993

– بول كولز : العثمانيون في أوربا : ص : 79 وما بعدها .

11– مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج I ص 185

12 – ساطع الحصري : البلاد العربية العثمانية دار العلم للملايين بيروت 1965 ص : 29

13– بيري اندرسون : دولة الشرق : ص 18

14– محمد رجائي ريان : الاقطاع العسكري في العهدين المملوكي والعثماني مجلة الدارة: العدد: 2 سنة : 14 أكتوبر 1988 ص : 30

15- فلاديمير لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث: ترجمة: عفيفة السبتاني دار التقدم موسكو ص: 11

- حسن الضيقة : الملكية والنظم الضريبية الاجتهاد ع : 36 ص 58

16- يذكر فرناند بروديل أن الصدر الأعظم إبراهيم كان يملك في سنة 1530 خصا بالروميللي ناهز دخله 116732 أقجة

F. Braudel : La Méditerranée et le monde Méditerranée à L'époque de Philippe II T; II 6° diction

17- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج : I ص 185/184

18- هاملتون جب / المجتمع الإسلامي والغرب ج : 2 ص 56

19 حسن الضيقة : الملكية والنظم ..... الاجتهاد ع 36 ص : 116

20- فؤاد خليل : الإقطاع الشرقي ... ص : 241

- بيري اندرسون : دولة الشرق .... ص 241

21- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج I ص 301

22- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج I ص 176/ ص : 289

23- عن وضعية الدولة العثمانية أو اخر ق 16 يراجع

- يلمازاوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ص : 374 وما بعدها.

- بول كولز : العثمانيون في أوروبا ص 176 دار النهضة العربية بيروت 1985 ص : 111 وما بعدها عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي

24- لوتسكي : تاريخ الإقطار العربية الحديث ص : 12

محمد رجائي ريان : الاقطاع العسكري.... مجلة الدارة ع : 2 ص : 32

25- أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني .... ص : 119

26 - مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج I ص : 201

27- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية : ج I ص : 189

28- عمر لطفي باركان : نقلا عن أحمد مصطفى عبد الرحيم : في أصول التاريخ العثماني ص : 119

29- عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي (1516-1922) دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت هـ 1985 ص : 52

30- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج : I ص : 302

31- يراجع : محمود خليل : الإقطاع الشرقي

- حسن الضيقة : الملكية والنظم الضريبية في الدولة العثمانية

32- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج : I ص : 190

33- هاملتون : جب / بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ج II ص : 80

34- بيري اندرسون : دولة الشرق الاستبدادية ص : 32

35- محمد رجائي ريان : الاقطاع العسكري... الدارة ع:2 ص 34 ج : 2 ص 82

36- هـ جب/هـ المجتمع الإسلامي والغرب : الدارة ع : 2 ص : 34

37- حسن الضيقة : الملكية والنظم الضريبية الاجتهاد ع 36 ص : 133

38- مجموعة من المؤلفين : تاريخ الدولة العثمانية ج I ص 341

39- بيري اندرسون : دولة الشرق ... ص 36

هـ . جب/هـ بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ج II ص : 84

40- حسن الضيقة : الملكية والنظم الضريبية الاجتهاد ع : 36 ص : 146

41- اعتمادا على : هـ. جب/ بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ج : II ص 87

- فؤاد خليل : الإقطاع الشرقي : ص : 255

42- ايرينا سميليا نسكايا : البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث ترجمة يوسف عطا الله . دار الفارابي بيروت 1989 ص : 90 وما بعدها

43- هاملتون جب/هـ بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ج : II ص : 81

- حسن الضيقة : الملكية والنظم الضريبية ، الاجتهاد ع : 36 ص 146 .

موقف فقهاء فاس من إنشاء المدارس المرينية

(تابع 2)

(تتمة للمقالة التي نشرت في العدد 13 من مجلة مكناسة)

ذ. السعيد لمليح

كلية الآداب مكناس

وهكذا قام المرينيون بإنشاء مجموعة من المدارس التعليمية لفقهاء المالكية في مدينة فاس وفي معظم المدن التابعة لحكمهم وذلك لكسب النفوذ المعنوي والروحي في هذا الميدان الذي يعتبر من العوامل الحساسة لتدعيم أسس الدولة ذلك أن هذه المؤسسات ستعمل على تكوين ما يمكن أن نطلق عليه، حاليا أطرا فقهية تتبنى المذهب المالكي وتسد الفراغ الحاصل في هذا الباب في مجموع التراب المغربي، علما بأن معظم الأطر الموحدية اختفت أو رفضت التعاون مع الحكام الجدد وأفضل مثال على ذلك أن الشرفاء الطاهريين التجأوا إلى قصبة تاوريرت لما استولى يعقوب بن عبد الحق على مدينة مراكش" وأجلى الموحدين وشيعنهم عنها".

وقد يكون هذا العامل من العوامل الأساسية التي أدت إلى ظهور المشروع المدرسي المريني في مدينة فاس أولا وفي باقي مدن المغرب ثانيا : ألم يكن هذا العامل شبيه بما قام به الموحدون قبلهم لما أسسوا معاهد لتكوين طبقة من "الحفاظ" و"الطلبة" لشغل مناصب الدولة والدفاع عن المذهب الموحدي؟

على كل تم إنشاء أول مدرسة للطلاب على يد أبي أمية الدلائي بتفويض من أبي يوسف يعقوب –كما سبقت الإشارة- وكان تأسيس هذه المدرسة بقبلة جامع القرويين وبالقرب منه مباشرة ويظهر أنها لم تكن تحمل اسما معينا في بداية الأمر على الأقل، فقد جاء في الذخيرة السنية : أن يعقوب بن عبد الحق أمر ببناء المدرسة لطلبة العلم (39) لكن الحوالات الحبسية (40) والفهارس (41) أخذت تسميها فيما بعد بمدرسة "الحلفاويين" وقد

يكون سبب هذه التسمية يرجع إلى ظروف تاريخية معينة فقد ذكر العلامة عبد الرحمن الكتاني أنه كان بهذه الحومة قبل بناء هذه المدرسة مسجد يعرف بجامع الحلفاويين نزل به الولي الصالح أبو زيد الهزميري المراكشي لما رجع من محلة السلطان أبي يعقوب يوسف المريني وهو محاصر لتلمسان (42) وأضاف الأستاذ الكتاني أن هذا الموضع مبارك يأوي إليه أهل الفضل والصلاح ولا يستبعد أن يكون هذا المحل هو الذي بنيت فيه المدرسة المذكورة. ولعل ذلك راجع إلى سبب آخر وهو كون الشيخ أبي عبد الله الحلفاوي (ت 758 هـ /13578 م) تلميذ الشيخ الزيات وشيخ أبي الحسن اللجائي وغيره، كان يأوي إليها فسميت باسمه وهذا هو المرجح بدليل أن عبد الحي الكتاني تحدث عن جامع الحلفاويين في عهد أبي يعقوب يوسف المريني أي بعد إنشاء المدرسة بعدة سنوات.

ومن مميزاتها المعمارية أنها تحتوي على صومعة ومحراب يعد من أقوم المحاريب بمساجد فاس، بمعنى أن هذه المؤسسة تعد بمثابة مسجد ومدرسة في آن واحد. ويوجد في وسطها صحن يتوسطه صهريج وتحيط بالصحن سلسلة من بيوت الطلبة، وهذه المميزات المعمارية تجعلها شبيهة في شكلها بالزاوية (43) فهل كانت المدرسة المرينية الأولى بمثابة مؤسسة دينية متطورة عن الزاوية؟

هذا عن مدرسة الحلفاويين والجدير بالذكر أن يعقوب بن عبد الحق أنشأ مدرسة أخرى بمدينة مكناسة سنة 679 هـ (44) أي في نفس السنة التي أنشئت فيها المدرسة المذكورة وبعد هاتين المدرستين يتوقف المشروع المريني إلى سنة 720 هـ / 1320 م أي قرابة نصف قرن من الزمن وخلال هذه المدة لم تحظ هذه المدارس المرينية بالاهتمام الذي تقابل به عادة مثل هذه المؤسسات (44) كما هو الشأن بالنسبة "لمدرسة أبي الحسن الشاري " سبتة أو المدارس المرينية التي أسست خلال القرن الثامن الهجري (14م) كما أنها لم تحظ بشعبية كبيرة ولا بتأثير ذي أهمية على الحياة الدراسية بفاس أو مكناسة على ما يبدو.

ولا يمكن فهم تفسير توقف المشروع المريني إلا بفهم طبيعة تمويل هذه المدارس.

فهذه المؤسسات التعليمية الأولى، يبدو أنها لم تكن لها أحباس خاصة في بداية الأمر على الأقل ولا تضم إلا سكنى الطلبة أما نفقاتهم ومرتبات الأساتذة والمدرسين فقد حددت

من جزية اليهود –كما يؤكد ذلك صاحب "الذخيرة السنية" في قوله : "وفي شهر شوال (من تسع وسبعين وستمائة) ولى الفقيه أبا أمية الدلائي قضاء مدينة فاس وأمره ببناء المدرسة لطلبة العلم.. وأجرى عليهم المرتبات من جزية اليهود لعنهم الله (46) بمعنى أن تمويل هذه المؤسسة كان من بيت المال. ومما يؤكد ذلك أن جل مدارس فاس المؤسسة بعد مدرسة الحلفاويين نقشت لها حوالة حبسية على رخامة وغرزت في أحد جدرانها حفاظا على أحباس تلك المدارس من الضياع ولا توجد وقفية التحبيس لمدرسة الحلفاويين حسب علمنا- ولا نعرف ما إذا حبست عليها خزانة كتب منذ البداية عند تدشينها كلما هو معروف أن المؤسس يعقوب بن عبد الحق حبس عليها "ثلاثة عشر حملا من الكتب فيها جملة من الكتب ككتاب الله العزيز وتفسيره كابن عطية والثعالبي ومنها كتب الحديث وشروحها. كالتهذيب والاستذكار وكتب الأصول والفروع واللغة العربية والأدب وغيرها (47). وهي الكتب التي حمل عليها السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق في اتفاقيته مع الملك القشتالي سانشو (683 هـ / 694 هـ) / 1284م / 1295 م) (48)

وبعد إعطاء نبذة عن ظروف وحيثيات تأسيس أول مدرسة مرينية للطلبة في قلب مدينة فاس وبالقرب من جامع القرويين العتيد، لا بأس أن نتساءل .

ما هو موقف العلماء من المشروع المريني؟

موقف العلماء من المشروع المريني :

الواقع أن المشروع المريني المتمثل في تأسيس المدرسة اليعقوبية قد أثار حفيظة فقهاء فاس وعلمائها على الرغم من أنها سنية مالكية واتخذت المعارضة في المغرب شكلا قويا بالمقارنة مع المعارضة التي واجهت المدارس في الشرق الإسلامي (49) لقد واجهت المدارس في المشرق معارضة الفقهاء إلا أن هذه المعارضة لم تكن موجهة ضد فكرة المدارس في حد ذاتها. بل كانت موجهة ضد طريقة تمويلها من مداخيل مشبوحة كالمال المغصوب. (50)

أما إذا أسست المدرسة من مال حلال وعلم حال الملوك حين بنائها فإنه يتم التنويه والإشادة بتلك المؤسسة(51) وإلقاء نظرة على مدارس مصر من خلال خطط المقريزي يلاحظ

أن بعض المدارس نالت شهرة كبيرة وإقبال متزايد من الطلبة والأساتذة، بينما بعضها الآخر نفر الناس منها فتهربوا من السكن والدراسة فيها،بسبب شبة المال الذي اتفق عليها أو حبس عليها (52) .

ونجد نفس الموقف لدى فقهاء المغرب الذين يوصون بأخذ احتياطات والتحفظ من المدارس لنفس الأسباب، وقالوا بكراهية الصلاة في بعض المدارس بأخذ المرتب من بعضها إذا ثبت أن المال الذي انفق عليها أو حبس عليها غير حلال (52) .

فهل كان وعي أبي يوسف يعقوب بهذا المشكل هو الذي دفع به إلى صرف مرتبات الأساتذة والطلبة في مدرسته الأولى من جزئية اليهود وهو مورد غير مشبوه فيه. (54)

يلاحظ أن السلطان المذكور انفق كذلك من جزية اليهود على ثريا الجامع الأبيض من المدينة البيضاء وعلى المارســـتان بفاس كما أجرى منها مرتب إمام نفس الجامع بالمدينة البيضاء (55).

ورغم هذه المحاولة التمويلية لمدرسة الحلفاويين، فإن المشروع واجه معارضة قوية من طرف العلماء في فاس، واتخذت هذه المعارضة أشكالا مختلفة منها : تشكك فقهاء فاس في قبلة المدرسة اليعقوبية بدعوى أنها مخالفة لقبلة جامع القرويين وعند بلوغ الخبر إلى علم السلطان أبي يوسف انتقل إلى عين المكان لمعالجة هذا المشكل وأشار بعض الحاضرين إلى أن قبلة مساجد فاس يختلف بعضها عن بعض، مما يدل على حدة الصراع الذي طبع النقاش الدائر حول المسألة وحينئذ قرر السلطان جمع المعدلين لبحث قضية قبلة المدرسة وتصحيحها ووضعها حسب اتجاه قبلة القرويين (56) ويستنتج منها :

أن السلطان المريني لم يحظ بثقة فـــقهاء فاس، لذلك لم يـــشارك المعدلون منهم في وضع القبلة للمدرسة، وتشككوا في صحة اتجاه هذه القبلة التي نصـــبها ابن الحباك الموالي للسلطان (57) .

وانتقال السلطان إلى المكان والوقوف بنفسه على هذا المشكل يدل على إسرار السلطان في المضي في تنفيذ مشروعه رغم ما أبداه الفقهاء من معارضة لهذا المشروع المريني.

وظهرت هذه المعارضة مرة أخرى عند إتمام بناء المدرسة، فحينما أراد السلطان تدشينها صلى الجمعة بجامع القرويين القريبة منها والتقى بعد الصلاة بالفقيه الصوفي إسحاق بن مطهر الورياغلي وسأله السلطان عن ثلاث مساءل فأجابه الفقيه "لا فائدة في السؤال فإنك لا تعمل بالجواب (58) ورغم إلحاح السلطان على الفقيه، فانه لم يستطع أن يحصل منه على الجواب" (59).

ويمكن أن نستنتج من سياق هذه الحكاية أن هناك خلافا خفيا بين هذا الفقيه الصوفي والسلطان أبي يوسف يعقوب حول المدرسة المراد تدشينها وحول قضايا أخرى لم تفصح عنها المصادر، ولكن لا نعرف طبيعة هذا الخلاف وقد افترض الدكتور القبلي أن يكون هذا الخلاف بين الطرفين يمس الظرفية الجبائية المرينية (60).

إن المثالين المشار إليهما أعلاه يظهران أن بعض مظاهر معارضة الفقهاء للمشروع المريني منذ البدء فيه إلى إتمامه كان قائما ويظهر كذلك عزم السلطان وإصراره على إتمام مشروعه على الرغم من معارضة الفقهاء المتشبعين بالتصوف لذلك المشروع.

ومن جهة أخرى هناك من يرى أن معارضة فقهاء فاس للمشروع المريني جاءت بعد تخرج فقهاء موالين للدولة من هذه المدارس.

ومما وقع في هذا الشأن أن يوسف بن حكم وهو من أصل أندلسي الذي عينه الأمير عبد الواحد بن يعقوب المريني قاضيا على مدينة فاس لقي معارضة ومضايقة من قبل والي المدينة، مما اضطره إلى طلب الإعفاء من خطة القضاء (61).

إن هذا الحدث يدل على أن فقهاء المدينة لم يكونوا راضين على تعويضهم في المناصب الدينية بعناصر أجنبية عنهم مفروضين عليهم من خارج المدينة لأن ذلك يجعلهم يفقدون مكانتهم السامية في ظل النظام الجديد.

أضف إلى ذلك أن منحة الطالب —أو مرتبه حسب قاموس العصر- مشروطة بانتسابه لمدرسة من المدارس، ونتيجة لهذا فإن التعليم الحر التقليدي في المساجد و الزوايا والربط قد أمسى مهددا ككيان وكاتجاه على المدى القريب (62) كما أن المتخرجين من هذه المدارس سيحظون بعناية الدولة التي سهرت على تكوينهم أكثر من غيرهم. وسوف تعمل على

توظيفهم في المناصب الدينية والإدارية والتعليمية خصوصا وأن التجربة دلت على أن المرينيين الأولين كانوا يراقبون عن كثب أئمة الجوامع وخطبائها وشيوخها وقد يبعدون المناوئين منهم ويعينون مكانهم الفقهاء الموالين لسياستهم.

وأخيرا هناك مشكل السياسة الجبائية المرينية في الفترات الأولى من حكمهم، إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي أنتجوها للحصول على الأموال من الرعية، تلك السياسة المتسمة بالشدة والبطش والسطو. فكانت السلطة تتقاضى من الأهالي أجر حمايتها لبعض المدن والقرى، وهو ما عرف "بالخفارة" (63) وأدى تعدد المنتفعين والمشتغلين داخل هذه الحركة إلى فرض المكوس والمغارم على الرعايا الشيء الذي أدى إلى استياء السكان من هذه السياسة. ومما زاد في الطين بلة أن الحروب بين المرينيين والموحدين أدت إلى توقف الزراعة وتحويل الطرق التجارية في اتجاه الشرق فنتج عن ذلك انتشار المجاعات والكوارث الطبيعية (64) وقد تركت هذه السياسة صدى سيئا في نفوس السكان إلى حين.

وانطلاقا من هذه السياسة الجبائية تساءل الفقهاء عن مدى مشروعية الأموال التي خصصت لبناء المدرسة البيعقوبية والإنفاق عليها، فنشأت بسبب ذلك معارضة بعض الفقهاء للمشروع المريني على الرغم من أهميته الكبرى نظرا للدور الذي ستلعبه المدارس في المجال الفكري. فما هي إذن النتائج المرتبة عن هذه المعارضة؟

لقد ترتبت عن معارضة بعض الفقهاء بحاضرة فاس للمشروع المريني نتائج بعيدة المدى أهمها: توقفه زهاء نصف قرن من الزمن أي من سنة 679 هـ/ 1280) إلى (720 هـ / 1320) وسكوت المصادر المرينية عن المشروع طيلة هذه المدة، ذلك أن الحلقة الثانية من حلقات المسلسل التعليمي السني لم تبرز بالفعل خلال العصر المريني الأول إلا في سنة 720 هـ عندما تم تأسيس مدرسة فاس الجديد أي ي عهد خامس سلاطين بني مرين أبي سعيد عثمان (710 هـ / 731 هـ) / (1310 — 1331 م) الذي سلك سياسة ناجحة في الداخل والخارج. وكان يساعده في عمله هذا ولي عهده أبي الحسن المريني الذي أسس عدة مدارس في كل من فاس ومدن المغرب.

وأقل ما يستنتج من هذا البطء الملحوظ بالنسبة للحكام الجدد أن الطريق أمامهم لم تكن تخلو من عقبات ربما أخذت تذلل مع بداية حكم أبي سعيد عثمان وعهد أبي الحسن، وهذا موضوع آخر في حاجة إلى بحث مستقل.

الهوامش:

39- ابن أبي زرع / ص : 162

40- انظر حوالة أحباس المدارس القديمة بفاس م.خ.ع.) الرباط رقم 48

41- انظر مثلا فهرس أحمر المنصور تح) د محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة الرباط 1396 هـ / 1976 م / ص : 62-63

42- د: محمد المنوني، ورقات... ص 197

43- مارسي (جورج) الفن الاسلامي ترجمة عفيف بهنسي منشورات وزارة الثقافة دمشق/ 1388هـ/ 1968/ ص 212

44- ابن غازي الروض الهتون المطبعة الملكية 1964 / ص : 34

45- د : القبلي، قضية المدارس المرينية في النهضة والتراكم دار تبقال للنشر : 1986 — ص 56-57

46- ابن أبي زرع : م،ص /ص 162-163

47- ابن أبي زرع الانيس المطرب/ بروض القرطاس/ص : 363

48- م : ن / ص : 363

49- د: محمد القبلي : قضية المدارس المرينيد ص : 57

50- م : ن / ص : 60

51- كما وقع بالنسبة لمدرسة أبي الحسن الشاري بسبتة التي سبق الحديث عنها في عنصر سابق.

52- اسكان الحسين. جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، (رسالة مرقونة الرباط، 1987-1988 م ص : 34.

53- م : ص / ص : 64

54- ابن أبي زرع، الذخيرة السنية / ص : 163

55- ابن أبي زرع / الأنبس المطرب بروض القرطاس ص : 91

56- الجـــزنائي: جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس المطبعة الملكية الرباط 1967 / ص : 81، وعبد الحي الكتاني، ماضي القرويين/ م : ن / ص : 48

57- الجزنائي، م : س / ص : 81

58- البادسي، المقصد الشريف والمتزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف/تح/ د: سعيد أعراب، المطبعة الملكية الرباط / 1982

59- م : ن/ص : 111

60- د : محمد القبلي، قضية المدارس المرينية م : س / ص : 60

61- ابن أبي زرع : الذخيرة السنية / ص : 123

62- د : محمد القبلي، قضية المدارس المرينية ص : 59

63- ابن أبي زرع، الذخيرة السنية/ ص 36-37

64- م : ن / ص، وابن عذاري المراكشي البيان المغرب –قسم الموحدين ص : 266-267

دراسات إسلامية

حول إشكال القراءة الجديدة للقرآن
في كل عصر

ذ. محمد سدرة

كلية الآداب – مكناس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آلـــه وصحبـــه أجمعين. وبعد،

فمعتمد هذه النظرات تساؤلات نطرحها ونحاول مناقشتها في خضم دعاوى أثارهـــا القدامى، وتبناها محدثون، وكانت نقطة الإلتقاء بين الأوائل والأواخر في إتجاهين:

واحد: يرى أن الأمر له ضوابط وشروطا لتحديد قصد الشارع ومراده من خطابه للمكلفـين، ولا ينبغي التسيب فـــي ذلك (1) .

والآخر : يرى أن الأمر مداره على ملكات العقول ومداركها ، فأطلق العنـــان ودعـــى إلى ذلك، بل تجاوز الأمر إلى نبذ تلك الضوابط والقيود التي يراها مكبلة لحركة منهجـــه، ودعى إلى قراءة جديدة في كل عصر ، وإن تجازوت كل ما كان وصل إليه من قـــرأ قبلهم أو حتى داخل الزمن الواحد (2) .

ونتساءل في خضم هذا المعترك :

* ما هي حدود وضوابط القراءة المتجددة للقرآن الكريم في كل عصر ؟

وموضوع هذه المشاركة محاولة إجابات من خلال وقفات منهجية ، نقفـــها لتقصـــي حيثيات هذا الموضوع الشائك .

1 –الوقفة الأولى : مع الإطار التاريخي لتطور حركة التفسير

مدار الأمر في هذا المحور حول تساؤل أساس وهو :

– هل فسر الرسول صلى الله عليه وسلم كل القرآن في حياته ؟

– ويدل على خلاف ذلك أمور نذكر منها :

- لو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لم يكن ليحصل خلاف في مسائل عديدة ، كسؤال عمر رضي الله عنه حول الربا والكلالة والخلافة(3) .
- الرسول صلى الله عليه وسلم ترك كثيرا من القرآن بدون تفسير لحركة العقل البشري حتى تتوسع فيه .
- من الناحية اللغوية لكون العرب يفهمون القرآن ، ولغتهم التي نزل بها ، لم يتطرق الرسول صلى الله عليه وسلم للتفسير اللغوي لكون العرب يفهمون القرآن ، ولغتهم التي نزل بها، لم يتطرق الرسول صلى الله عليه وسلم للتفسير اللغوي لمفردات القرآن .
- في مسألة تعليل الأحكام الشرعية أيضا ، لم يفعل ، بل تركها لعملية الاجتهاد .
- كما ترك التحدث في الآيات الكونية لتطور الحياة ، و لم يفصل فيما تطرق القرآن إليه منها .
- غير أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى بين للصحابة ما يحتاجون إليه من أصول الأحكام، وما يحتاجونه من خطوط عريضة في حياتهم العامة .

وهذا معنى قول من قال بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فسر كل القرآن (4)

إذن فلا يمكن أن نقول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم فسر كل شيء يمكن أن يواجهنا إلى يوم القيامة بل بقي ذلك متروكا لتطور حركة الفكر الإنساني وتشعب مشكلاته .ولأجل هذا نجد أن التفسير قد تعرض إلى أعمال الفكر والعقل منذ عصر الصحابة والتابعين إلى اليوم ، وأهم الحلقات والمراحل التي مر بها يمكن إجمالها فيما يلي :

المرحلة الأولىّ : عصر النبوة ، وقد اعتمد التفسير فيها على القرآن والسنة .

المرحلة الثانية : عصر الصحابة والتابعين وكان مصدر التفسير فيها : القرآن والسنة ثم الاجتهاد.

المرحلة الثالثة : العصر العباسي وما بعده وقد تميزت بظهور التفسير العقلي كرد فعل على الفلسفات الخارجية (اللاهوتية - ومنكري النبوات) وتطور مع ظهور الفرق الكلامية.

كما ظهر التفسير الباطني المنحرف الذي قطع الصلة مع جميع ضوابط اللغة والعقل وظهر التفسير اللغوي كرد فعل على التيار الباطني .

كما ظهر منهج التفسير الفقهي كنتيجة طبيعية لنمو الفقه الإسلامي وتعدد المذاهب وانتهت هذه المرحلة بعصر الجمود وتكرار ما قد قيل في أثواب جديدة ، الإ ما كان من محاولات شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذيه ابن القيم وابن كثير اللذين حاولوا مسايرة عصرهم بالرجوع إلى سيرة السلف الصالح في فهم روح القرآن ومقاصده .

المرحلة الرابعة : مرحلة العصر الحديث ، وقد تميزت بظهور المنهج العقلي الاجتماعي الحديث في فهم القرآن مع كل من جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والذين انكروا بشدة المناهج التي اقحمت علوما ومصطلحات غريبة عقلية ولغوية وفقهية وخرافية في تفسير القرآن ، حرمت المسلمين من تذوق النص القرآني الكريم (5) .

ويمكن إجمال معتمد منهج هذه المدرسة في التفسير فيما يلي :

1 – عدم الإكثار من العلوم والمصطلحات والتفصيل فيها .

2– العودة إلى الكتاب والسنة وترك إخضاع التفسير للمذاهب الفقهية .

3 – بيان حكمة التشريع في العقائد والأحكام ، وبيان إنسانية وعالمية الإسلام .

4– الإستفادة من العلم الحديث في فهم القرآن الكريم دون الإخلال بمقاصده .

5 – الدفاع عن الإسلام أمام الغزو الفكري الأجنبي .

6 – إنكار الروايات الاسرائلية وعدم الاعتماد عليها ولا على الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد سار على هذا النهج من بعد رواده ، الشيخ المراغي وعبد القادر المغربي وابن باديس والطاهر ابن عاشور وسيد قطب ....

كما تميزت هذه المرحلة المعاصرة بظهور ما أصطلح عليه بالتفسير العلمي الذي أرسى أسسه الغزالي في جواهر القرآن وقبله الرازي في مفاتيح الغيب ، وسار على دربهما حديثا طنطاوي جوهري في جواهره .

2-الوقفة الثانية : عن علاقة الاجتهاد العقلي بالوحي الالهي

ونتساءل :

- هل كون القرآن وحيا إلهيا يمنع الفكر البشري من التأمل فيه ؟
- وهل في القرآن الكريم دليل على ذلك ؟
- وبصيغة أخرى هل توجد دلائل في القرآن الكريم تحث على عدم إعمال الإجتهاد العقلـــي في فهم القرآن ؟

والجواب: بل توجد آيات عديدة تدل على ذلك ومنها قوله تعالى :

" فاعتبروا يا اولي الأبصار "(6) .

" أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض (7) .

" إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (8) .

" قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم (9).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وكون القرآن الكريم يشتمل على أدلة ظنية وأخرى قطعية، وسع مجال اعمال الفكر البشري والتدبر في آيات الله تعالى.

ودعوى من قال بأن كون القرآن وحيا الاهيا لا يقبل التأويل والتفسير مردودة بكونهـا مبنية على الجهل بالحقيقة القرآنية السامية .

وما ذهب إليه بعض العلماء من القول بالظاهر من غير ركض وراء المقـــاصد العليـــا للقرآن فليس شرطا أن يتعامل مع القرآن الكريم كوحي الاهي بمنهج ظاهري، بـــل الأصـــح والأقوم في ذلك كله أن نتعامل مع القرآن الكريم كوحي الاهي بمنهج أصولي منضبط لا هـــو ظاهري ولا هوباطني.

3-الوقفة الثالثة : عن القصد من القراءة الجديدة للقرآن

إنطلقت صيحات القراءة الجديدة للقرآن مع موجة الحداثة التي ابتلـــــي بهـــا الفكـــر الإسلامي الحديث والمعاصر، وعلى غرار سابقاتها ولا حقاتها من القضايا تطلب الأمر اتخـــاذ مواقف،

- المتخوفون على الإسلام عند سماع قولة (مشروع رؤية جديدة لقراءة القرآن (10) يعتقدون أن هذا غير ممكن.
- المنحرفون الحاقدون على الإسلام يعتقدون بأن هذا المشروع كفيل بهدم القرآن وإنقاذ الأمة من خرافة الدين والاعتقاد.

والأمر فيه من الإشتباه على منظريه قبل مطبقيه الشيء الكثير .

فالقراءة الجديدة للقرآن الكريم مستمرة في كل عصر، لأن العقل الإنساني متناهي الحدود والقرآن غير متناهي الإمداد ، فلذلك فإن الفكر الإنساني سيزداد استكشافا من القرآن مع تطور العصر.

إلا أن الخطر في هذه القراءة يمكن أن يكمن في تجاوز ضوابط التفسير المعروفة، واستبدال ذلك بمناهج الدراسات الدينية الغربية المادية وتطبيقها على القرآن الكريم، وتطبيق اللسانيات الجديدة الغربية على القرآن الكريم .

4-الوقفة الرابعة : عن الموقف من التراث التفسيري:

مدار هذا المحور حول دعوى بعض المغرضين الذين يدعون إلى القراءة الجديدة للقرآن الكريم والتي فحواها الوقوف من علوم المسلمين السلف فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم موقفا سلبيا يجعل منها دراسات عقيمة، ومناهج لم تعد في مستوى العصر، ولا هي قادرة على تلبية حاجيات المسلم المعاصر، أو مقاومة تيار الحضارة الغربية الراقية المبنية على المناهج العلمية الحديثة والمتقدمة .

وهم عندما يقولون التراث التفسيري، فإنما يقصدون كما هو متبادر إلى الذهن مجموع ما هو بين أيدينا من تفاسير السلف سواء كانت نقلية أو عقلية.

ونقصد بالنقلية المبنية على الكتاب والسنة واجتهاد الصحابة والتابعين واللغة العربية، وبالعقلية ، التفاسير الباطنية والعلمية الحديثة والعقلية الإجتماعية الحديثة وهذه المادة من علوم المسلمين قد مرت بمراحل كان العامل الأساسي في تعاقبها هو ردود الفعل التي كانت تبرز مع بروز تيار من التيارات التفسيرية ، خصوصا بعد عصر الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

ومع ما لهذه المذاهب التفسيرية من سلبيات ، فإن هذا لا يجعلنا نقف منـــها موقــف المتنكر أو المستنكر الرافض لكل ما أتى منها، فهذا موقف إنفصالي يحاول فصلنا عن جذورنــا الأصلية وتراثنا العلمي العريق.

فإن تلك الاجتهادات في قراءة كتاب الله تعالى كانت وليدة العصر، ومواكبه لعجلـــة الزمن الذي عاشت فيه ، و لم يكن في الإمكان أبدع مما كان كما قيل .

فعلينا أن نستفيد منها ما يفيد عصرنا ، ونتلافى منه ما أدى إلى سوء فهم كتـــاب الله، وندعه عبرة ننتبه بها من التعثر نحن الآخرين في عصرنا الحاضر.

أما ما يتعلق بالسنة كتراث تفسيري للقرآن الكريم، فنحن نعلم الغرض والهدف لـــدى أعداء الإسلام من الطعن فيها ورفضها ، فهو هدم عرى الإسلام عروة عروة حتى يتمكنوا من زعزعة ثقة المسلمين حتى في وحي ربهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـــن خلفــه، فعلينا أن نحترز من هذه الدعوى، ونأخذها بعين الاعتيار، ونتفهم عمق ما يقصدونه بقولهـــم (التراث) فهو تعبير مشبوه القصد (11).

وقد تصدى علماء السنة الشريفة لهذه الغرية بما فيه الكفاية من اثبات صحة مـــا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجيته وخدماته للقرآن الكريم (12) .

5-الوقفة الخامسة : ضوابط لتحديد قصد الخطاب القرآني

ونتساءل، هل هناك ضوابط للتفسير يحدد بها قصد الخطاب القرآني أمام أية قراءة قديمة أو متجددة ؟

- مما لاشك فيه عند علماء الأمة بلاخلاف من أحدهم أن هناك ضوابط ثابتـــة، وأخـــرى متغيرة لا بد من توفرها في فهم دلالات ألفاظ الوحي الالهي ومقاصده .

*** ومن هذه الضوابط الثابتة :**

1 - الإحاطة المتعمقة باللغة العربية التي هي لغة الخطاب الالهي.

2 - الإحاطة بالقرآن الكريم وبعلومه التي هي أدوات لفهم الوحي الالهي كنقطة إنطلاق.

3 – الإحاطة بالسنة الشريفة التي هي المفسر الثاني للقرآن الكريم.

4 – الإحاطة بأقوال الصحابة واجتهاداتهم في فهم القرآن، فهم أقرب إلى عصر الوحي والنبوة

*** أما الضوابط المتغيرة فتتجلى في :**

1 – المنطق العقلي البشري المتطور حسب كل عصر

2 – منطق التطور الحضاري ، وتغير أحوال الأمم.

3 – منطق النظريات والحقائق العلمية المواكبة لكل عصر.

4 – منطق المرونة والواقعية الاجتماعية التابعية لمصالح العباد في كل عصر.

ولابد من وقفة عند الجانب اللغوي لأهميته وخطورته في آن واحد.

فإنه لا بد من أن يفسر القرآن الكريم في ضوء الخطاب اللغوي، لأن القرآن عربي نـــزل بلسان عربي مبين.

وكون مجموع الأمة تحمل اللغة، ولا تتوفر لشخص واحد مكن من حفظ اللغة العربيـــة لخدمة القرآن الكريم.

فالمسلمون في سبيل فهم كتاب ربهم حافظوا على اللغة العربية، وعملوا على جمعـــــها وتدوينها وذلك منذ عهد الصحابة والتابعين.

فإذن توقع أن يكون قد ضاع شيء من اللغة أمر مستحيل مع وجود هـــــذه العوامـــل فاللغة جمعت جمعا مقدسا من أجل فهم القرآن، وذلك خلال مدة ثلاثة قرون مـــــن البعثـــة. فجمع الشعر والأمثال والقصص والطرائف، وكل ما من شأنه أن يحفظ اللغة ويدونها.

ولكن هل كل الألفاظ اللغوية قطعية الدلالة على معناها ؟

قطعا ، لا ، فهناك القطعي، وهناك الظني، وهناك الحقيقة والمجاز، فـــلا شـــك إذن أن الضابط الأول لتفسير القرآن الكريم هو اللغة.

ولا مانع من ظهور أي علم يعين على فهم وضبط العلاقات بين الألفاظ اللغوية كمثـل ظهور علم اللسانيات والسميائيات الحديثة، ولكن تجب دراستها بضبط وتمحيـــص ولذلـــك أيضا لا بد لقبول أي مصطلح لغوي جديد أن يساير أصول اللغة العربية ، ويدور في فلكـــها،

ولذلك أيضا رخص علماء الإسلام تفسير القرآن ببعض المصطلحات الحادثـــة في المجتمعـــات العربية الإسلامية.

6 –الوقفة السادسة : من الذي يقوم بالقراءة الجديدة ؟

خمس حلقات لا بد منها لكل من يتصدى لتفسير القرآن الكريم وقراءته تمشيا مع روح كل عصر ، وسيرا مع متطلبات أفراد الأمة الإسلامية السائرة في درب الكتاب الالهي الكريم:

1– أن يكون محيطا إحاطة شمولية بجميع قضايا اللغة العربية ومكامنها البلاغية والأسلوبية

2– العلم بالقرآن الكريم وتفاسيره وعلومه بالإجمال.

3 – العلم بالسنة من الناحية الأصولية العميقة ، وليس من حيث الظاهر السطحي.

4 – العلم بمنطق العقل السليم، لأن القرآن الكريم يحتوي على مسائل عقلية كونية، تحتاج إلى اعمال الفكر والاجتهاد العقلي لفهم هذه الظواهر.

5 – متابعة العصر ، فلا بد للمفسر من أن يعرف عصره معرفة جيدة، ويحيط بقضاياه إحاطـــة شاملة ، من أجل معرفة ضروريات تغير حياة المسلمين مع تطور عجلة الزمن، واتســـــاع رقعة التطور الحضاري لدى غيرهم من الأمم.

الهوامـــش:

1 – انظر ذلك في مثل "كتاب التفسير والمفسرون" ، للدكتور محمد حسين الذهبي .

2 – هذا التيار قديما تجلى في المعتزلة والصوفية ، وحديثا في المدرسة العقلانية والحداثية.

3 – تفاصيل ذلك مبسوطة في كتب الفقه والأحكام.

4 – انظر "الرسالة" للشافعي ، وانظر "مجمل اعتقاد أئمة السلف" للدكتور عبد الله بن عبـــد المحسن التركي ص :129 وما بعدها.

5 – انظر "دراسات في أصول تفسير القرآن الكريم"، للدكتور محسن عبد الحميد.

6 – الحشر : 2.

7 – الاعراف : 185

8 – ق : 37 .

9 – الروم : 42

10 – هذا عنوان مشروع برزت معالمه مع كتاب لمحمد أركون يحمل هذا العنوان.

11 – انظر "كتاب نحن والتراث" للدكتور محمد عابد الجابري على سبيل المثال لا الحصر.

12 – انظر كتاب "منهج النقد في علوم الحديث" للدكتور نور الدين عتر، فهو قيم في الـــرد على هذه المزاعم في هذا الباب.

مصطلح المرسل عند المحدثين

ذ. فؤاد بوقجيج
كلية الآداب مكناس

ملخص:

تروم هذه الورقة تحديد تعريف دقيق لمصطلح خاص من مصطلحات الحديث النبوي، وهو الحديث "المرسل" وذلك بتعريف المصطلح من الناحية اللغوية،والوقوف على أشهر تعاريفه من الناحية الإصطلاحية، مع تحليل هذا التعريف واستعراض أقوال المحدثين والأصوليين حوله اتفاقا واختلافا، مع الإشارة إلى مصطلحات أخرى تدخل ضمن"المرسل"، ثم ذكر مذاهب العلماء في الإحتجاج بالحديث "المرسل"، وفي ختام هذا العرض المتواضع وقوف على أهم مراتب الحديث"المرسل".

إن الحمد لله نحمده تعالى و نستعينه ونستهديه و نستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له؛ و من يضلل فلا هادي له و أشهد أن لا إلاه إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده و رسوله

أما بعد :

فلقد شاءت قدرة الله تعالى أن يقيض لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم رجالا أكفاء يحفظونها ويذبون عنها الكذب، فنشأ بذلك علم جليل هو علم الجرح والتعديل الذي خلف آثارا مهمة في ميدان علم الحديث من أبرزها تقسيم الأحاديث النبوية من حيث القبول أو الرد إلى ثلاثة أقسام رئيسة، هي الحديث الصحيح والحسن والضعيف، وتعمقوا في بحث كل صنف من هذه الأصناف حتى أحاطوا بها جميعا،و لم يتركوا لمن جاء بعدهم إلا أن يعول على ما كتبوا و يلتزم بما توصلوا إليه من نتائج، و الذي يهمنا من هذه الأصناف في هذا المقال هو الحديث الضعيف حيث شملته دراسات مستفيضة حتى إن ابن حبان البستي (ت 354 هـ)

هـــ) قد قسمه إلى خمسين قسما إلا قسما واحدا، يندرج ضمنها الحديث "المرسل" ، فالمرسل إذن اصطلاح خاص لنوع من الأحاديث و ليتضح جيدا لابد من تعريفه لغة و اصطلاحا.

1- تعريف المرسل :

المرسل لغة : وردت في تعريف المرسل عدة تعاريف نقتصر على أشهرها، المرسل (مأخوذ من الإرسال وهو الإطلاق كقوله تعالى: "ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين "2 فكأن المرسل أطلق الإسناد و لم يقيده بجميع رواته). وفي نفس هذا المعنى أيضا (فكأن الراوي حين يروي عمن لم يلقه أرسل الرواية و لم يقيدها به)4. و قد يكون المرسل مشتقا من قولهم (ناقة مرسال، أي سريعة السير، قال كعب بن مالك:

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

أو من قولهم جاء القوم أرسالا أي متفرقين، لأن بعض الإسناد منقطع عن بقيته) 5

قال ابن سيده (المرسل: بفتح الراء و السين القطع من كل شيء و الجمع إرسال، وجاؤوا رسلة رسلة أي جماعة)6. ويقول ابن رجب:(ويحتمل أن يكون أصله من الاسترسال و هو الطمأنينة إلى الإنسان و الثقة به فيما يحدثه، فكأن المرسل للحديث اطمأن إلى من أرسل عنه و وثق به)7 ، فهذا أشهر ما قيل في معنى المرسل لغة .

المرسل اصطلاحا : أما تعريف المرسل من الناحية الإصطلاحية فقد تضاربت فيه أقوال المحدثين ، كل واحد عرفه حسب رأيه و ما ترجح عنده .

فالمشهور من هذه التعاريف، " أنه ما رفعه التابعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان من كبار التابعين كعبيد الله بن عدي بن الخيار وقيس بن أبي حازم وسعيد بن المسيب و أمثالهم ، أو من صغار التابعين كالزهري و أبي حازم، و يحى بن سعيد الأنصاري و أشباههم ،و القول الثاني أنه ما رفعه التابعي الكبير إلى النبي صلى الله عليه و سلم "8

إذن فقول التابعي الكبير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا أو فعل كذا مرسل بالإتفاق، وخرج بقيد التابعي مرسل الصحابي كبيرا كان أو صغيرا، و سوى هذا قد حصل فيه الاختلاف، كقول من دون التابعي قال رسول الله صلى الله عليه و سلم.

فذهب الحاكم وغيره إلى أن ذلك لا يسمى مرسلا، فقال:"فأما مشايخ أهل الكوفة فكل من أرسل الحديث عن التابعين وأتباع التابعين ومن بعدهم من العلماء، فإنه عندهم مرسل محتج به وليس كذلك عندنا، فإن مرسل أتباع التابعين عندنا معضل"9

فإذا كان الحاكم يفرق بين التابعين و أتباعهم، فإن ابن الصلاح يرى " أنه لا فرق بين الكبير والصغير وأن المشهور التسوية بين التابعين أجمعين" 10 ويدخل في تعريفه قول الصحابي و التابعي إذا رواه عنهما من لم يسمعه منهما، و هذا ما أشار إليه الغزالي بقوله: "وصورته أن يقول :قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من لم يعاصره أو قال من لم يعاصر أبا هريرة قال أبو هريرة" 11.

و مهما يكن من أمرفإنه من المشهور في الفقه و أصوله أن كل ذلك يسمى مرسلا كما أشار إلى ذلك النووي في التقريب 12، و هذا هو الذي اختاره الخطيب البغدادي وقطع به فقال:"إلا أن أكثر ما يوصف بالارسال من حيث الاستعمال رواية التابعي عن النبي صلى الله عليه و سلم" 13 فالاختلاف إذن في الاصطلاح و العبارة ، فكلهم لا يحتجون به ،لكن مما يلاحظ أن الفقهاء و الأصوليين قد عمموا إطلاق المرسل ،لكن المحدثين كانوا أخص في إطلاقه.

1- وتجدر الاشارة إلى أن دائرة الخلاف قد توسعت بين المحدثين في إطلاق تعريف محدد للمرسل ، فأدخلوا فيه اصطلاحات أخرى أصبح لها تعريف خاص بها فيما بعد، فكان بعضهم يعد المنقطع مرسلا كأبي زرعة وأبي حاتم والدارقطني14، والخطيب البغدادي أيضا حيث قال:"لاخلاف بين أهل العلم أن إرسال الحديث الذي ليس بمدلس هو رواية الراوي عمن لم يعاصره أو لم يلقه"15.

هذا و بالاضافة إلى ما اتفقوا عليه واختلفوا فيه بخصوص التابعين وأتباعهم في تحديد مصطلح(مرسل) ،نجد أن المحدثين قد تكلموا عن اصطلاح آخر بخصوص المرسل وهو ما

أسموه بمرسل الصحابي يقول السيوطي:"و في الصحيحين من ذلك ما لايحصى" 16، ويوضح هذا النوع بقوله:"كإخباره عن شيء فعله النبي صلى الله عليه وسلم أو نحوه مما يعلم أنه لم يحضره لصغر سنه أوتأخر إسلامه "17.

وبعبارة أخرى هو ما رواه بعض أحداث الصحابة كابن الزبير وابن عباس مثلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يسمعوه منه .

والذي يظهر لنا أن مصطلح (مرسل الصحابي) لم يقع فيه خلاف بالشكل الذي لمسناه في تحديد مرسل غيره.

وذكر علماء الحديث نوعا آخر يطلق عليه مصطلح المرسل،و هو ما يسمىب(المرسل الخفي) وهو نوع دقيق المسلك لايدركه إلا الجهابذة النقاد الذين تمرسوا بهذا الفن، وكثيرا ما يغتر بظاهر إسناده من لاعلم له في هذا الشأن، ويعرفه ابن حجر في معرض تفريقه بينه وبين (المدلس) فيقول: "التدليس يختص بمن روى عمن عرف لقاؤه إياه، فأما إن عاصره و لم يعرف أنه لقيه فهو المرسل الخفي" 18، وقد حصل في هذا النوع اختلاف بين المحدثين أيضا لاداعي للخوض فيه .

فلاختلاف إذن كان بارزا بين المحدثين في تحديد مصطلح (مرسل) وخصوصا مرسل التابعي، ويمكن عزو ذلك إلى أن المتقدمين كانوا يتوسعون في إطلاقه فيدخل فيه المنقطع وغيره في حين كان المتأخرون أدق في تعريفه فلا يطلقونه إلا بهذا المعنى ـــ أي ما رفعه التابعي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم سواء كان التابعي كبيرا أو صغيرا .

ومما يشهد للمتقدمين بأنهم كانوا يتوسعون في هذا الاطلاق أن ابا داود السجستاني صاحب السنن (ت 275) وعبد الرحمان بن أبي حاتم الرازي (ت 327) كل منهما قد ألف كتابا في المراسيل وذكرا فيه بصفة عامة كل من روى عمن لم يلقه تابعا كان أم من أتباع التابعين فدخل بذلك في صنيعيهما الحديث المدلس والمنقطع والمعضل كل هذا في نطاق الحديث المرسل19 ، وهذا ما لم يلجأ إليه المتأخرون نظرا لنضج العلوم و استقرار الاصطلاح، فكان الضبط والتدقيق سمتهم حتى أصبحنا نجد تلك الأنواع التي شملها لفظ (مرسل) ذات

تعريف خاص بها كالمنقطع والمعضل وغيرهما، وهي نتيجة طبيعية في سير العلوم وسنة في بلوغها رتبة الكمال .

وعلم مصطلح الحديث لا تخفى صعوبته على الدارسين والمهتمين بميدانه ،فليس عجيبا إذن أن نرى اختلاف المحدثين في تحديد مصطلحاته و ضبطها بشكل يقطع دابر الخلاف بينهم، نظرا لتشعب مباحثه وتداخلها، ومصطلح (مرسل) لا يخرج عن هذه الدائرة، فهذا الامام الحاكم أبو عبد الله النيسابوري يعترف بذلك في معرض حديثه عن المرسل فيقول: "النوع الثامن من هذا العلم معرفة المراسيل المختلف في الاحتجاج بها و هذا نوع من علم الحديث صعب قل ما يهتدي إليه إلا المتبحر في هذا العلم " 20.

وتجدر الاشارة إلى أن ما لمسناه من اختلاف بين العلماء المحدثين في تعريف الحديث المرسل وتخصيص إطلاقه، لم يكن خلافا إعتباطيا دون جدوى بل كان كل واحد منهم له آراء وحجج يدعم بها ما ذهب إليه و اختاره مما يجعل هذا العلم أكثر غنى و ثراء .

وبعد تعريف المرسل ننتقل إلى نقطة مهمة في هذا الموضوع و هي حجية الحديث المرسل و اختلاف المذاهب في ذلك

2 – مذاهب العلماء في الاحتجاج بالحديث المرسل:

لقد اختلف العلماء في الاحتجاج بالمرسل كما هو الشأن في اختلافهم في تعريفه، فمنهم من قبله ومنهم من رده ، ومنهم من قبله بشروط معينة .

– **المذهب الأول:** وهو مذهب جمهور المحدثين وكثير من علماء الفقه و الأصول قالوا إنه ضعيف لا يحتج به. قال أبو عيسى الترمذي: (والحديث إذا كان مرسلا فإنه لا يصح عند أكثر أهل الحديث قد ضعفه غير واحد منهم حدثنا علي بن حجر(...) عن عتبة بن أبي حكيم قال سمع الزهري إسحق بن عبد الله بن أبي فروة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الزهري قاتلك الله ياا بن أبي فروة تجيئنا بأحاديث ليس لها خطم و لا أزمة " 21. وإذا كان الترمذي لم يسم لنا هؤلاء الذين ردوا المرسل فإن النووي قد سمى بعضهم فقال :"ثم المرسل حديث ضعيف لا يحتج به عند جماهير المحدثين و الشافعي (...) و حكاه الحاكم عن ابن المسيب ومالك وكثير من الفقهاء

وأصحاب الأصول والنظر للجهل بحال المحذوف ،لأنه يحتمل أن يكون غير صحابي و إذا كان كذلك فيحتمل أن يكون ضعيفا و إن اتفق أن يكون المرسل لا يروي إلا عن ثقة، فالتوثيق مع الابهام غير كاف "22 .

– فالعلة واضحة في ردهم للمرسل وهي احتمال أن يكون الراوي قد روى عن راو غير ثقة، وهذا ما أشار إليه أبو عيسى الترمذي بقوله :"ومن ضعف المرسل فإنه ضعفه من قبل أن هؤلاء الأئمة قد حدثوا عن الثقات وغير الثقات، فإذا روى أحدهم حديثا وأرسله لعله أخذه عن غير ثقة " 23،فلا بد أن يكون الحديث متصلا بإسناد صحيح لكي يقبل، لأن فقدان أي حلقة من حلقات الاسناد يدني الحديث عن رتبة الصحة، وشتان بين إسناد متصل وآخر منقطع،و هذا ما جعل العلماء المحدثين يتحرون الأسانيد المتصلة، قال ابن أبي حاتم:" سمعت أبي و أبا زرعة يقولان لا يحتج بالمراسيل ولا تقوم الحجة إلا بالأسانيد الصحاح المتصلة وكذا أقول أنا " 24.

– **المذهب الثاني:** و هو مذهب الامام الشافعي رحمه الله (ت 204) كما ذكره في كتابه القيم (الرسالة) فقال:"والمنقطع مختلف فمن شاهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من التابعين فحدث حديثا منقطعا عن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر عليه بأمور (...)"25. فمذهبه كما هو مستخلص من كلامه هو قبول المرسل من كبار التابعين بشرط الاعتبار في الحديث المرسل ،و في الراوي الذي أرسل الحديث .

– بالنسبة للاعتبار في الحديث فهو أن يعتضد بأحد أمور أربعة :

– ان يروى مسندا من وجه آخر .

– أن يروى مرسلا بمعناه عن آخر لم يأخذ عن شيوخ الأول فيدل على تعدد مخرجه .

– ان يوافق قول بعض الصحابة .

– أن يقول به أكثر أهل العلم .

– و أما الاعتبار في الراوي المرسل :

– أن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسم مجهولا و لا مرغوبا عنه في الرواية .

– أن يكون إذا شارك أحدا من الحفاظ في حديث لم يخالفه فإن خالفه وجد حديثه أنقص.

فإذا توفرت هذه الأمور كان ذلك دلالة على صحة مخرج حديث هذا الراوي، فالشافعي رحمه الله قد وضع ضوابط متينة لقبول المرسل لابد من توفرها ،لأن هذه الشروط تجعل درجة الحديث أقرب إلى الصحة منها إلى الضعف . وقد علق ابن رجب الحنبلي على كلام الشافعي بقوله :"و حينئذ فلا يرد على ذلك ما ذكره المتأخرون أن العمل حينئذ إنما يكون بالمسند دون المرسل " 26.

– **المذهب الثالث** : وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأصحابهما أن المرسل يقبل وأنه صحيح يحتج به ،قال أبوداود: "وأما المراسيل فقد كان يحتج بها العلماء فيما مضى مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس و الأوزاعي حتى جاء الشافعي فتكلم فيها و تابعه على ذلك أحمد بن حنبل وغيره رضوان الله عليهم "27 فشهادة أبي داود لها قيمتها ووزنها ذلك أنه كان أقرب إلى عصر من شهد لهم بأنهم كانوا يحتجون بالمرسل، ويؤكد ذلك من المتأخرين الامام السخاوي (ت902) حيث قال ـــ في معرض شرحه لألفية العراقي ـــ:"واحتج الامام مالك هو ابن أنس في المشهورعنه وكذا الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ،و تابعهما المقلدون لهما" 28،و للمحتجين بالمرسل ادلتهم يعضدون بها ما ذهبوا إليه منها:

- أن الراوي الثقة لايحكي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم إلا إذا كان من سمعه منه ثقة ،و التابعون قد رووا عن الصحابة و الصحابة كلهم عدول .
- أن أهل تلك القرون كان غالب حالهم الصدق و العدالة بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم لهم حيث قال (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يستشهد و يحلف الرجل ولا يستحلف)29 ، فحيث لم نطلع على ما يجرح الراوي فالظاهر أنه عدل مقبول الحديث .

ومهما يكن من أمر فإن الحديث المرسل قد كان أكثر فقهاء و محدثي القرنين الأول و الثاني يحتجون به وذلك راجع أساسا لعدم وجود قواعد ضابطة لأصول الرواية حيث استمر ذلك حتى أواخر القرن الثاني الهجري حيث ظهر الامام الشافعي و يحى بن سعيد القطان وغيرهما فردوا الحديث المرسل .

إن هذه المراسيل التي اختلفت فيها مذاهب العلماء هي في حقيقة الأمر ثلاثـــة أنـــواع كما قرر ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية حيث قال :"و المراسيل قد تنازع الناس في قبولهـــا و ردها و أصح الأقوال أن منها المقبول و منها المردود ومنها الموقوف ... "30 فبناء على هـــذا الرأي كل مذهب له الحق فيما اختاره أصحابه ما دام المرسل تشمله هذه الأنواع الثلاثة .

أما مرسل الصحابي: فهو حجة عند الجمهور ، ذلك أن الذين ردوا الخبر المرســـل لم يردوه إلا لجهلهم براويه الذي قد يكون تابعيا روى عن تابعي غير ثقة، في حين أن الصحـــابي لا يروي غالبا إلا عن صحابي و الصحابة عدول بإجماع أهل السنة 31، فمتى كان الســـاقط صحابيا كفانا ذلك مؤنة البحث عنه ، و لم يخالف في ذلك إلا بعض الأصوليين كأبي إســـحق الاسفرايني ، يقول الامام العراقي:"إن المحدثين و إن ذكروا مراسيل الصحابة فإنهم لم يختلفـــوا في الاحتجاج بها و أما الأصوليون فقد اختلفوا فيها، فذهب الأستاذ أبو إسحق الاسفرايني إلى أنه لا يحتج بها وخالفه عامة أهل الأصول فجزموا بالاحتجاج بها "32 و حتى نؤكد أيضـــا أن مرسل الصحابي حجة نسوق كلام الامام النووي حيث قال :"أما مرسل الصحابي كإخبـــاره عن شيء فعله النبي صلى الله عليه و سلم أونحوه مما نعلم أنه لم يحضره لصغر ســـنه أولتـــأخر إسلامه أو غير ذلك، فالمذهب الصحيح المشهور الذي قطع به جمهور أصحابنا وجماهير أهـــل العلم أنه حجة، وأطبق المحدثون المشترطون للصحيح القائلون بأن المرسل ليس بحجـــة علـــى الاحتجاج به وإدخاله في الصحيح ،وفي صحيح البخاري ومسلم من هذا ما لايحصـــى "33. وذلك لأن الصحابة كما قلـــنا كلهم عدول، فلا يلتفت إذن إلى رد مراسيلهم، فقـــول أبي إسحق الاسفرايني مردود عليه وكذا قول ابن حزم :"فلا يقبل حديث قال فيه راويه عن رجل من الصحابة أو حدثني من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حتى يسميه ويكـــون معلوما بالصحبة الفاضلة ممن شهد الله تعالى لهم بالفضل والحسنى "34، ذلـــك أن مراســـيل الصحابة لها حكم الموصول كما ذكر ذلك العراقي 35.

ولا يعترض على هذا بما ذهب إليه البعض من أن الصحابي قد يروي أحيانا عن التـابعي عن الصحابي، والتابعي قد لايكون ثقة فيقدح ذلك في روايته، فلا يسلم لهم بذلك لأن روايـة الصحابة عن التابعين أو ما يسمى برواية الأكابر عن الأصاغر لم تقـــع إلا نـــادرا، وإذا روى

الصحابة عن التابعين بينوا ذلك، ثم إن أكثر هذه الروايات عن التابعين ليست بأحاديث مرفوعة 36،و هذا وحده يكفي للحكم بصحة مرسل الصحابي، فما كان لصحابي أن يأخذ عن صحابي ما لم يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،بل لابد وأن ذلك الصحابي سمع، ومادام الكذب بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منعدما فلا ضير إذن أن يروي أحدهم عن الآخر و إن لم يسمعه مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال البراء ابن عازب :" ليس كلنا سمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لنا ضيعة و أشغال و لكن الناس لم يكونوا يكذبون يومئذ فيحدث الشاهد الغائب " 37، فالصدق و الأمانة كانت من أبرز صفاتهم فلا مجال إذن للطعن في رواياتهم ، يقول الأمير الصنعاني:" إلا أنه لا يعلم حديث رواه الصحابي أنه سقط منه راو إلا بإخبار الصحابي بذلك ،لأن الأصل فيما يرويه أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سيما إذا عرف بالأخذ عنه و الملازمة مثل أبي هريرة و نحوه " 38. وبهذا يتضح أن مرسل الصحابي حجة يلزم قبوله و العمل به لما بيناه من أسباب جعلته يرقى بكثير عن مرسل غيره .

وتجدر الإشارة إلى أن المحدثين قد بحثوا هذه المراسيل و درسوها جيدا فاستطاعوا أن يميزوا بينها في الرتبة .

3- مراتب المرسل :

بناء على التمييز بين مرسل التابعي الكبير والتابعي الصغير ــ وإن كانت التسوية بينهما هي الأرجح ــ وبين مرسل الصحابي ، رتب المحدثون هذه المراسيل حسب الأولوية بالنظر إلى تحري صاحبها و مدى ضبطه وإتقانه ،فأعلى مراتب المرسل كما ذكر ذلك الإمام السخاوي:"ما أرسله صحابي ثبت سماعه ثم صحابي له رواية فقط و لم يثبت سماعه ثم المخضرم ثم المتقن كسعيد بن المسيب39، ويليها من كان يتحرى في شيوخه كالشعبي و مجاهد40، ودونها مراسيل من كان يأخذ عن كل أحد كالحسن، وأما مراسيل صغار التابعين كقتادة والزهري وحميد الطويل فإن غالب رواية هؤلاء عن التابعين "41.

فمن هذا الترتيب يتضح لنا أن هؤلاء الرواة ـــ وغيرهم ـــ ليسوا على درجة واحدة حتى نسوي بين مروياتهم جميعا، ذلك أن ما سمعه هذا قد لا يسمعه الآخر، وإذا حفظ هذا رواياته وأتقنها وضبطها قد يتساهل في ذلك غيره، وهذه الفوارق كلها لم تكن لتخفى على الجهابذة من المحدثين الذين وهبوا حياتهم لتتبع أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وتنقيتها و الذب عنها، فلم يتركوا مجالا لمن جاء بعدهم ليعترض عليهم أو يستدرك.

فالحكم على مراسيل هؤلاء الرواة بالصحة أو عكسها ،و تصنيف بعضها في الرتبة الأولى دون البعض الآخر كان مبنيا أساسا على الحكم على صاحب هذه الأحاديث، فمن اشتهر بالصدق والاحتياط والضبط في الرواية قبلت مراسيله، ومن كان لا يبالي عمن أخذ الرواية تدنت مرتبة مراسيله .

الهوامش:

1- و من أهم مظان الحديث المرسل كتاب المراسيل مع الأسانيد لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت 275) أنظر طبعة دار القلم –بيروت –لبنان الطبعة الأولى 1406 ه–1986م دراسة و تحقيق الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان. ومنهج الإمام أبي داود في هذا الكتاب هو أنه يذكر فيه الأحاديث المرسلة بأسانيدها مرتبة على أحرف المعجم .

وكتاب المراسيل للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت 327) و منهجه فيه أنه يسرد أسماء الرواة المرسلين مرتبة على أحرف المعجم، و لا يلتزم بذكر أحاديثهم المرسلة إلا نادرا .

وكتاب جامع التحصيل لأحكام المراسيل لصلاح الدين العلائي (ت 761) ومنهجه في هذا الكتاب أنه ذكر جملة من الأمور المتعلقة بالحديث المرسل و تعريفه وأنواعه وغير ذلك، ثم ذكر أسماء الرواة المدلسين وذكر أسماء الرواة المرسلين مرتبة على أحرف المعجم، و نادرا ما يذكر الأحاديث .

2- سورة مريم :83 .

3- شرح ألفية العراقي المسماة بالتبصرة و التذكرة ج1/ص144دار الكتب العلمية لبنان بتحقيق محمد بن الحسن العراقي.

4- انظر مقدمة كتاب المراسيل ص16م لابن أبي حاتم دار الكتب العلمية –بيروت- لبنان بتحقيق عصام الكاتب.

5- انظر فتح المغيث للسخاوي ج1/156 طبعة دار الإمام الطبري ، تحقيق و تعليق الشيخ علي حسين علي.

6- انظر جامع التحصيل في أحكام المراسيل ص23، طبعة عالم الكتب بيروت 1407/ 1986 الطبعة الثانية بتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي .

7- انظر شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي ص171 ، طبعة ديوان الأوقاف ببغداد بتحقيق الأستاذ الشيخ صبحي السامرائي –ط 1- .

8-انظر شرح ألفية العراقي ج1/144 ،و معها فتح الباقي على ألفية العراقي للشيخ زكريا الأنصاري، طبعة دار الكتب العلمية –بيروت- لبنان بتصدير محمد بن الحسين العراقي الحسيني .

9- انظر معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص26 ، طبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع–بيروت- الطبعة الثانية 1977 ،بتحقيق السيد معظم حسين .

10- انظر مقدمة ابن الصلاح مع شرحها التقييد و الإيضاح للعراقي ، بتذييل الشيخ محمد راغب الطباخ ص73، طبعة دار الحديث –بيروت- لبنان –ط2- 1984/1405 .

11- انظر المستصفى للغزالي ج1/ص107 ،-ط1- 1356 طبعة المكتبة التجارية بمصر .

12- التقريب مع التدريب للسيوطي ج1/195 ،طبعة دار الكتاب العربي –بيروت- لبنان 1989/1409 بتحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم .

13- انظر الكفاية في علم الرواية ، للخطيب البغدادي ص21 ،طبعة المكتبة العلمية –المدينة المنورة- حققه أبو عبد الله السورقي و إبراهيم حمدي المدني .

14- انظر فتح المغيث ج1/159 .

15- انظر الكفاية في علم الرواية ص384 .

16- انظر تدريب الراوي مع التقريب ج1/207 .

17- نفس المصدر و الصفحة .

18- انظر نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر للحافظ ابن حجر العسقلاني ص82 ، الطبعة الثانية 1993/1414 بتحقيق نور الدين عتر .

19- انظر مقدمة كتاب المراسيل لابن أبي حاتم ص16م-17م .

20- معرفة علوم الحديث ص25 .

21- انظر علل الترمذي لأبي عيسى الترمذي ص754 ،طبعة دار إحياء التراث العربي –بيروت- لبنان 1938/1357 بتحقيق أحمد محمد شاكر .

22- انظر تدريب الراوي مع التقريب ج1/ص198 .

23- انظر علل الترمذي للإمام الترمذي ص754 .

24- انظر المراسيل لابن أبي حاتم ص7 .

25- انظر الرسالة للإمام الشافعي ص461 وما بعدها ،طبعة القاهرة 1939/1358 تحقيق أحمد محمد شاكر .

26- شرح علل الترمذي لابن رجب ص184 .

27- انظر رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص24 ،طبعة دار العربية –بيروت- حققها محمد الصباغ .

28- فتح المغيث ج1/161 .

29- الحديث أخرجه الإمام الترمذي في كـــتاب الشهادات، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه،حديث رقم (2225) ،وأخرجه الإمام البخاري في كتاب الشهادات مع اختلاف يسير في اللفظ ،حديث رقم (2457)، و كذا الإمام أحمد من حديث عمران بن حصين مع اختلاف يسير في اللفظ في مسند البصريين ، حديث رقم (18994).

30- من مخطوط للحافظ ابن عبد الهادي محفوظ بالمكتبة الظاهرية بدمشق (حديث 405-ق 225-227)

31- يقول الإمام ابن حجر :" اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ، و لم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة " انظر الإصابة في تمييز الصحابة ج1/ص10 ، مطبعة السعادة بمصر –ط1- 1328 .

32- انظر التقييد و الإيضاح ص80 .

33- المجموع للإمام النووي ج1/ص102 ،نسخة مصورة نشر دار المعرفة –بيروت- لبنان.

34- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي ج2/ص135 ،طبعة دار الحديث 1404 .

35- التبصرة و التذكرة ص156 .

36- انظر التدريب مع التقريب ج1/ص207 .

37- أخرجه الخطيب البغدادي في الكفاية ص385-386 .

38- انظر توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار للإمام الصنعاني ج1/ص290 ،تحقيق الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

39- يقول عنه الإمام الصنعاني :" فإنه لايرسل إلا عن ثقة و قد لقي جماعة من الصحابة وأخذ عنهم و دخل على أزواج رسول الله صلى الله عليه و سلم و أخذ عنهن و أكثر روايته عن أبي هريرة "توضيح الأفكارج1/ص228، و انظر جامع التحصيل ص89 .

40- يقول ابن أبي حاتم:" حدثنا صالح بن أحمد بن حنبل (نا) علي بن المديني قال:(مرسلات مجاهد أحب إلي من مرسلات عطاء بكثير كان عطاء يأخذ عن كل ضرب) " المراسيل ص4 .

41- انظر فتح المغيث ج1/ص181 .

اللغويات العربية ومواقع الفقه والنحو داخل الثقافة العربية.

ذ. العربي الخامر

كلية الآداب - مراكش

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى مقاربة بداية اللغويات العربية، ومواقع كل من الفقه والنحو داخل الثقافة العربية مع عرض للتداخل الموجود (أو ما يسمى بالتقاطعات) بين الفقه والنحو، أو بين الفقيه و النحوي، ودراسة الجوانب المتعلقة بهذه المسائل.

المبحث الأول: نشأة الدراسات اللغوية العربية

من خلال الحديث عن اللغوية العربية ونشأتها نجد أنه لم يؤثر عن العرب أي نوع من الدراسات اللغويات قبل الإسلام، ولهذا فهم متأخرون زمنيا عن كثير من الأمم، والتي عرف لبعضها دراسات لغوية راسخة قبل الإسلام بقرون. و لم يكـــن البحث اللغوي عند العـــرب من الدراسات المبكرة التي خفو لها سراعا، لآنهم وجهوا اهتمامهم أولا إلى العلوم الشرعية والإسلامية، وحين فرغوا منها أو كادوا اتجهوا إلى العلوم الأخرى.

يقول الإمام السيوطي في هذا الباب:" منذ منتصف القرن الثاني الهجري بدأ علماء المسلمين يسجلون الحديث النبوي، ويؤلفون في الفقه الإسلامي والتفسير القرآني، وبعد أن تم تدوين هذه العلوم اتجه العلماء وجهة أخرى نحو تسجيل العلـــوم غير الشرعية ومن بينها اللغة و النحو.(1)

ولدا نجد أن أكثر اللغة كتب في العصر العباسي الأول لاقبله، وحتى ما وجد في القرن الأول من تأملات نحوية أو محاولات لدراسة بعض المشاكل اللغوية كان الحافز إليه إسلاميا، و لم يقصد لذاته، وإنما باعتباره خادما للنص القرآني.

ثم إن كثيرا من المحاولات الأولى للدرس اللغوي التي تمت في أماكن مختلفة من العالم كانت مرتبطة بالدين وبالعقيدة. فنجد هذا عند اليهود الذين بدعوا بحثهم اللغوي لخدمة نصوصهم المقدسة المسماة بالفيدا، ومثل هذا نجده عند الصينيين، إذ كانت دراسة النصوص الدينية البودية وغيرها سببا في نشأة المعاجم الصينية، وكذلك الشعر الحماسي والديني في اليونان دافعا للتأليف اللغوي.

ومن دون شك فإن الباعث الأول لنشأة العلوم العربية (2) هو الدين الجديد الذي أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم. فاهتمامهم بأحكامه حفز على تدوين الفقه والحديث ثم نشأة العلوم المتعلقة بهما، وعنايتهم بالقرآن الكريم صرفتهم إلى الإهتمام بقراءته وتفسيره وتاريخه، كل ذلك حملهم على ضبط اللغة وإحكام قواعدها، و لم تنقض المائة الثانية حتى كان للفقه كتبه ومذاهبه وأصوله، كما كان للدين أيضا كتبه وجدله وأصوله ومتكلموه وفرقه. دون أو لا الفقه وأصوله والحديث، ثم جاء النحو يتقدم رويدا رويدا، وبدأ يدون وتنسق أبوابه وفصوله.(3)

أما البحث النحوي فقد بدأ متأخرا عن جمع اللغة، لأنه لايمكن القيام به بدون مادة توضع رهن تصرف النحوي. لأن تقعيد القواعد ما هو إلا فحص لمادة لغوية ثم جمعها بالفعل، ومحاولة لتصنيفها واستنباط الأسس والنظريات التي تحكمها. وفي هذا الإطار يقول الإمام السيوطي نقلا عن عبد اللطيف البغدادي في شرح الخطب البنائية: " اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولايتعداه. وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه، ومثالها المحدث والفقيه، فشأن المحدث نقل عللله ويقيس عليه الأشباه والأمثال.(4)

ومن خلال العلاقة الموجودة بين اللغوي والنحوي، والتي يصعب الفصل بينهما يقول محمد عابد الجابري: "والحق أنه يصعب الفصل بين اللغوي والنحوي، فاللغوي كان نحويا والنحوي كان لغويا، وكان الفرق بينهما هو أن أحدهما كان يهتم أكثر باللغة كألفاظ ومعان في حين كان الشغل الشاغل للآخر هو البحث عن شواهد للقواعد النحوية التي يستنبطها أو يضعها وضعا.(5)

وهذه العلاقة نجدها أيضا عند النحوي والفقيه، حيث تطالعنا بين الفينة والأخرى مصطلحات الثقافة الفقهية في كتب النحو. فنجد مثلا في كتاب:" الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري (من رجال المائة السادسة) تعليقا على قول البصريين: " والدليل على أن نعم وبئس فعلان ماضيان إنهما مبنيان على الفتح، ولو كانا اسمين لما كان لبنائهما وجه، إذ لاعلـــة هاهنا توجب بنائهما". ويقول ابـــن الأنباري: "هذا تمسك باستصحاب الحال وهو من أضعف الأدلة". فهذا كما نلاحظ، تحكيم لمعايير الفقه في النحو."(6)

ما يمكن ملاحظته بشكل عام رغم تباين الآراء في بداية اللغويات العربية، هو أن هذه البداية قامت على جمع اللغة وتدوين مفرداتها في شكل رسائل تجمع المصطلحات اللغوية الـــتي تفيد في الإحاطة بموضوع واحد (الخيل، السلاح، الإبل...إلخ). وكذلك في النوادر اللغوية. وتكتسي هذه المرحلة أهميتها لكونها تشكل نواة إقامة المعاجم اللغوية الكبيرة في المراحل اللاحقة. ومن جهة أخرى مادة غزيرة للدراسة والتحليل والتعليل والخروج بالقواعد والقوانين والأحكام.

المبحث الثاني : مواقع الفقه و النحو داخل الحقل الثقافي العربي

عندما نبرز أهمية الفقه في الثقافة العربية الإسلامية، كما وكيفا، فليس ذلك من أجل الإنخراط في عملية التنويه الذاتي السائد في الخطاب العربي المعاصر ردا على تحديـــات الغرب، بل نريد من وراء ذلك تأكيد الحقيقة التالية، وهي: أن الفقه الإسلامي كان ولايزال أقرب منتجات العقل العربي إلى التعبير عن خصوصيته. وتاريخ تطور الفقه يزكي هذه الحقيقة تمام التزكية.

فمن جهة كان الفقه هو الميدان الذي إلتقت فيه مختلف الاختصاصات قبل عصر التدوين وخلاله وبعده. وكما لاحظ المستشرق الكبير هملتن جيب، فلقد استغرق العمل الفقهي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة الطاقات الفكرية لدى الأمة الإسلامية إلى حد لانظير له، إذ لم يكن المساهمون في هذا الميدان هم علماء الكلام والمحدثون والإداريون فحسب، بل إن علماء اللغة والمؤرخين والأدباء أسهموا بانصباء في هذه المجموعة من المؤلفات

التشريعية، وفي مناقشة القضايا التشريعية. وقلما تغلغل الشرع في حياة أمة وفي فكرها هذا التغلغل مثلما فعل في الأدوار الأولى من المدينة الإسلامية.

ومن جهة أخرى، وباستثناء الشيعة الذين لهم فقه خاص يتوارثونه عن أئمتهم، فإن الخلافات المذهبية داخل الفقه لم تخضع دوما للخلافات الكلامية، العقدية السياسية. بل بالعكس كان المعتزلة والأشاعرة والماتريدية (7) منتشرين داخل المذاهب الفقهية بشكل جعل المذهب الفقهي يعلو على كل المذاهب الأخرى.

وهكذا، وأمام كثرة المذاهب الكلامية والسياسية، نجد الفقه يقوم بإعادة توزيع للشخصيات العلمية، مما يجعلها تجد نفسها تلتقي على صعيد المذهب الفقهي رغم كل ما يفرق بينها على الصعيد العقائدي والسياسي والفلسفي. الشيء الذي ساهم ولاشك في جعل الثقافة العربية الإسلامية تتهيكل عبر قنوات ومسالك تصب اللحـــام بين أجزائها من كل جهة. وليست هذه القنوات والمسالك شيئا غير الفقه وعلوم الفقه.

وهناك ظاهرة أخرى تؤكد قوة الفقه الإسلامي واستقلاليته في الثقافة العربية الإسلامية لابد من تسجيلها هنا. ذلك أن " الموروث القديم " الذي واجه الإسلام على صعيد العقيدة، لم يكن له أي أثر على صعيد الشريعة. إن التاريخ لم يسجـــل أي نزاع أو صراع بين " تشريع قديم " وبين " التشريع الإسلامي ". ويزيد .ذ. عابد الجابري فيقول: والواقع أنه إذا كان الفقه قد وظف جميع العلوم العربية الإسلامية من علوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم اللغة والنحو والكلام. فإنه قد وظف أيضا وعلى نطاق واسع علم الحساب، وبكيفية في المواريث.(8)

إذن ومن خلال ما سبق، نلاحظ بروز عقلانية عربية، أفرزت ما يسمى بالثقافة العربية، الشاملة لجميع العلوم أو المعارف العربية. والقول ببروزها يستلزم قولا آخر يتعلق بالتقاطع العقلاني. إذ يلاحظ الناظر مثلا في المعارف العربية في جانبها اللغوي حضورا وتداولا لنفس المساطير العقلانية الموجودة في اللغويات (بمختلف جوانبها) وفي الفقه والنحو وعلم التنجيم...إلخ.

فاللغويات العربية ،إذن، لها علاقة بممارسات فكرية أخرى، وأن فهم تلك اللغويات يستلزم مجموعة أو جملة من الأمور، منها النظر في علوم العربية- النحو والفقه...إلخ، ولهذا السبب وسمت: "باللغويات المشتركة".(9) أي قائمة على بعـــض التقاطعات العقلانية بين جميـــع الممارسات الفكرية العربية.

كما يأخذ هذا اللفظ – اللغويات المشتركة – معناه من شروط معرفية واحدة، حركتها دوافع ومقدمات واحدة، وهذا يغنينا عن التنقيب عن الروابط القائمة بين المعرفتين: الفقهية والنحوية داخل المعرفة اللغوية، لكن الطريق الاستدلالي يسير إلى نفس الهدف، حيث نلحظ تصريحات وإشارات اللغويين القدماء إلى انتزاعهم العلل انتزاعا من أصول الفقه وعدهم أصول اللغة مثلا قائمة على أصول الشريعة، وهذا أمر ينضاف إلى مواقع اللغويين الفقهية ومواقفهم النحوية.تأثر سبويه مثلا بفقه الحنفية، بل سبويه اعتمد مرجعا في الفقه من خلال مؤلفه النحوي المعروف، وظل الجرمي (ت 225هـــ)يفتي الناس في الفقه من كتاب سبويه، حوالي 30 سنة. وهذا تقاطع عقلاني.(10)

يساند هذا الطرح كذلك، الترادف المصطلحي، حيث يشكل مصطلح (فقه)قاسما مشتركا بين الممارسة الفقهية والممارسة اللغوية في (فقه اللغة). وهو أمر لايمكن أن يمر دون الإشارة إليه. ذلك أن هذا الترادف المصطلحي لايحمل دلالة قوية، دون الترادف والتجاور النظري: التداخل العقلاني. وبذكر العقلانية نعـــود إلى ما قلناه في البداية لنجد تشابه مقدمـــات العمل في الفقه واللغويات على حد سواء. إذ أن اللغويين كما يقول سعيد الأفغاني في أصول النحو: احتدوا طريق المحدثين من حيث العناية بالسند ورجاله وتجريحهم وتعديلهم، وطرق تحمل اللغة....(11) فكانت لهم نصوصهم اللغوية كما كان لاولئك نصوصهم الحديثية، ولهم طبقات الرواة كما لاولئك...ثم حاكوا الفقهاء أخيرا في وضعهم للنحو أصولا تشبه أصول الفقه، وتكلموا في الإجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء، وكان لهم طرازهـــم في بناء القواعـــد على السماع والقياس والإجماع كما بنى الفقهاء استنباط أحكامهم على السماع والقياس والإجماع، وذلك أثر واضح من آثار العلـــوم الدينية في علوم اللغة,(12)

خلاصة القول أنه لايمكن فهم اللغويات التليذة إلا بتحديد علوم العربية، أي إقامة مقارنة بين اللغويات وعلوم العرب، أي جملة من الممارسات التي أفرزتها العقلانية العربية. من هنا نجد أنه لدراسة النحو لابد أن نتأمل في الفقه حتى يتم ذلك الإشتراك.

وهذا ما يؤكده سعيد أفغاني بقوله: ووجدنا فقيها شافعيا، هو ابن الحداد المصري، كانت له ليلة في كل جمعة يتكلم فيها عنده في مسائل الفقه على طريق النحو.(13)

الهوامش:

(1) تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي. ص: 173.نشر دار الكتاب العلمية بيروت

(2) من المنطقي أن يكون البحث اللغوي عند العرب قد بدأ في شكل تجميع للمادة اللغوية، أو ما يعرف بمتن اللغة، وأن يسبق ذلك الدرس النحوي. وقد تم هذا الجمـــع بطريق المشافهة والحفظ، ودون منهج معين في ترتيب المادة المجموعة أو تبويبها.

(3) في أصول النحو: سعيد أفغاني. ص: 100. ط:3. 1385هـــ/1964م.

(4) البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر: أحمد مختار عمر. كلية الآداب جامعة الكويت.ص: 63.ط: 3. 1398هـــ/1979م.

(5) تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري.ص: 84.ط:1. 1984م.

(6) في أصول النحو: سعيد أفغاني.ص: 103.

(7) للوقوف على أصول هذه الفرق الكلامية ونشأتها وأهم أعلامها والإرث الفكري لهم ينظر: كتب الفرق :

* تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية. لمحمد أبو زهرة. دار الفكر العربي . بدون تاريخ.

*الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. عبد القادر بن طاهر البغدادي. ط: 5. 1982م.11 .دار الآفاق الجديدة بيروت.

- نهاية الإقدام في علم الكلام. الشهرستاني. مكتبة زهران القاهرة. بدون تاريخ.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم. دار المعرفة. بيروت. 1983.

(8) تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري.ص: 97-98.

(9) إذا قمنا بدراسة متفحصة لمعرفة العلاقة بين (المعرفة الفقهية) و (المعرفة النحوية) و(المعرفة اللغوية) نجد بأن لفظ (اللغويات المشتركة) يدل على وجود عدة ممارسات فكرية، تقف وراء قيام اللغويات العربية، بل وتشكل حدودها التي وجهتها وجهة خاصة، وتحكمت في مستوى متانة تحاليلها ومعقولية إجرائياتها.

(10) الفقهاء كلهم كانوا على دراية واسعة بالنحو والفقه، وهذا ما جعلنا نجد الفقهاء يعتزون اعتزازا بالغا بالنحو وبمعرفتهم به، ويتخذونه نبراسا يهتدون به في مباحثاتهم. فهذا الإمام الشافعي مثلا يقول: " من تبحر في النحو اهتدى إلى كل العلوم "ويقول أيضا: "... لا أسأل عن مسألة من مسائل الفقه إلا أجبت عنها من قواعد النحو."

وهذا أبو عمرو الجرمي يقول: " أنا أفتي الناس في الفقه من كتاب سبويه". ويضيـــف في موضوع آخر: " سلوني عما شئتم من الفقه فإني أجيبكم على قياس النحو" فقالوا له: ما تقول في رجل سها في الصلاة فسجد سجدتي السهو فسها. فقال: لاشيء عليه. قالوا له: من أين لك قلت ذلك؟ قال: أخذته من باب الترخيم، لأن المرخم لايرخم. نقلا عن ظاهرة الإعراب في النحو العربي، د. أحمد سليمان ياقـــوت: ص:177. ط:1. 1401هـــ/1981م.

- وشبيه بهذا ماروي من أن العزاء سئل عن الحكم في من سها عن سجود السهو، فقال: لاشيء عليه. ولما سئل عن مصدر فتواه، فقال: قسته على ما عندنا في اللغة العربية فإن المصغر لايصغر.

نقلا عن: النحو العربي. العلة النحوية: نشأتها وتطورها. د. مازن المبارك. ص: 82. ط:2 1393هـــ/1924 م. دار الفكر.

(11) للوقوف على هذه لمصطلحات ومفهومها، ينظر:

- أصول الحديث علومه ومصطـــلحه محمد عجاج الخطيب. ط:4. 1401هـــ/ 1981م.

-المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل: د. فاروق حمادة. ط: 1. 1402هـــ/1982م.

(12) في أصول النحو: سعيد أفغاني. ص: 104-105.

(13) نفس المرجع. ص: 105.

جغرافيا

تدريس الجغرافية بالجامعة المغربية : الواقع والآفاق

ذ. عمرو إديل
كلية الآداب-مكناس

ملخص :

إن واقع تدريس الجغرافيا بالجامعة أصبح يفرض أكثر من أي وقت مضى إعادة النظر في برامجها ومناهجها والغايات المتوخاة من تعليمها . ومساهمة في النقاش الدائر حول الإصلاح التربوي الجامعي نقدم هنا بعض الملاحظات النقدية وبعض المقترحات العامة التي يمكن أن تشكل أرضية لتطوير تدريس الجغرافيا .

تعيش الجامعة المغربية اليوم مخاضا عسيرا بحكم تراكم مظاهر الأزمة المركبة التي تمر بها، فهي من جهة موضوع تساؤل وإنتقاد من طرف الفاعلين الخارجيين الذين ينظرون إليها بنظرة تتراوح ما بين الشفقة والاحتقار، معتبرين أنها مضيعة للوقت والمال و بؤرة لتفريخ العاطلين وأشباه المثقفين وزارعي الشغب والقلاقـــل، ومن جهة أخرى فهي موضوع تســـاؤل من طرف الفاعلين المباشرين فيها (أساتذة- إدارة طلبة) من خلال المطالبة بإعطائها الوسائل والامكانيات اللازمة لأداء مهامها، وطرح مسألة اندماجها في محيطها، وإصلاح انظمتها، وإعادة النظر في رسالتها ووظائفها.

وفي هذه الظرفية الدقيقة يأتي مشروع الإصلاح التربوي لنظام التعليم الجامعي، الذي يندرج في إطار المقترحات المنبثقة عن اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم، وذلك بهدف محاولة إيقاف النزيف المادي والبشري الذي يعرفه نظامنا التربوي عامة والجامعي بصفة خاصة.

ومساهمة منا في النقاش المفتوح حول طرق وكيفية إيجاد الحلول للمشاكل التربوية التي تعاني منها الجامعة وإيمانا منا بأن التعبير عن رأي الممارسين للمهام التربوية في الجامعة هو في نفس الوقت ضرورة عملية وعلمية وواجب وطني ومهني، وإقتناعا منا كذلك بأن أي إصلاح يتوخى النجاعة والشمولية يجب بالضرورة أن يأخذ بآراء كل المهتمين بالميدان، وكل الغيورين على مصير الجامعة ومآل مستقبل الأجيال التي تلجها، وحرصا على جعل التكوين الجامعي أداة مساعدة على مواجهة التحديات المستقبلية التي تنتظر بلادنا، فإننا نتقدم بهذه الورقة المتواضعة ، والتي يطرحها تدريس تخصص اجتماعي بامتياز وهو الجغرافية، وإبداء بعض المقترحات الكفيلة بجعله يلعب دورا متميزا في حياة الفرد والمجتمع.

ونود في البداية ان نبدي بعض الملاحظات المنهجية العامة نوجزها على الشكل التالي :

* – إن أي نقاش حول تقييم نظام التعليم الجامعي يجب أن يأخذ بعين الإعتبار كمنطلق واقع الظروف والشروط الموضوعية التي تتم فيها عملية التعلم ونشر المعرفة في الجامعة : الوضعية الإجتماعية للأساتذة والطلبة ، حالة البنايات والتجهيزات، الموقع الإعتباري للجامعة داخل المنظومة الاجتماعية ، الأهداف المتوخاة من التعليم الجامعي.... إن تحديد هذه الظروف بدقة لا يمكن أن يتم سوى من طرف المعنيين المباشرين، وليس من طرف عناصر غريبة أو بعيدة عن الممارسة التربوية ، من إداريين ومسيرين وخبراء سواء كانوا وطنيين أو أجانب. إن أول من يعرف ومن يكتوى بنيران مشاكل الجامعة هم الذين يعيشونها، وقديما قيل بأن" أهل مكة ادرى بشعابها."

* – رغم العدد الهائل من التحاليل والدراسات والتقارير التي تمت حول النظام التعليمي الجامعي فإن ما يثير الإنتباه هو أن أغلبيتها ركزت على الجوانب المرتبطة بالسياسة التعليمية أو على المبادئ الكبرى لتخلص إلى أزمة الجامعة وإلى فشل الاختيارات المطبقة إنطلاقا من مظاهر ونتائج هذه الأزمة: بطالة الخريجين، عدم ملائمة التكوين مع سوق الشغل، الهدر الكبير للوسائل.... بينما تم إغفال جوانب اساسية تتعلق بشروط وظروف واسباب النتائج التي تعيشها

الجامعة.إن هذا التحليل المبني على نظرة تجزيئية تركز فقط على الجوانب المرتبطة بهدر الإمكانيات المتاحة وتفريخ العاطلين... غالبا ما يغيب عنـه المنظور الشمولي الذي يأخذ بعين الاعتبار المعطيات الدقيقة لأوضاع الجامعة والجامعيين، ولا يولي اهمية خاصة لمسألة البرامج والمناهج التعليمية المطبقة بشكل متحجر، ولا لقلة وضعف الامكانيات المتاحة للجامعة والبحث العلمي. كما أن غياب دراسات مدققة حول نوعية وطبيعة المنتوج الجامعي (الخريجين) ومدى مؤهلاتهم ونواقصهم وعن حقيقة حاجيات سوق الشغل العمومي والخصوصي ، غالبا مايؤدي إلى استنتاجات متسرعة وغير موضوعية ، تطالب بانفتاح الجامعة على المحيط ، كأنها كانت يوما ما معزولة عن واقعها، أو كان هذا المحيط لا يعرف هو نفسه أزمة متعددة الاشكال والمظاهر.

إن الهدف من هذا المقال ليس هو القيام بجرد شامل لتدريس الجغرافيا في الجامعة المغربية ولا إعطاء صورة سوداوية عن واقع يزخر كما في المنظومة التعليمية المغربية بمشاكل عدة، بل إن طموحنا فقط يتحدد في المساهمة في النقاش الدائر حاليا حول طرق ووسائل اصلاح التعليم، وإثارة الانتباه إلى أهمية إشراك الفاعلين المباشرين في كل مشروع يتوخى النهوض بالجامعة، وذلك من خلال تقديم بعض الخلاصات التي استقياناها من التجربة الشخصية، وإقتراح بعض الأفكار للنقاش أملا في رد الإعتبار للمعرفة الجغرافية الأكاديمية التي تكتسي في بلدان أخرى مكانة متميزة تجعل من المتخصصين فيها عناصر تساهم في التخطيط والتدبير وإعداد المجال.

1- مميزات الجغرافية المدرسة بالجامعة المغربية :

تعتبر الجغرافيا من العلوم الإجتماعية، إذ أنها تهتم بدراسة تنظيم المجال من طرف الإنسان، وذلك في إطار مجموعة من الممارسات التي تحددها الظروف الطبيعة والبشرية. فهي إلى جانب كونها نوعا من المعرفة الإنسانية ، تشكل خبرة ووسيلة للعمل والفعل الإرادي للإنسان في محاولاته المتكررة لاستغلال الطبيعة والتكيف مع شروطها. إن الجغرافيا بهذا المفهوم، تختلف جوهريا عن

النظرة التقليدية المشاعة حولها، والتي تجعلها فقط تجميعا وجردا لأسماء الأماكن والبلدان أو للأرقام المتعلقة بالسكان والإنتاج والتبادل التجاري...

وفيما يتعلق ببلدنا نجد أن الجغرافيا تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

1-**جغرافيا مدرسية**: تدرس بالتعليم الإبتدائي والثانوي ، مبنية على النظرة التقليدية الهادفة إلى حشو عقل المتعلمين بالمصطلحات والأسماء والأرقام.

2-**جغرافيا أكاديمية**: تدرس بالجامعات وبأشكال وصيغ مختلفة. وهو ما سنعرض له في هذا المقال.

3-**جغرافيا عملية**: وهي الوجه الأرقى والمشع لهذا النوع من المعرفة، غير أنه ينحصر في دائرة محدودة من الخبراء المهتمين بإعداد التراب وبالتدبير الحضري أو القروي.

وإذا ما تركنا الحديث جانبا عن النوع الأول والثالث ، فإن ما يسترعي إنتباه المهتم بالجغرافيا المدرسة بالجامعة المغربية هو أنها تتميز بقطيعة ثلاثية الأبعاد :

أ- قطيعة مع الجغرافيا المدرسية : ويتضح ذلك سواء من حيث البرامج المدرسة خاصة في الثانوي - أو من خلال المناهج المطبقة. فبرامج الجغرافية في الثانوي تتميز بأنها لا تصب في التعليم الجامعي ، إذ تبدأ بالأوليات أو العموميات تم تركز على المغرب العربي، لتنتقل في السنة الثالثة الى مشاكل العالم المعاصر ، كما ان مكانة جغرافية المغرب قد تقلصت كثيرا، مما يجعل التلميذ الذي يلج الجامعة غير مدعم بمعرفة دقيقة لواقعه ولمحيطه المباشر- المحلي والجهوي والوطني . بينما قد يعرف عن مناطق وبلدان أخرى معلومات كثيرة...

إن هذه القطيعة بين الثانوي والجامعي تزداد أكثر حين يتعلق الأمر بمنهاج التدريس، فالصورة التي يأخذها تلميذ الثانوي عن الجغرافيا تشكل لديه اعتقادا خاطئا بأنها عبارة عن حفظ وإستظهار لمعطيات وأرقام، بينما يتم تغييب عناصر الملاحظة والتحليل والمشاركة الخلاقة والنظرة الشمولية لقضايا الانسان في علاقته مع محيطه الطبيعي. ان هذه النظرة تبقى مترسخة في ذهنية

الطالب الجامعي لسنوات طويلة، مما يؤدي إلى ظواهر سلبية منها الإرتكاز على الحفظ، وترديد مفاهيم غير مضبوطة او اللجوء الى تقنيات الغش المتعددة...

ب – قطيعة مع المحيط

وتعود أسبابها إلى عدة امور، منها طبيعة البرامج والمواد التي يتم تدريسها، والتي غالبا ما تكون بعيدة كل البعد عن الواقع المعيش ، بحيث يلاحظ بان المحتوى الذي يلقن للطالب يبقى مطبوعا بالنظري، ولا يتم ربطه بالممارسة والميدان إلاناذرا ، كما أن غياب الوسائل والإمكانيات (رحلات، تداريب، مختبرات، وسائل نقل، أشرطة سمعية بصرية ...) كلها تساعد على استمرار وتضخيم هذه القطيعة ، ومن جهة أخرى يمكن الجزم بأن الجغرافية التطبيقية تبقى غائبة إذ أن القليل جدا من الأساتذة الباحثين هم الذين يتمكنون وبوسائلهم وعلاقاتهم الخاصة- من المشاركة في الدراسات والمشاريع التي تهم التهيئة المجالية وإعداد وتدبير التراب. إن هذه الوضعية ناتجة عن كون الجغرافيا لا زالت غير معترف لها رسميا بأنها معرفة نافعة وتطبيقية، قادرة على مساعدة المجتمع على حل المشاكل التي يواجهها في عدة ميادين ، ولذلك نجد بأن الأبحاث والدراسات التي يقوم بها الجامعيون غالبا ما تبقى حبيسة رفوف المكتبات، كما أن الفاعلين الإقتصاديين والسياسين لا يستغلونها ولا يشجعون الباحثين على اقتحام دراسات ومواضيع جديدة.

ج– قطيعة بين تدريس الجغرافيا والبحث العلمي :

قد يبدو من البديهي ان أي تعليم جامعي جاد لا يمكن أن يتم بمعزل عن البحث العلمي وعن مسايرة التطورات الكبيرة التي تعرفها مختلف أشكال المعرفة، غير أن هذه المسلمة قليلا ما تتحقق في تدريس الجغرافيا بجامعتنا ، وذلك لعدة أسباب، منها الضعف الهيكلي الذي يشكو منه البحث العلمي عامة وفي ميدان الجغرافيا بصفة خاصة، سواء تعلق الامر بهزالة الموارد المالية المرصودة له، أو غياب المختبرات أو قلة المنشورات ، كما أن عدم

إحترام تخصص الأساتذة وإغراقهم في مهام تدريس وتأطير أفواج كثيرة العدد من الطلبة، وانعدام للإرتباط بين نوعية المواد المدرسة وطبيعة الأبحاث التي يقومون بها، كلها عوامل تؤدي إلى هذه القطيعة، والتي من أهم نتائجها ضعف الإنتاج العلمي وقلة الوسائل الديداكتيكية المساعدة على التدريس والتحصيل (مراجع، كتب، خرائط، افلام...) اذ يمكن الجزم بأن هذا الجانب الأساسي في العملية التعليمية غائب نهائيا في شعب الجغرافيا. كما ان البحث البيداغوجي الخاص بمادة الجغرافيا الجامعية ضعيف، وقليلون جدا هم الأساتذة الذين لهم تكوين ودراية بتقنيات التدريس والإتصال ، لأن أغلبيتهم لم يخضعوا لأي تكوين في هذا الباب باعتبار أنهم ولجوا قاعات التدريس والمدرجات بطريقة مباشرة ولم يستفيدوا من أي دورة تكوينية، مما يؤثر سلبا على مردوديتهم ويجعلهم يعيشون انفصالا دائما بين الباحث والأستاذ.

2- برامج متجـاوزة

إذا كانت طبيعة و نوعية المواد المدرسة في أي منهاج تعليمي تعبر عن مستوى الكم المعرفي الذي يمكن للطالب ان يحصله ، وعن مدى مسايرة هذه المعلومات للتطور والتحول الذي يعرفه المجتمع والمحيط الدولي، فإننا نلاحظ في هذا الميدان تأخرا كبيرا سواء بالنسبة للدول المجاورة أو الغربية. وهكذا نجد بأن هيكل البرامج المدرسة يعود إلى تاريخ يتجاوز ثلاثة عقود ، وبالرغم من أنه تم في سنة 1982 تطبيق إصلاح بيداغوجي، فانه لم يشمل عمق ومحتوى البرامج بل هم فقط بعض التغييرات على مستوى الإمتحانات وطرق التنقيط، بينما بقيت بنية المواد ومحتوياتها هي نفسها في أغلبية الحالات . إن المتفحص لهيكل المواد المدرسة بالنسبة للسنوات الأربع التي يقضيها الطالب الجامعي ليحصل على إجازة في الجغرافيا سيصدم ويبقى مشدوها أمام تعدد وتنوع كم هائل من المعارف التي لا ترتبط فيما بينها ولا نجد لها علاقة مباشرة مع المحيط (انظر الجدول رقم 1) ، إذ أنها عبارة عن ركام من المعارف، بدون منهجية، ولا تحتوي على قنوات

ملاحق

جدول رقم 1 : لائحة المواد المدرسة بشعبة التاريخ والجغرافيا.

السنة	المـــــادة	الحصة الزمنية بالساعة	السنة	المـــــادة	الحصة الزمنية بالساعة
الأولى	تاريخ الشرق القديم	2	الثالثة	الجيومورفولوجيا	3 و 30
	تاريخ الإسلام	2		جغرافية البيئة	1
	المناخ	1 و 30		جغرافية النقل	2
	الجيومورفولوجيا	1 و 30		تنظيم المجال	2
	جغرافية السكان	1		جغرافية التخلف	2
	جغرافية الأرياف	1		تطبيقات إحصائية	2
	تاريخ المغرب	1		دراسة الخرائط	2
	تطبيقات في تاريخ المغرب	1		تاريخ المغرب	2
	تاريخ أوربا في العصور الوسطى	2		الحضارة الإسلامية	2
	دراسة الخرائط	3		الهيدرولوجيا	2
	اللغة العربية	1 و 30		اللغة الأجنبية والترجمة	3
	مدخل للدراسات الإسلامية	1 و 30	الرابعة	علاقات المغرب بأوربا	1 و 30
	الرياضيات	1		الإقتصاد القروي	1 و 30
	اللغة الأجنبية	2		جغرافية الولايات المتحدة	2
الثانية	تاريخ الإغريق والرومان	2		جغرافية المغرب	2
	تاريخ أوربا المعاصرة	2		دراسة الخرائط	3
	تاريخ أمريكا المعاصرة	1		السوسيولوجيا القروية	2
	الجيومورفولوجيا	1 و 30		بحوث ومناظرات	2
	النطاقات المناخية	1 و 30		فلسفة التاريخ	2
	جغرافية الصناعة	1 و 30		تاريخ المغرب في القرن 18	1
	الجغرافية الحضرية	1 و 30		الفكر الإسلامي	2
	تاريخ الغرب الإسلامي	1		اللغة الأجنبية	1 و 30
	جغرافية المغرب	1		الترجمة	1 و 30
	اللغة العربية	1 و 30			
	الدراسات الإسلامية	1 و 30			
	الإقتصاد	2			
	الرياضيات والإحصاء	1			
	اللغة الأجنبية	2			

تمكن الطالب من التمكن من تكوين فكر نقدي، ولا أخذ بعد ابستمولوجي ازاء المادة المدروسة. كما انها لا تهدف الى الوصول إلى تكوين إنسان باحث ، بامكانه طرح التساؤلات وتقديم الإقتراحات والحلول للمشاكل التي يواجهها سواء كفرد او كمجتمع. كما ان غالبية المواد المدرسة يطغى عليها الطابع النظري، بحكم غياب وقلة توفر الوسائل البيداغوجية الضرورية لإ إكتساب الخبرات المعرفية العصرية، وهكذا يتحول الطالب إلى "فقيه" عصري ، يعمل على حفظ وإستظهار الدروس دون القدرة على استيعابها واستغلالها في الحياة العملية. إن هذه الوضعية ناتجة في اعتقادنا عن سببين رئيسيين :

- غياب إستقلال بيداغوجي للجامعة : فالبرامج موحدة ومتشابهة ومبلورة مركزيا، ويتطلب كل تغيير فيها استصدار مرسوم وزاري، مما يعيق الخلق والابتكار والتجديد.
- ان الاهداف المسطرة لكليات الاداب عامة ولشعبة الجغرافية خاصة في اطار السياسة التعليمية التي اتبعها المغرب منذ الاستقلال ، كانت دائما تركز على مسالة أساسية وهي توفير وتكوين أطر قادرة على ممارسة التعليم في الثانوي (ثم في الابتدائي منذ منتصف الثمانينات) ، مما حتم نوعا خاصا من البرامج تستجيب نسبيا لهذا الهدف. غير أن التحولات التي عرفها المغرب خلال العقدين الاخيرين، وتراجع نسبة التوظيف في ميدان التعليم ، كلها عوامل جعلت هذه الاهداف متجاوزة . فبعض الإحصائيات تثبت أن نسبة الذين يلجون مراكز تكوين الأساتذة والمدارس العليا لا تتجاوز في احسن الحالات 3 % من مجموع الخريجين الحاصلين على الإجازة، بينما يبقى الآخرون بدون أفق لأنهم غير مؤهلين لولوج مناصب أخرى ، فينضافون إلى جيش العاطلين، مما يؤدي في النهاية إلى فقدان الجغرافيا لقيمتها كمعرفة صالحة وعملية.

3-مناهج تعليمية غير ملائمة

يعتبر هذا الجانب من المظاهر الأساسية المكونة لمشكل تدريس الجغرافيا في الجامعة، ويتطلب تدخلا عاجلا وتغييرا جوهريا، لأنه يلعب دورا أساسيا في الوضعية التي تعيشها الجغرافيا الجامعية اليوم ، ويجب التأكيد على أننا قد را كمنا في هذا الميدان كذلك تأخرا كبيرا بالمقارنة مع غيرنا، إذ بالرغم من المظهر العصري الذي نعطيه للمواد والمواضيع المدرسة فإننا لازلنا مع كامل الأسف ندرسها بمناهج قروسطية !

إن أسباب هذه الظاهرة متعددة، كما أنها تعبر عن عمق وتعقد المشاكل التي يعيشها تعليمنا الجامعي، لكن يمكن ايجازها في بعض العناصر الآتية :

- تنوع أصول ومشارب وآفاق الأساتذة المكونين : فبعضهم تكون بالبلد، والبعض الآخر بالجامعات الأروبية (خاصة فرنسا)، وأخيرا بدأت أعداد المكونين بجامعات أمريكية تتزايد.

  إن هذا التنوع، عوض أن يشكل عنصرا إيجابيا، أصبح يلعب دورا سلبيا نظرا لتنوع التصورات حول المادة، وتضارب المفاهيم وتعارض تقنيات التدريس.

- تعدد وتباين المؤهلات البداغوجية لدى الاساتذة، مما يؤثر مباشرة على مستوى التلقين وإيصال المعلومات والمعارف (وهنا تبدو ضرورة الفصل بين الاستاذ والباحث)، كما أن غياب التكوين البيداغوجي لدى أغلبية الأساتذة الباحتين يؤدي إلى ضعف اللجوء إلى إستعمال الوسائل التدريسية العصرية وإلى الركون إلى التفسير الأحادي للظاهرات تبعا لتخصص الأستاذ (طبيعي / بشري - حضرى/قروى - اقتصادي/اجتماعي...) .

- غياب وقلة وسائل العمل مع ظروف إكتظاظ الأعداد الوافدة على الجامعة، سواء تعلق الأمر بالمراجع أو الوثائق أو وسائل العمل التطبيقي (مخابر - رحلات- خرائط...) كلها عوامل تؤدي إلى تطبيق منهجية ترتكز على الشفوي، والنظري، بينما يتم تغييب تقنيات وآليات الملاحظة والمعاينة الميدانية وتشريح الواقع.

جدول 2 : تطور عدد المرشحين لمباراة الدخول للمركز التربوي الجهوي بمكناس (شعبة التاريخ والجغرافيا)

السنوات	1996	1997	1998
عدد المرشحين	1271	1185	1584
عدد المقبولين لاجتياز المباراة	35	64	72
عدد الناجحين نهائيا	12	20	26

المصدر : إدارة المركز

جدول 3 : توزيع المواد الجغرافية المدرسة حسب النوع (% من مجموع الساعات)

السنة	المواد النظرية	المواد التطبيقية
الأولى (تاريخ وجغرافيا)	91	9
الثانية (تا ر ج)	94 ، 5	4 ، 5
الثالثة جغرافيـــة	86 ، 4	13 ، 6
الرابعة جغرافيـــة	77 ، 3	22 ، 7

المراجع أنظر في هذا الصدد : (1)

ZGHOR . M : G éographie et formation intellectuelle .

Thèse . Université libre de Bruxelles . 1990 .

2) OUAZANI - Sqali - A : Intégration de l'université dans le développement local . La tribune de méknes - n° 37 - 19999 - p / 47 .

3) علي فاعور: تعليم الجغرافيا في لبنان : آراء ومقترحات. مجلة الكاتب — العدد 40 — 1985 ص 11

4) نفس المرجع السابق ص : 43 .

وبالرغم من أن الخريطة تشكل في اعتقادنا "بطاقة هوية" الجغرافي، فإننا نلاحظ بأن تدريسها في شعبنا لازال ضعيفا ومتخلفا، بل بدائيا بالمقارنة مع ما تم التوصل إليه في بلدان أخرى. فالى جانب انعدام ادخال وتوفير الوسائل العصرية للخرائطية (إستعمال الحاسوب–صور الأقمار الإصطناعية ...) لازال تدريس الخريطة عندنا يتعامل معها على أساس أنها وثيقة فقط، وليس باعتبارها وسيلة وأداة عمل تسمح بالسيطرة على الميدان وتنظيمه بهدف حسن إستعماله. إن هذا " الفقر الكارطوغرافي " يجعل تدريس الجغرافيا ممارسة نظرية لا إرتباط لها بالواقع والممارسة (جدول رقم 3).

وأخيرا فإن نظام التقييم والإمتحانات يشكل كذلك عرقلة أساسية، ومظهرا من مظاهر التخلف المنهجي الذي يعاني منه تدريس الجغرافيا في الجامعة، إذ أنه يعتمد على الحفظ والإستظهار ويغيب الخلق والنقد كما أن ما يسمى بحوث الإجازة أصبحت في نظر العديد من الطلبة عبارة عن عقوبة يجب التخلص منها بأسهل الطرق مما حولها إلى الإجترار والتكرار والنقل، عوض أن تشكل ممارسة وتدريبا على البحث الأكاديمي الرصين.

4– من أجل جغرافيا في خدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والمواطنة.

بعد هذا الإستعراض النقدي لوضعية الجغرافية بالجامعة المغربية ننتقل في هذه النقطة إلى تقديم بعض المقترحات والتوصيات التي نعتقد أنها يمكن أن تساهم في بلورة منظور جديد لطريقة تدريس الجغرافية بجامعاتنا، مع التأكيد على أن أي إصلاح يتوخى الشمولية والإنتقال إلى مستوى أرقى في التعامل مع هذا النوع " النبيل " من المعرفة الإجتماعية يفرض بالضرورة فتح نقاش واسع يساهم فيه كل المعنيين بمصير ومآل الجامعة عامة والجغرافية خاصة ـ أساتذة ، طلبة ، إدارة ، مهنيون خواص ومؤسسات...، وذلك بهدف تحديد الأغراض المتوخاة من هذا التكوين، وطرق بناء مناهج وآليات تلقينه ، وإبراز نوع المنتوج الذي نريد الحصول عليه في نهاية المطاف. لذا ندعو لفتح نقاش موسع وصريح حول كيفية تحويل الجغرافيا من وضعيتها الحالية الى معرفة

قادرة على أن تكون نافعة ليس فقط لممارسيها بل كذلك للمجتمع ككل، وذلك لأنها تمكن من " مساعدة الأفراد على النمو الشامل والمتكامل فكريا وإجتماعيا وروحيا وخلقيا، وإعدادهم للمشاركة في بناء المجتمع وتقدمه ". (3)

إن البديل الذي نريد إقتراحه للوضعية الحالية ينبني على مجموعة من المرتكزات الأساسية التي نعتقد أنه من الضروري الإنطلاق منها لبناء التصورات المنهجية والمعرفية والتربوية الجديدة، الملائمة للظرفية الحالية التي تعرف ثورة مستمرة في مجال المعرفة الإنسانية وفي طرق إكتسابها وتعليمها. ويمكن إجمال هذه المرتكزات في النقط الآتيـــــــة :

*ضرورة القيام بتغييرات جذرية في أهداف ومناهج وطرق تدريس الجغرافية بالجامعة. إن هذا المطلب الذي أصبح اليوم موضوع إجماع من كل المهتمين بهذا النوع من المعرفة البشرية يفرض في اعتقادنا شرطا أساسيا يتمثل في الفصل بين التاريخ والجغرافية منذ بداية الدراسة الجامعية ، بحكم أن الهدف الذي كان يعلل به الجمع بينهما سابقا لم يعد قائما (تكوين أساتدة التعليم الثانوي بالأساس)، وسوف يمكن هذا الفصل من إعطاء أهمية أكبر للجغرافيا في التكوين الأساسي للطالب ، دون أن يعني ذلك قطيعة تامة مع التاريخ، بل أن تمفصلا جديدا بين المادتين سيتم تبعا للهدف المتوخى من كل تكوين على حدة.

*ضرورة إعادة النظر في البرامج المسطرة في تدريس الجغرافية بالجامعة، وذلك بخلق وتقوية المواد المرتبطة بالواقع المعيش، المتفتحة على المحيط البيئي للطالب والتي تساعده على فهم مشاكل العصر وتؤهله لأن يكون مشاركا فعالا في الحاضر والمستقبل. إن هذا الطرح يتوخى أن تتحول الجغرافية المدرسة بالجامعة من مراكمة المعلومات والمعطيات والنظريات إلى معرفة ممنهجة وعملية، أي معرفة نافعة للفرد والمجتمع. ويشترط هذا التحول تركيز التدريس على فهم وتحليل الأوضاع المحلية والجهوية ثم الوطنية، ذلك " أن تعريف الطالب بجغرافية وطنه يمثل دعامة أساسية في بناء الكيان الوطني... وهو المدخل الحقيقي لتأمين الإرتباط بين الإنسان والأرض " . (4)

*من اللازم كذلك القيام بتغيرات كبيرة في مايتعلق بمناهج تدريس الجغرافية بالجامعة والعمل على تطوير تقنيات التواصل ونشر المعرفة ، وذلك بإعطاء الطلبة إمكانية أكبر في إختيار نوع وعدد وحدات التعليم والمواد المراد التخصص فيها ، تبعا لرغباتهم وأهدافهم المهنية أو العملية، وذلك بعد مدهم بأرضية مشتركة. كما أن هذا التحول يفرض مزاوجة التكوين النظري مع التطبيقي من خلال إقرار التداريب خارج أسوار الجامعة (في المؤسسات والإدارات والمقاولات...) والإدماج المستمر للنتائج المحصل عليها في ميدان البحث في مجالات التنمية ، كما أن تنويع الأداوات البيداغوجية وإدخال تقنية المعلوميات على نطاق واسع من شأنه أن يدفع نحو تفاعل أكبر بين الجامعة ومحيطها.

*وأخيرا يبقى أن نظام التقييم والإمتحان يجب أن يصبح مبنيا على تقدير مؤهلات الطالب في الفهم والتحليل والإبتكار والتفكير النقدي ، عوض الإرتكاز على مبادئ الحفظ والتكرار والمحاكاة.

إن الهدف الأسمى المتوخى من هذا الطرح هو جعل التكوين الجغرافي الجامعي يؤهل الطالب للقيام بالعمل المطلوب منه إجتماعيا، أي أن يكون فاعلا ومشاركا ومبادرا في مجتمع يواجه مشاكل متنوعة مثل التدهور البيئي والثلوث المتنوع الأشكال والفوضى الحضرية والقروية، وذلك من خلال إعطائه الوسائل العملية والمنهجية التي تجعله قادرا على إقتراح الحلول الملائمة لإعداد المجال لفائدة الفرد والمجتمع.

الإذابة الكربناتية: ظروفها ونتائجها
من خلال مثال من كوس الأطلس المتوسط

ذ. عبد العالي السبتي
كلية الآداب — مكناس

ملخص:

تهدف هذه الدراسة، التي اعتمدت على العمل الميداني المباشر من جهة، والمخبري من جهة ثانية، إبراز الظروف الصخارية، البيومناخية والدينامية التي ساهمت، ولا زالت تساهم، في تشكيل العديد من التضاريس الكارستية بمنطقة الكوس، وذلك من خلال عملية إذابة الصخور الكربناتية وما ينتج عنها من تغيرات في التركيبة الكيماوية للمياه السطحية والجوفية، وبالتالي من تساقطات كلسية ثانوية يمكن أن تنشأ عنها في الظروف الملائمة البنيوية ، الطبغرافية والبيومناخية ، تساقطات فليسية و رصراصية.

والمثال المأخوذ من كوس إيموزار (إصعان أحفور)، يعطي نموذجا لبعض أنواع المنخفضات الكارستية التي ظهرت نتيجة تداخل وتفاعل عدة عوامل، ساعدت على تشكيلها واحتوائها على مواد دقيقة، من ضمنها بعض الأطيان، وكذا فتات رملية منها ما هو محلي، ومنها ما هو خارجي، تأكدت خصائصها من خلال العمل المخبري، الشيء الذي أفضى إلى نتائج علمية، يمكن الإعتماد عليها للخروج بتأويلات منطقية مقبولة.

مقدمة :

بمجـــرد بـــدئ الحديـــث عن الإذابة الكربناتية تتصور أمامنا بعض أشكال التضاريس الكارســـتية، ومـــا يمكـــن أن تخلفه المياه الغنية بمحلولات كربنات الكالسيوم من تساقطات رصراصـــية وفلســـية، ســـواء عند مخارج العيون، أو عند نقط اهتياج المياه ومواقع انقطاع الانحدارات.

هـــذا النشاط دون شك، لمعرفته وتتبع مراحله التطورية، لا بد لمن يهمهم الأمر، القيام بجمـــلة مـــن الدراسات تخص الجوانب المورفولوجية التي همت، وما زالت تهم كل منطقة تم اختيارها لتدخل ضمن هذه الدراسة.

اخـــتيار منطقة كوس الأطلس المتوسط (الكوس : يقصد بها الهضاب الكربناتية المتميزة بأشـــكال كارستية)، وخاصة الجزء الشمالي منه (الخريطة المبسطة رقم1)، جاء نظرا للطبيعة الصـــخارية المتميزة لهذه المنطقة، ولإشرافها اتجاه الشمال والشمال الغربي على السايس الذي يستقبل مياه الكوس عن طريق المجاري السطحية، أو عن طريق الفرشات المائية الجوفية، وهي ميـــاه تبقى عموما، غنية بالمحلولات الكربناتية التي تدل على نشاط كبير لعملية إذابة صخور الكلس والدلومي التي تغطي معظم جهات المنطقة.

الخريطة رقم : 1

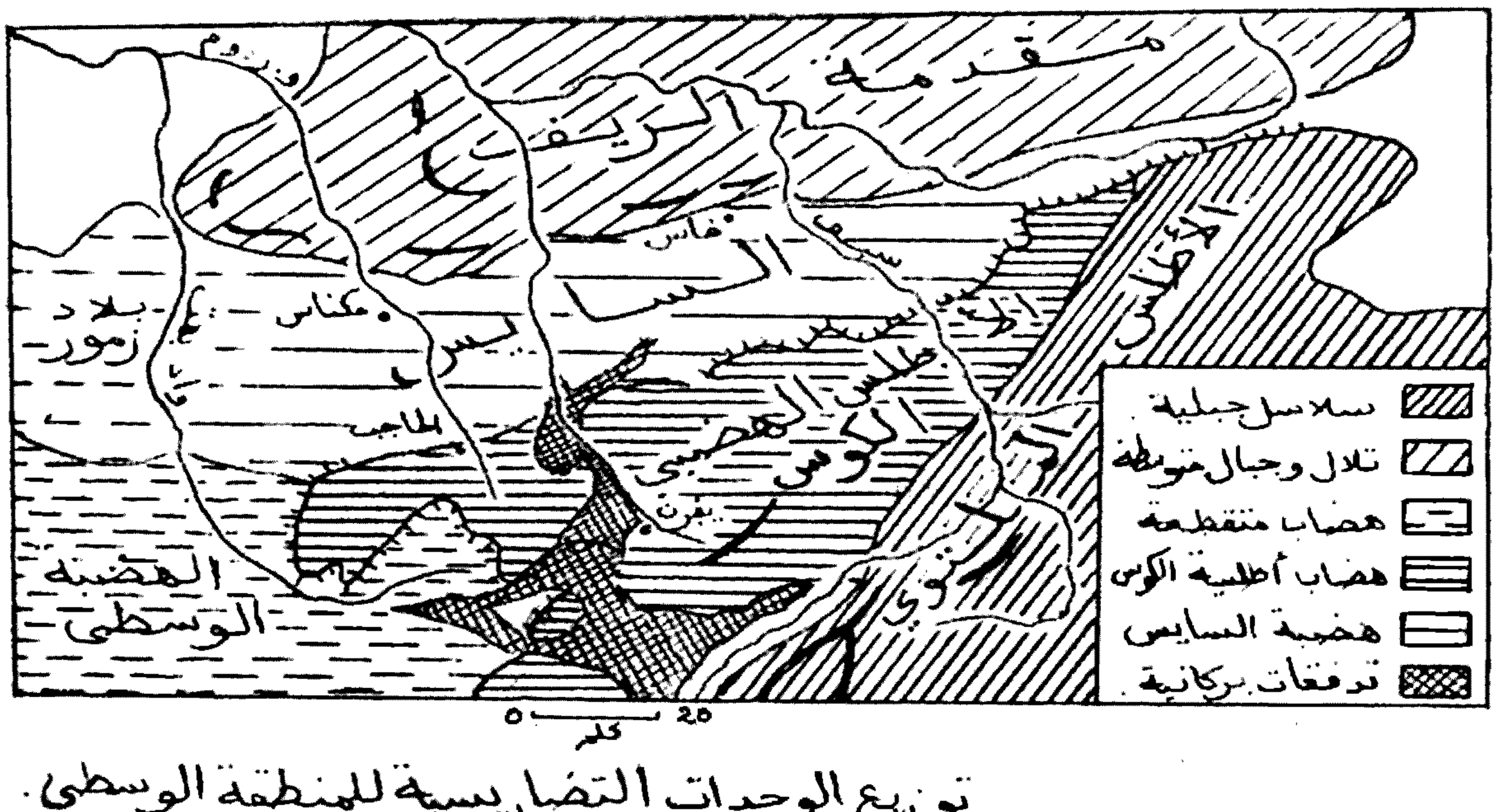

توزيع الوحدات التضاريسية للمنطقة الوسطى.

المصدر : كاتب المقالة .

1- ظروف الإذابة المتوفرة بالمنطقة

هذه الظروف يجب إرجاعها، قبل كل شيء، إلى فترات مناخية قديمة عرفها الرباعي، وتميـــز بعضها بمعدلات تساقطات أهم، ودرجات حرارة أقل، بالإضافة إلى ما تتطلبه العملية من وقت كاف لضمان عملية الإذابة واستمرارها .

أ- المعطيات المتوفرة لتسهيل عملية الإذابة والتشكيل :

هـــي معطيات متعددة ، أهمها المياه وطبيعة التكوينات الصخارية وما عرفته المنطقة من نشاط تكتوني خلال العصور الجيولوجية القديمة.

أ – 1 الخصائص البنيوية :

- بالنسبة للصخارة:

يتضـــح مـــن خـــلال الخريطة المبسطة (الخريطة المبسطة رقم 2) ، أن منطقة الكوس الشـــمالية تعـــرف انتشار مجموعة من الصخور الكاربناتية الكلسية والدلومية التي ترجع إلى الـــلياس الأسفل والأوسط، وهي صخور قابلة في الظروف الملائمة ، للإذابة خاصة بالنسبة للكلس.

أما من خلال أعمدة التنقيب الجيولوجية (الخريطة رقم 2) ، فيمكن الخروج بملاحظة أساســـية تتمثل في كون النظام التطبقي للسحنات الصخارية، يختلف جانبيا وعموديا، وهذا يعـــني أن المـــنطقة أثناء الغمر الليلاسي، لم تكن منبسطة، بل تتخللها تضرسات حالت دون إعطاء تطبق صخاري موحد، يغطي كل المنطقة.

مـــن خـــلال المعاينة الميدانية، يتضح أن تقدم عملية الإذابة وما يمكن أن ينتج عنها من تشـــكيل كارســـتي، يختـــلف من سحنة إلى أخرى، فبالنسبة مثلا، لأكلاس الليلاس الأوسط (الدومـــيري) يلاحظ أن الكلس الصواني العلوي، تعرض أكثر لعملية الإذابة التي تمكنت منه إلى درجة الإبقاء فقط، على عناصره الصوانية.

أما الكلس السفلي المتميز بتصفيفه واحتوائه على مرورات صلصالية وطينية، فإن عملية الإذابة تتوقف عموديا، وهذا من شأنه الحد من تطور الأشكال المتوسطة والكبرى.

بالنسبة للكلس الدلوميتي (الكريكسي)، فإن احتواءه على طبقة كلسية وأخرى كلس دلوميـــة، جعل عملية الإذابة أكثر نشاطا وقدرة على إعطاء تشكيل أكثر وضوحا واتساعا ، بالـــرغم من كون الكلس الدلوميتي يبدي نفس سلوك الكلس، في تعامله مع ظروف الإذابة الكيماوية.

أمـــا صـــخور اللياس الأسفل، وهي دلومية أساسا، فإنها الأكثر انتشارا بالمنطقة. وقد لوحـــظ أن نشاط الإذابة يبقى ضعيفا نسبيا بدليل أن الأشكال الناتجة عن هذا النشاط ، تبقى محتشمة ومميزة، بحيث تبقى مقتصرة على جوبات صغيرة تفصلها أشكال فطرية ، بالإضافة إلى بعـــض المنخفضات الشبيهة بالدارات التي يرجح في هذه الحالة ، أن تكون ناتجة عن انهيارات قرب سطحية.

- بالنسبة للتكتونية:

لقـــد تعرضت منطقة الكوس لحركات تكتونية ، ابتدأت مع نهاية اللياس الأوسط، وعـــرفت ذروات أهمها ما حدث خلال الإلوكسين الذي تميز بحركات قوية ومتسعة المجال، وأخـــرى خلال الميوسين. وتعتبر هذه الأخيرة الأعنف، لما أحدثته من التواءات، وخاصة من انكسارات متعددة الاتجاهات ومتفاوتة الحدة، مما زاد في إبراز الحدود الشمالية للكوس.

هذا و يلاحظ:

أولا : أن القرب النسبي للقاعدة الهرسينية من السطح، والطبيعة الكسورة للصخور الكربناتية المنتشرة بالمنطقة، لم يساعدا على التواءات حقيقية ومتنوعة إلى درجة التعقيد، بل عملت أكثر عـــلى تعدد وتداخل خطوط الانكسارات، بالإضافة إلى الزيادة في تكثيف شبكة التشققات البنيوية أو التكتونية التي أصبحت تتميز بها صخور الكلس والدلومي بالمنطقة. وهذا من شأنه أن يزيد من إمكانية وسرعة تسرب المياه، وبالتالي من تنشيط الإذابة الكيماوية. كما يلاحظ أن هذه الحركات التكتونية لم تستطع في الكثير من الأحيان، إحداث ميل قوي للطبقات، مما ســـيؤثر عـــلى الجـــريان و سرعته، وما يمكن أن يحدثه من تشكيل ونقل للمحلولات، على مستوى السطح أو الباطن.

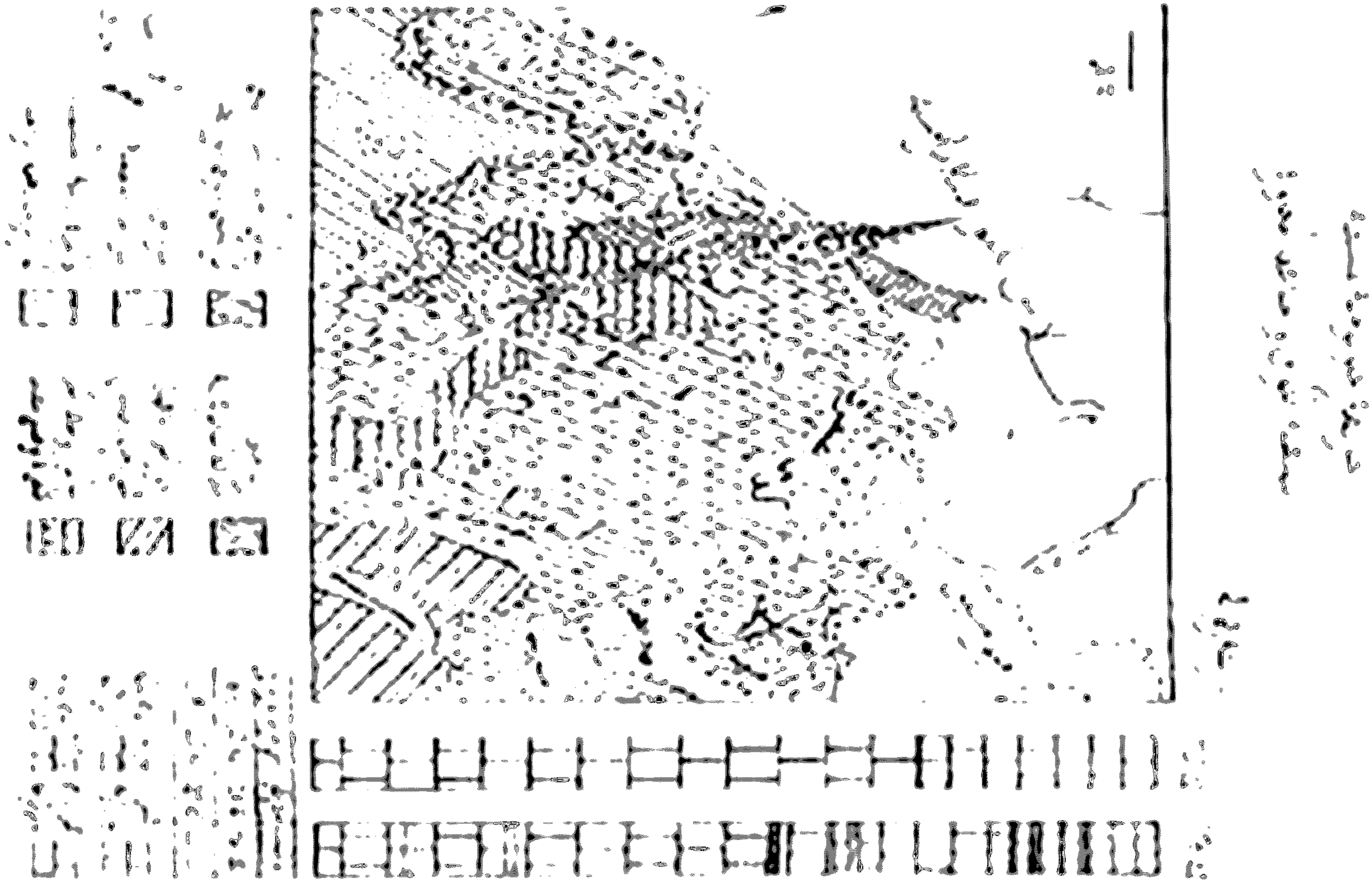

أ -2 عنصر الماء:

لا يمكـــن الحديث عن هذا العنصر ودوره في إذابة الصخور والتشكيل، دون الحديث عن الخصائص المناخية العامة التي عرفتها وتعرفها المنطقة الهضبية شمال الأطلس المتوسط. وهي خصائص ساعدت، وبشكل كبير، في توفير الظروف الملائمة للتأثير على الصخور الكربناتية التي تنتشر في أغلب جهات المنطقة.

- علاقة الماء بالمناخ.

يمكـــن اعتبار المناخ السائد بالمنطقة، وبشئ من التعميم، مناخا متوسطيا جبليا يتعرض لـــلمؤثرات الـــبحرية والقاريـــة ، مما سينعكس ، لا محالة على معدلات الحرارة ، وكميات التساقطات، وكذا على نظام توزيعها وتوقيتها.

فـــيما يخـــص الحـــرارة، تجدر الإشارة إلى أن عامل الموقع من خطوط العرض وعامل الارتفـــاع ، يجعلان المعدلات السنوية منخفضة إذا ما قورنت مع المناطق الأقل ارتفاعا. وهذا ما يلاحظ من خلال الجدول رقم 1: (المعدلات على مدى 25 سنة : 1963 - 1988) .

معطيات المحطات	الإرتفاع بالمتر	معدل التساقطات ملم/سنة	متوسط أحر الشهور	متوسط أبرد الشهور	المتوسط الحراري السنوي
يفرن	1640	1108	30.7	-4.2	10.9
أزرو	1250	817	33.6	2.4	15.2
إيموزار	1448	690	28.3	-0.1	12.8
الحاجب	1050	663	33.6	2.4	15.2
مكناس	530	568	34.2	4.4	17.3
فاس	415	548	35.8	4.3	17.8

المصدر : صاحب المقالة .

معدلات التساقطات لبعض مدن منطقة الكوس والسايس .

هـــذه الأرقـــام توضح من حيث الحرارة، أن الفصل البارد تسجل فيه بعض المحطات كيفرن وإيموزار حرارات دون الصفر في معدلها الأدنى للشهر الأكثر برودة، في حين لا يتعدى نفـــس المعـــدل 4.5 درجة في باقي المحطات، إلا أن هذا لا يعني بالطبع ، كون هذه المعدلات

الأخـــيرة لاتـــنـــزل تحت الصفر، بل هناك إمكانية حدوث الجمد الذي يصل إلى 118 يوما بيفرن ، و 14 يوما بأزرو.

-التســـاقطات ، من جهتها، وبحكم انفتاح المنطقة على الغرب و مؤثراته المحيطية، إضافة إلى عـــامل الإرتفـــاع، فإن كمية الأمطار التي تستقبلها المنطقة تعتبر مهمة، لكن معدلاتها طبعا، تختـــلف حســـب الموقع وأهمية الإرتفاع، كما يتضح ذلك في الجدول أعلاه والرسم المبياني التالي:

معدلات تساقط حرارية لبعض المحطات بالكوس والسايس .

المصدر : صاحب المقالة .

إلا أن المعـــدلات المشار إليها تبقى نسبية إلى حد ما ، خصوصا وأن المناخ المتوسطي يـــتميز بعدم الإنتظام، وخاصة بعدم الاتزان في التساقطات السنوية ، مما قد يؤدي، ولسنوات طوال، إلى ظهور جفاف نسبي.

يـــبقى الحديث عن تساقط الثلوج التي يمكن اعتبارها مهمة من حيث الكم والتوزيع ، لمـــا تلعـــبه من دور هام في إذابة الكلس لغناها بثاني أكسيد الكاربون الذي يكسب الوسط حموضة وعدوانية قادرة على القيام بهذه العملية الكيماوية.

دون شـــك أن عاملي الموقع و الإرتفاع يلعبان دورا أساسيا في ظهور هذا النوع من التســـاقطات، ذلك أنه إذا كان معدل الإرتفاع لبداية تساقطات الثلوج في الأطلس المتوسط هو 1500م ، فإن هذا المعدل يصل إلى 2500 م بالأطلس الكبير. يضاف إلى هذا عامل ثالث ، يتجلى في توجيه السفوح بالنسبة للكتل الهوائية الرطبة والباردة .

معطيـــات كميات الثلوج المتساقطة ليست متوفرة بالقدر الكافي، نظرا لقلة المحطات الخاصة بذلـــك، ويكفي أن نشير إلى أن معدل أيام تساقط الثلوج بيفرن هو 25 يوما، الحاجب خمسة أيام. أما معدل السمك فهو 60 سنتم/سنة، و 45 يوما كمعدل لمدة الإثلاج بيفرن.

مـــن نـــتائج هـــذه المعطيـــات المـــناخية، ظهور غطاء نباتي غابوي يجمع العديد من التشـــكيلات، يتمـــثل أهمها في البلوط الأخضر، الصنوبر والأرز. هذا الغطاء من شأنه، إلى جانب فصلية توفر المياه وانخفاض درجات الحرارة على الأقل في فصل الشتاء، أن يغني الوسط بـــثاني أكسيد الكاربون، مما سيجعل المياه حمضية بنسب تجعل هذه الأخيرة قادرة على إذابة الصخور الكربناتية، سواء على مستوى السطح عن طريق الجريان السطحي، أو المتسربة عن طريق عملية تمرير المياه داخل الصخور، وكذا بواسطة تحرك الفرشات المائية الجوفية.

يفهـــم من هذا إذن، أن الاهتمام يجب أن ينصب على الدور الكيماوي الذي تقوم به المياه لإذابة الصخر، حتى نستطيع الخروج بتصور عام لما عرفته، على الأقل، الفترات الرباعية مـــن تقلبات ونشاطات كيماوية، تركت آثارها ممثلة في أشكال كارسية لا زالت تعرف، إلى حد ما، بعض التطورات الخفيفة في ظل المناخ الحالي.

2 – نتائج الإذابة من خلال المقاييس والأشكال الناتجة:

لمعـــرفة أهمية الإذابة الحالية وخاصة بالنسبة لمنطقتنا يجب القيام بدراسة محتوى المياه من المحـــلولات، وربطه بمنسوب المياه المصرفة سنويا، وبأهمية ونسبة ما تحتوي عليه الصخور من كربـــناطات الكلسيوم، وهذا من شأنه تحديد سلوك الصخر الكرباتي ارتباطا بعنصر المناخ و خاصياته، وكذا بعنصر الزمان الذي استغرقته عمليات الإذابة وتحريك المحلولات.

الـــتقدم في هـــذا النوع من الدراسة ، يمكنه إعطاء معلومات جد هامة عن الظروف المـــتوفرة الحاليـــة المساهمة في تشكيل التضاريس الكارستية ، التي تبقى في مجملها موروثة ، بالرغم من تنوعها وتعددها، عن فترات كانت فيها ظروف التشكيل أكثر ملاءمة مما هي عليه حاليـــا. ويكفي إرجاع هذه الفترات إلى الحقبة البليورباعية أولا : لأن منطقة الكوس عرفت مرحلـــتين للتســـوية اعطتنا سطحين متداخلين : الأول ايوسيني، والثاني ميوسيني ثانيا : لأن عملية تسوية السطح، تقوم بطمس معالم التضاريس التي كانت تميز فترة ما قبل التسوية.

أ – مدلول بعض القياسات المتعلقة بالمحلولات الكربناتية:

دراستنا لموضوع الإذابة، خاصة تلك المتعلقة بالفترات المناخية القديمة، ليست بالسهلة، خصوصـــا وأنها تنحصر بالأساس, على الأشكال الكارستية المترتبة، وما عرفته من تطورات لاحقة، وهي صعوبة تتجلى في عدم الضبط النهائي والصحيح للخصائص المناخية التي عرفتها المـــنطقة خـــلال الفـــترات الرباعية. كما تتجلى في كون التعرية عملت على بتر العديد من الأشـــكال، ونقـــل التوضعات التي من الممكن ، أن تساعد على تأريخ هذا النشاط المرتبط بالإذابـــة و التشكيل . أمام هذا الوضع المعقد، يبقى الاعتماد على ماهو متوفر من معطيات حاليـــة، تهـــم التشـــكيل إلى جانب قياس ما يتم نقله من محلولات، عن طريق المجاري المائية والفرشات الجوفية عند مخارج العيون .

دراســـة أهميـــة الإذابة سيتم الاعتماد فيها على نسب ما تتوفر عليه المياه من محلولات الكالســـيوم والماغـــنيزيوم. والسبب في هذا الاعتماد يرجع أولا : لعلاقة هذه المواد المحلولة بالخصوص، مع طبيعة الركيزة الصخرية للمنطقة . ثانيا : إلى ما يمكن أن يحدث، في الظروف الملائمة، من تساقطات كربناتية ثانوية.

أهمية الإذابة نستهلها بتقديم بعض المقاييس التي همت مجموعة من العيون والمجاري المائية المـــتواجدة بـــبعض الجهات من هضاب الكوس التي تم التركيز فيها بالخصوص، على كوس إيموزار ويفرن (انظر الجدولين اللاحقين رقم 2 و 3) .

الجدول رقم 2 :

العيون الكاتيونات Mg / l	عين أجراح	عين فتيل	عين زروقة	عين مرسة
Ca++	22	76	24	37
Mg++	52.8	42.6	38.4	39.1
HCO-3	281	280.5	213.5	269
Mg/Ca	1.4	0.56	1.6	1.06
ER	275	290	--	268

المصدر : ب . حكيم (بتصرف) .

معطيات كيماوية لبعض العيون ..

هناك عدة ملاحظات يمكن الخروج بها من خلال قراءة أولية للجدول رقم 2، أهمها أن أيونـــات الكالسيوم ، المغنيزيوم والهيدروكاربنات تمثل أعلى نسبة من مجموع المحلولات المعبر عـــنها مـــع الإشارة أن نسبة المغنيزيون تفوق دائما نسبة الكالسيوم، كون الركيزة الصخرية يغـــلب عـــليها صـــخر الدلومي، بالرغم من بعض الإستثناءات التي تظهر من خلال حاصل Mg/Ca بالنسبة لعين فيتل، في حين نجد هذا الحاصل يرتفع إلى أقصاه بعين أجراح ليبلغ 2.4 .

يضـــاف إلى هـــذا، كميات عناصر الصخر ER التي تبلغ حسب ب . حكيم 1982 ، معدل 300 ملغ/ لتر تقريبا، وهو معدل مرتفع، يؤكد أن الكارست الداخلي غير متطور، بمعنى أن المسالك والقنوات الباطنية ضيقة، نظرا لما تعرضت له المنطقة من أزمات تكتونية متجددة، عملت على إحداث ضغوط في الصخور، وسد مسالكها أحيانا، نتيجة الإنكسارات وتفاوت الكتل المنكسرة. وهذا ما أكده الكاتب، وحاول وضع مقارنة تتعلق بالمحلولات الكربناتية بين

الأطـــلس المتوسط وجبال لبنان، فوجد أن معدل المحلولات في الأول يتراوح بين 300 و 500 مـــلغ/لتر، بينما لا يتعدى 170 ملغ/لتر في الثانية، مما يدل على حداثة ونشاط العمل الحلحلي بمنطقتـــنا . ومـــا يزيد في تأكيد ذلك ما أشار إليه نفس الكاتب، كون الكميات المزالة من الصخور الكربناتية تتراوح بين 25 و 30 م مكعب/كلم مربع/ سنة في الأطلس المتوسط، و 30 إلى 35 م مكعـــب/كـــلم مـــربع/ سنة بجبال لبنان. وهذا فارق مهم يرجع إلى كون معدل التســـاقطات بهضاب الأطلس المتوسط ، يتراوح بين 700 و 850 ملم/سنة ، و 1900 ملم/سنة بالنسبة لبعض جهات جبال لبنان، مما يجعل كمية المحلولات تزيد مع الصبيب، ومع طول مدة التساقطات.

أمـــا بالنســـبة لمحلولات المجاري المائية، فجزء مهم منها توفره عيون تغذيها باستمرار، وهـــذا يتضـــح من خلال مثال واد تيزكيت الذي يتبين من خلال المحطات الأربعة المأخوذة عـــلى التوالي من العالية نحو السافلة: واد زروقة، سافلة عين فيتل، سيدي المخفي، أن نسبة كربـــنات الكالسيوم تقل نسبيا في اتجاه سافلة سيد المخفي ، في حين يبقى حاصل المغنيزيوم على الكالسيوم مرتفعا نسبيا : (حوالي 1.4 . انظرالجدول رقم 3) .

الجدول رقم 3 :

المواقع الأيونات Mg/l	واد زروقة عالية تيزيكت	واد تيزيكت سافلة عين فيطيل	واد تيزيكت سيدي ابراهيم	واد تيزيكت سيدي المخفي
Ca++	35	31	29	29
Mg++	50.4	54.9	46.8	40.3
HCO-3	359	335.5	305	263
Mg/Ca	1.44	1.77	1.61	1.38
ER	293	294	258	238

المصدر : ب . حكيم (بتصرف)

معطيات كيماوية لبعض المواقع من واد تيزكيت .

ب – بعض النتائج المرفولوجية لعملية الإذابة :

هـــي نـــتائج تهم التشكيل الكارستي السطحي والباطني، كما تهم تكوين بعض الأتربة الغنية بأطيان التركلة على مستوى الشخاريب والمنخفضات المغلقة بغض النظر عن اتساعها. يضـــاف إلى هـــذا ، التساقطات الكربناتية الثانوية (رصراصة وفليس) التي تظهر عند مخارج العيـــون وأســـرة المجـــاري المائية (واد تيزيكت)، خصوصا عند مواقع انقطاع الانحدارات: (الهوامش الشمالية لكوس إيموزار أو الحاجب مثلا).

تـــناول هذه النتائج سيهم بالأساس شكلا خاصا من الأشكال الكارستية نشأ وتطور في ظـــروف يمكـــن اعتبارها ملائمة، إذا ما اعتبرنا العوامل الصخارية، التكتونية، البيومناخية والطبغرافية. إنها الإصعانات (تسمية محلية تعني منفرجا وسط الغابة) التي تمثل منخفضا متسعا ومـــتعمقا نســـبيا لا يصل طبعا ، إلى مستوى الدارات التي تتطلب في نشأتها ظروفا بنيوية ، قـــادرة عـــلى ضـــمان استقرار الفرشات المائية السطحية والجوفية لإذابة الصخور وتصريف المحـــلولات، وهذا غير منتشر بشكل كبير في المنطقة الشمالية لكوس الأطلس المتوسط، نظرا من جهة، للنشاط المتكرر للحركات التكتونية، والتي يرجع آخرها، حسب ج. مارتان 1977، إلى الفـــترة البليوفلافرانشية، مما يجعل الفرشات المائية الجوفية تعرف عدم استقرار في مستوى قاعدتهـــا مما أدى إلى توقف في اتساع وامتداد المنخفضات الكارسية، ونظرا من جهة ثانية، لكـــون الظروف المناخية ، لم تكن بالمستوى المطلوب لجعل الكارست يتطور بشكل متقدم، كمـــا هو الشأن مثلا، بالنسبة للهضاب الجنوبية ، وخاصة بكوس أجدير و عين اللوح اللتان تعتبران أكثر ارتفاعا وقارية.

هـــذه الإصعانات تنتشر في العديد من جهات الكوس، خاصة في المناطق التي تغطيها الصـــخور الكلسية المنتمية لحقبة اللياس الأوسط . تطورها ينطلق من نشاط حلحلي سطحي للصـــخور، ليســـتمر في اتجاه العمق، وذلك في حالة استمرار تسرب المياه التي لم تصل عتبة الإشـــباع بالمحلولات الكربناتية. هذا التطور غالبا ما يستعمل خطوط الإنكسارات، كما هو الحـــال بمنطقة الركادة شمال كوس إيموزار، أو ببعض المقعرات البنيوية كإصعان آيت الحسن

غـــرب ضـــاية عوا ، أو محاور خطوط مجاري مائية موسمية قديمة، كما هو الشأن مثلا، بغابة جعابة غرب مدينة يفرن.

إصعان أحفور كنموذج للدراسة:

يطلق عليه إصعان تمزكدة ، ويقع شمال ضاية عوا على ارتفاع 1407 م، ويتعمق بمدى 100م. شكله شبه دائري، منبسط عند القعر، ويصل اتساعه إلى 400 م . قاعدة هذا المنخفض كلسية، بينما أعالي السفوح المشرفة دلومية تميل في اتجاه وسط الاصعان، هذا مع تواجد انكسارين شبه متوازيين، يحدان المنخفض من الشمال الشرقي والجنوب الغربي.

هذه الخصائص تدفع لاعتبار منخفض أحفور، نموذجا للمنخفضات البنيوية التي تعرضت أثناء تطورها إلى عمليات حلحلية ، جعلت سمك المواد الفتاتية التي عرفت نوعا من التترب ، يصل ستة أمتار تقريبا.

دراسة هذا المنخفض استلزمت أخذ عينات ترابية من نقط همت وسط و جوانب المنخفض، وذلك بهدف التعرف على طبيعة وأصل هذه المواد، والمراحل التي مرت بها ، وكذا الظروف التي ساعدت على تكوينها (انظر مقطع إصعان أحفور).

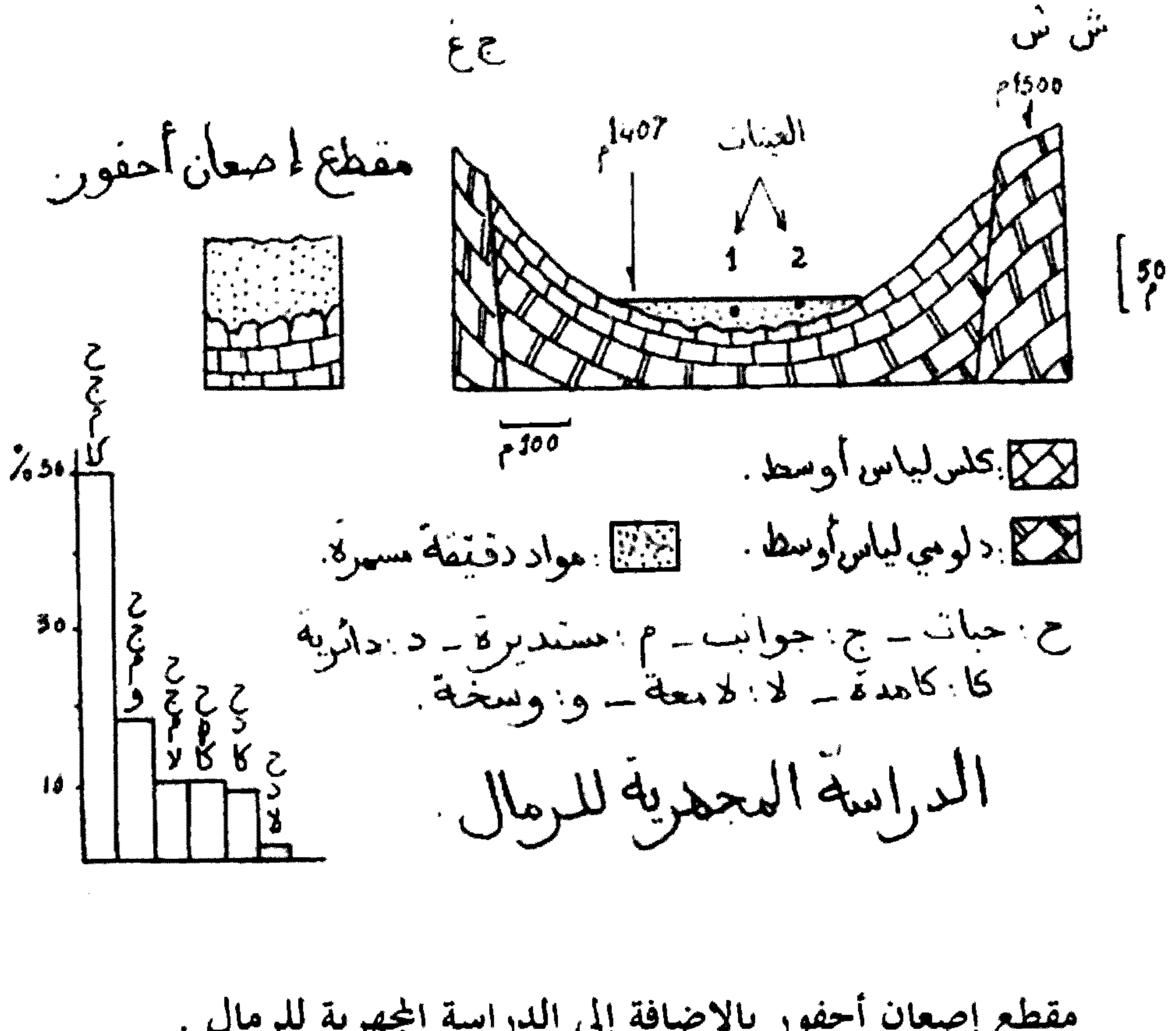

مقطع إصعان أحفور بالإضافة إلى الدراسة المجهرية للرمال .

العينة الأولى من وسط المنخفض على عمق متر واحد . بعد المعاينة والدراسة ، لوحظ ما يلي: المادة مسمرة اللون : طين ودقة خالية من الكلس . البنية تميل إلى الموشورية . نسبة الهيدروجين 8 ، بمعنى أن الوسط قاعدي.

نسبة الرمال ضعيفة : 4% فقط، مما حال دون القيام بالدراسة المجهرية . أما الدراسة العيدانية ، فقد أكدت غلبة الإليت، إلى جانب الكلوريت التي ظهرت على حساب الإليت بفعل تواجد كاتيون المغنيزيوم الذي يستطيع تعويض البوكاسيوم الكائن بالمجالات البيورقية للاليت.

العينة الثانية أخذت من الجانب الشرقي للمنخفض على عمق 20 سم. المادة تقل سمرة عن سابقتها. موادها دقيقة ونسبة الهيدروجين 7.5 . نسبة الرمال تصل 15 % ، لكن الفئات

القياســـية الممثلة تبقى دقيقة جدا : 86 % من مجموع الدراسة العيدانية أكدت تواجد الإليت والكلوريت، لكن بحضور عناصر متفرقة من الكوارتز.

من خلال هذه المعطيات يمكن استنتاج ما يلي :

قلة العناصر الرملية للعينة الأولى، مما يدل أن عملية التفسخ الكيماوي كانت متقدمة، خصوصـــا وأن بعـــض الحبيبات المتبقية من عملية الغربلة، ظهرت كمادة واضحة، وهذا ما أكدتـــه العينة الثانية التي مثلت فيها الحبات الوسخة 18%، إضافة إلى كونها تحتوي على آثار احمـــرار يشهد على ظروف مناخ حار نسبيا و رطب يتميز بالفصلية . تبقى الإشارة إلى أن نسبة الحبات الدائرية من مجموع العينة الرملية، تمثل حوالي 10%، إلى جانب 12% من الحبات المدمـــلكة اللامعة . هتان الخاصيتان تطرحان إشكالية كبيرة، تتمثل أولا : في تواجد الحبات الدائرية التي يعني وجودها ، ضرورة خضوع هذه الحبات إلى دينامية محركة لها علاقة بعنصر المـــاء، وهذا مستبعد بالنسبة لهذا المنخفض، ما دام عامل التفسخ الكيماوي هو الغالب، وما دام هذا الأخير لا يستطيع أن يعطي حبات كروية الشكل.

ثانيـــا : في وجـــود حبات لامعة (12%) أي أنها لم تتأثر رغم دملكتها بالأكسدة، أو بأي محلول كيماوي آخر، يكسبها نوعا من الكمادة .

حـــل هذه الإشكالية يدفعنا للأخذ بفرضية أن هذه الحبيبات في أصلها، لا تنتمي إلى مواد المنخفض المدروس، بل ساقتها الرياح من ضاية عوا، التي لا تبعد عن الإصعان إلا بحوالي كلمـــتر واحد فقط، وذلك في فترات مناخية قديمة اتسمت بنوع من الجفاف وضعف الغطاء النباتي، خصوصا وأن الضاية كانت تشغل مساحة أكبر مما هي عليه الآن، ولها شواطئ تحتوي عـــلى نسبة مهمة من الحبات الرملية الدائرية والمدملكة (ع.السبتي 89)، وهذا لن يتأتى طبعا، إلا بـــتدخل حركة للمياه عند هوامش الضاية (أمواج صغيرة) مما يسمح، مع الوقت بدملكة مرتفعة للحبيبات، ويقوم بغسلها وتهييئها لرحلتها القصيرة.

خلاصة :

مـــن خـــلال تقديم هذه المعطيات المتعلقة بظروف ونتائج عملية إذابة الكلس بهضاب الأطلس المتوسط، في إطار خصائصها الصخارية والتكتونية ، وكذا ظروفها المناخية والنباتية، يتضـــح أن عمـــلية الإذابة الكيماوية الحالية، يمكن اعتبارها نشيطة إلى حد ما ، خصوصا إذا قارناهـــا مـــع الفـــترات المناخية القديمة التي كانت أكثر ملاءمة، بدليل ما تركته من أشكال كارســـتية، يتمثل معظمها في الشخاريب والجوبـــات الصغيرة والمتوسطة . وقد لوحظ من خلال نموذج إصعان أحفور، أن تقدم الحلحلة والتفسخ ، يمكنه أن يساعد على تنشيط عملية التترب من خلال نشأة وتطور بعض الأطيان، ومن خلال الإغناء بالمادة العضوية، خاصة وأن المـــنطقة عرفت دون شك، وخلال الفترات الرباعية، غطاء نباتيا أكثر كثافة وانتشارا مما هي عليه في الوقت الراهن.

لكن بالرغم من هذا تبقى المعطيات الطبغرافية والصخارية للمنطقة، غير ملائمة لمزاولة نشـــاط فلاحي مهم، ليقتصر الأمر على ممارسة فلاحة تقليدية محدودة ومحصورة على بعض المنخفضـــات الكارستية والأودية الجافة، مما يدل على فقر المنطقة، واعتماد ساكنتها القروية على الرعي، واستغلال المناطق الغابوية، لضمان نوع من الاستقرار النسبي.

البيبليوغرافيا :

Beaudet.G . 1971 : Le Quaternaire Marocain . Etat des études. R.G.M. n°20 .

Beaudet.G . et Martin.J . 1967 : Observations morphologiques sur les bordures Nord-ouest et Ouest du Moyen Atlas.R.G.M.n° 12 .

Couvereur.G .1974 : Le Rôle de la Neige dans l'évolution des formes karstiques de hautes montagnes du Haut Atlas Central . Mémoires et documents. Nlle Série. Vol 15 Phén. Karts II .

Géze . B. 1971 : Relation entre les phénomènes karstiques de surface et de profondeur. Bul. Ass. Géo. Fr . N° 389-390.

Hakim.B .1982 : Recherches hydrologiques et hydrochimiques sur quelques karsts méditerranéens : Liban, Syrie, Maroc. Thèse de Doct.d'etat . Univ . Aix Marseille II .

Julian.M.et Martin . J . 1981 : Signification géomorphologique des tufs et travertins B.A.G.F N° 479-480.

Lepoutre.B et Martin . J . 1967 : Le Cause Moyen Atlasique . C.R.A N° 24 Inra Rabat.

Martin .J. 1977 : Le Moyen Atlas Central : Etude géomorphologique . Nôtes et mémoires du S.G.M. N° 258 bis

Sebti.A 1989. Etude géomorpholigque de la région d'Ifrane. D.E.S Univ Mohamad V. Rabat .

الأنشطة الشفوية

لمواد الأدب العربي

(مقرر) لغة

| | | |

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

[illegible]

- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] لنقد

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]